

القوة والمجد

جراهام جرين

- Author : Graham Green
- Title: The Power and The Glory
- Translated by: Husein Al Kabany
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- General Editor: Tarek Hashim

♦ المؤلف: جراهام جرين

♦ العنوان: القوة والمجد

♦ ترجمة: حسين محمد القبانى

♦ طبعة أفاق الأولى 2018

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ المحرر العام: طارق هاشم



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ٢٦٨١٥

الترقيم الدولي : ISBN

978-977-765-090-8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO- EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com- www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

جراهام جرين

القوة والمجد

رواية

ترجمة

حسين محمد القباني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جرين، جراهام.

جراهام جرين : القوة والمجد - رواية - ترجمة: حسين محمد القباني

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

480 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 26815 / 2016

الترقيم الدولي 8 - 090 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - جرين، جراهام

هذه ترجمة رواية:

The Bower And The Glory

By

Graham Green

تقديم

تعالج هذه القصة الممتعة موضوع الخير والشر في الطبيعة الإنسانية، وتظهر مدى تغلغل الإيمان بالله في أعماق النفس البشرية... ففي إحدى المقاطعات النائية عن العمران في جمهورية المكسيك، أصدر حاكم المقاطعة أمراً يحرم على المواطنين ممارسة الشعائر الدينية، ويقضي بهدم المعابد وتشريد رجال الدين أو إرغامهم على الزواج والحياة كما يعيش الأفراد العاديون.

وكان يمثل القوة المادية لتنفيذ هذا القانون ضابط بوليس مختال بنفسه، يعتقد أن العالم خُلق مصادفة، وأنه لا توجد قوة علوية خلقتة ونظمتة، ومن ثم أخذ يهيئ لسكان المقاطعة أسباب الحياة المادية التي تخلو من الإيمان والروحانية، وكان يمثل القوة الروحية والإيمان العميق بالله راهب يدعى «مونتيث»... أبى أن يخضع لقانون الزواج وأبى أن يفّر كما فرّ غيره من رجال الدين، وإنما قرر البقاء في الولاية متخفياً؛ ليشعل نيران المقاومة في نفوس الأهالي وليبقى شعلة الإيمان مضرمة في قلوبهم.

وتدور أحداث الرواية حول الصراع الرهيب بين «القوة» التي يمثلها الضابط الملحد، و«العظمة» التي يمثلها الراهب المكافح. وفي سياق هذا الصراع المشوق لا تكاد تخلو صفحة من هذه القصة من حكمة بليغة أو من فكرة طريفة تثير في الذهن والنفس سلسلة من الخواطر، أو من عبارة رائعة تحرك في الأعماق معاني الاشمئزاز من فكرة الإلحاد... والقصة زاخرة بالمواقف الآخاذة التي يقف القارئ أمامها مبهورًا مذهوشًا... نذكر من هذه المواقف الكثيرة أربعة:

الموقف الأول: ذهب الراهب مستخفيًا إلى إحدى القرى ليختبئ فيها ويلتمس الطعام والشراب والمأوى؛ بعد أن أجهده المطاردة، فاستقبله أهل القرية الفقراء بالترحاب رغم الخطر الذي يهددهم جميعًا، وطلبوا منه أن يقيم القداس والشعائر الدينية التي حرّموا منها طويلاً... ولكن رجال البوليس حاصروا القرية في الصباح للقبض على الراهب. ورغم أن السلطة كانت قد رصدت خمسمائة «بيرة» مكافأة لمن يرشد عن الراهب الهارب، فإن أهل القرية الفقراء بذلوا كل ما يستطيعون من جهد لإخفائه عن أعين رجال البوليس، بل لقد ضحوا ببعض الشبان ليكونوا رهائن في يد الضابط الملحد، رافضين أن يسلموا رمز الإيمان والمجد إلى أعدائه..

والموقف الثاني: عندما قبض رجال البوليس على الراهب المتخفي بتهمة إحراز مواد كحولية بدون ترخيص... قبضوا عليه وهم لا يعلمون حقيقة شخصيته، ثم زجوا به إلى «زنزانة» مزدحمة بحثالة من المجرمين والقتلة والسكيرين.. وقد بلغ من عذاب الراهب في

تلك الليلة وهو يجلس القرفصاء في الزنزانة الرهيبة أن استبد به اليأس حتى كاد أن يكشف عن شخصيته الحقيقية للنزلاء الزنزانة؛ كي يتيح لأحدهم فرصة الكشف عن حقيقته لرجال البوليس ويطفر بالمكافأة.. ولكن النزلاء ما كادوا يعرفون حقيقته حتى راحوا يعترفون له بذنوبهم ويطلبون إليه أن يلتمس لهم من الله الصفح والغفران... ورفض كل واحد منهم حتى الرهائن الذين سيقوا إلى الموت أن يرشدوا عن الراهب وهو يمر أمامهم في الصباح إلى غرفة التحقيق بتهمة إحراز المواد الكحولية.

لقد فاق هذا الموقف كل ما يمكن أن يتصوره الإنسان من قوة تغلغل الإيمان بالله في أعماق النفوس البشرية حتى ولو كانت نفوس أولئك الذي ضلوا الطريق في الحياة!

والموقف الثالث: عندما استدعى الراهب إلى الجلوس بجانب مجرم هارب أصابه رجال البوليس إصابة قاتلة.. ورغم أن الراهب كان يعرف أنه كان في هذه الدعوة كميناً للإيقاع به في أيدي رجال البوليس، فإنه أبى إلا أن يقوم بواجبه نحو المحتضر الذي أبى أن يلتمس هذه المغفرة حتى لا يقع الراهب في قبضة البوليس، ولقد كانت آخر كلمات المحتضر قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة: «اهرب يا أبي.. لا شأن لك بي.. اهرب قبل أن يقبضوا عليك..»؛ حتى المجرم القتال في ساعة الاحتضار ينسى نفسه ويحاول أن ينقذ رمز الإيمان من أيدي أعدائه!

والموقف الرابع: عن غلام يافع كان شديد الافتتان بالضابط

الملحد.. كان يبادلّه التحية كلما التقى به ويحاول أن يلمس مقبض مسدس الضابط الذي كان في نظره يمثل القوة المادية.. وكان الضابط فخورًا بهذا الغلام وأمثاله، ويعتقد أنهم «الجيل الجديد» الذي لن يؤمن بغير المادية. ولكن الأحداث تتطور ويستشهد الراهب برصاص الضابط وجنوده ويعرف الغلام حقيقة الأمر من أبويه، فيشعر أنه كان مخدوعًا وأن هذا الضابط ليس إلا رمزًا للشيطان.. ومن ثم لم يتردد في أن يبصق عليه عندما رآه يمر تحت نافذته ذات مساء. ووقعت بصقة الازدراء على مقبض المسدس رمز القوة المادية..

وفي نفس الليلة صحا الغلام على طرق خفيف يدق على الباب الخلفي لمنزله، فلما فتح الباب شاهد راهبًا آخر وفد إلى الولاية ليحمل شعلة الكفاح في سبيل الإيمان بعد استشهاد الراهب «مونتي». وهكذا.. ليست قصة جراهام جرين «القوة والمجد» مجرد متعة أدبية وحبكة قصصية يتسلى بها القارئ، وإنما هي - وأيم الحق - مجموعة من المتع الفلسفية التي لا مفر للقارئ من الوقوف عند كل منها، يتأمل، ويتأثر، ويستمتع بانسياب الفكرة الفلسفية في سياق السرد القصصي بصورة تثير كوامن الإعجاب.

والقصة، بهذا الاعتبار، كتاب في فلسفة الحياة وفلسفة المادة والروح، ينتهي منه القارئ بانتصار الروحانية على المادية، وسيطرة الأولى على نفوس البشر. وتأصلها في الغرائز الإنسانية واستقرارها في حنايا كل قلب - حتى قلوب القتلة الآثمين..!

الجزء الأول

الفصل الأول

الميناء

خرج مستر تنش يبحث عن أسطوانة الأثير، تحت شمس المكسيك الحامية وفي غبار الطريق الأبيض.. وكانت بعض عقبان الجو تطل عليه من سقف مسكنه في دناءة واستهتار.. فتحرك في قلبه ديبب الثورة عليها.. إنه لم يصبح بعد رمة تصلح لطعامها! ومن ثم انحنى وانتزع بأصابعه ذات الأظافر المشقوقة قطعة من حجر الطريق وقذف بها- في وهن- نحو العقبان... فشالت إحداها طائرة نحو المدينة.. وحلقت فوق الساحة الصغيرة، ثم فوق الأجزاء العليا من بعض المنشآت، ثم فوق جوسقين «كشكين» لبيع المياه المعدنية، ثم مضت نحو النهر، ثم إلى البحر.. إنها لن تجد ثمة شيئاً يؤكل.. فإن كلاب البحر تعودت أن تلتمس الرمم في ذلك المكان.

ومضى المستر تنش عبر الساحة، وألقى بالتحية على رجل كان يحمل بندقية ويجلس في قليل من الظل بجانب جدار. ولكنه تبين أن الحالة هنا ليست كما هو في إنجلترا.. فإن الرجل لم يرد عليه تحيته، وإنما راح يحدق في مستر تنش بنظرات ملؤها الضغن، وكأنما الرجل لم يتعامل من قبل مع هذا الأجنبي.. أو كأنما لم يكن مستر تنش هو صانع سنتيه الذهبيتين! ومضى مستر تنش في طريقه والعرق يتفصد منه، واجتاز مبنى الخزنة العامة الذي كان يومًا ما كنيسة، وفيما هو يمضي نحو رصيف الميناء، توقف فجأة وقد نسى السبب الذي من أجله غادر المسكن! هل خرج ليشرب قدحًا من المياه المعدنية؟ فلم يكن ثمة مشروب غيرها في هذه البقعة التي حرمت فيها- قانونًا- المشروبات الروحية ما عدا البيرة. ولكن هذه- أي البيرة- مرتفعة الثمن- إلا في المناسبات الخاصة- بسبب احتكار الحكومة لبيعها.

واستبد بمعدة المستر تنش إحساس من الغثيان رهيب.. لا.. ليست المياه المعدنية التي خرج من أجلها.. إنها أسطوانة الأثير بطبيعة الحال.. لقد وصلت السفينة الصغيرة إلى الميناء، فقد سمع صفيها المدوي وهو راقد بعد تناول وجبة الغداء. ثم هب سائرًا ومر في طريقه بدران الحلاق، وعيادتين لطب الأسنان، ثم وصل آخر الأمر إلى مكان على ضفة النهر بين إدارة الجمرك ومخزن البضائع..

وكان النهر يجري في بطء نحو البحر بين مزارع الموز، وكانت السفينة «جنرال أبريجون» راسية على ضفة النهر لتفرغ حمولتها من صناديق البيرة.. مئات الصناديق كانت متراصة على الرصيف. ووقف

المستر تنش في ظل مبنى الجمرك وشرع يفكر «لماذا أنا هنا؟!» إن ذاكرته تنض منه لفرط حرارة الجو.. وإنه لينفس عن غضبه بالبصق في شعاع الشمس، ثم إذا هو يجلس على صندوق لينتظر.. فليس هناك ما يعمل، وليس هناك من يأتي لزيارته قبل الخامسة..

وكانت المركب «جنرال أبريجون» صغيرة لا يزيد طولها على الثلاثين ياردة.. يعلوها سياج من القضبان التالفة طوله بضعة أقدام، وعلى جانبها زورق واحد للنجاة، وثمة ناقوس معلق بحبلٍ بال، وفي مقدمتها مصباح زيتي، وكان الواضح أنها لن تستمر تمخر عباب المحيط أكثر من عامين أو ثلاثة- إذا لم تلتق بإعصارٍ شمالي في خليج المكسيك.. ففي مثل هذا اللقاء تكون النهاية. وإذا حدث هذا فلن يكون بالأمر الخطير؛ لأن المعتاد أن يؤمن كل راكب على حياته- آلياً- عند شراء تذكرة الركوب. وكان ثمة ستة ركاب يعتمدون على السياج بين مجموعة من الديكة الرومية المقيدة ويطلون على الميناء حيث مخزن البضائع، وعلى الشارع الخالي المتلطي في سفير الشمس، وعلى دكان الحلاق وعيادتي طب الأسنان.

وسمع المستر تنش خرخشة جراب غدارة وراء ظهره، فاستدار برأسه حيث رأى أحد ضباط الجمرك يتأمله في غضب ويغمغم بكلمات لم يستطيع المستر تنش أن يتبينها... ومن ثم قال له: «معذرة يا سيدي!».

وعاد الضابط يقول بصوت غير واضح: «أسناني!..!».

فقال المستر تنش: «نعم.. أسنانك!».

ولم يكن للضابط أسنان.. وكان هذا هو السبب في غموض كلماته. وكان المستر تنش هو الذي قام بخلعها جميعاً.. ومرة أخرى أحس بهذا الشعور الرهيب من الغثيان.. لاشك أنه يعاني من مرض ما.. الديدان.. أو الزحار «الدوسنتاريا».

وقال للضابط: «إن طاقم الأسنان يوشك أن يتم.. الليلة».

وكان يعرف أنه غير صادق في هذا الوعد.. نعم.. كان من المستحيل أن يفرغ من إتمام طاقم الأسنان في تلك الليلة.. ولكن هكذا كان يعيش.. يؤجل كل شيء إلى غد.. وها هو قد رأى الضابط قد رضي واقتنع ثم لعله ينسى!.. وأياً كان الأمر، فماذا في وسعه أن يفعل! لقد دفع ثمن الطاقم سلفاً.. وهذا هو كل شيء في عالم المستر تنش: حرارة الجو.. والنسيان.. وتأجيل كل شيء إلى غد.. والحصول مقدماً على أجر العلاج!

وشرع يرسل نظراته عبر النهر المبطئ- إلى البحر.. إنه يرى زعنفه سمك القرش تمرق إلى سطح الماء قرب مصب النهر كأنها منظار غواصة... وكانت بعض السفن- على مر السنين- قد تحطمت في مدخل النهر، ثم حملت الأمواج بعض أجزائها إلى الضفاف، فبدت مداخنها فوق سطح الماء كأنها فوهات مدافع مصوبة إلى الأهداف البعيدة.. عبر مزارع الموز والأشجار والمستنقعات.

وعاد المستر تنش إلى التفكير في أسطوانة الأثير.. لقد كاد ينساها.. وفغراه وهو يحصي زجاجات الشراب.. إن في كل صندوق اثنتي عشرة زجاجة.. وعدد الصناديق يبلغ مائة وأربعين! وتجمع

اللعاب في شذقيه وهو يعاود الحساب.. إنه يقول لنفسه بالإنجليزية وبصوت مسموع: اثنتا عشرة أربع مرات تساوى ثمان وأربعون.. «يا إلهي إنه لشيء رائع..» اثنتا عشرة مائة، ست عشرة مائة وثمانون..

وبصق على الأرض وهو يحدق النظر - في غير اهتمام - إلى فتاة كانت تقف في مقدم سطح السفينة «جنرال أبريجون».. كانت فتاة ممشوقة القد، تختلف عن نساء تلك المنطقة.. البدينات غالباً.. ذوات العيون العسلية.. والأسنان الذهبية..

إن هذه الفتاة نوع آخر.. إنها شابة كزهرة الربيع - يا إلهي! ألف وستمائة وثمانون زجاجة.. ثمن كل منها بيزة على الأقل!

وسمع شخصاً وراءه يهمس له قائلاً باللغة الإنجليزية:

«ماذا تقول؟!».

فاستدار المستر تنش بسرعة وهو يسأل في دهشة:

«هل أنت إنجليزي؟!».

ثم لم يلبث أن عدل عن هذا السؤال حين رأى أمامه رجلاً ضامر الوجه، غير حليق الذقن، ثم قال:

«أتتحدث الإنجليزية؟!».

وأجاب الرجل بالإيجاب.. لقد كان يتحدث الإنجليزية.. وكان واقفاً بجمود في الظل.. رجل ضئيل الحجم، يرتدي بذلة سوداء رثة، ويحمل في يده حافظة أوراق صغيرة، وتحت ذراعه رواية بدت منها بعض صفحات ملونة بطريقة بدائية..

وكانت عيناه ناتئتين، وتبدو عليه سمات نشوة غامضة كأنما كان يحتفل - بمفرده - بعيد ميلاد شخص مجهول.

قال الرجل الغريب للمستتر تنش:

«معدرة.. ظننت أنك تتحدث إليّ».

وأزال المستر تنش اللعاب المتجمع بين شذقيه وقال:

«ماذا كنت أقول؟» لقد نسي الرجل ماذا كان يقول..

«لقد كنت تقول: يا إلهي.. إنه لشيء رائع!».

«آه.. ولكن ماذا كنت أعني بهذه العبارة؟».

ثم نظر إلى السماء المتوهجة بحرارة الشمس حيث رأى عقابًا يبدو من بعيد كأنه رقيب.. ثم أردف قائلاً:

«ماذا؟ آه.. إنها الفتاة التي كنت أعنيها كما أظن.. فقلما يرى

الإنسان فتاة جميلة كهذه في هذه الناحية.. فإنك هنا لا ترى فتاة تستحق النظر إليها غير مرة أو مرتين في العام..».

«أهي.. في ميعة الصبا؟».

فقال المستر تنش بصوت ملول:

«أواه.. ليست لي أغراض معينة.. ولا بأس على مثلي أن يتمتع

ناظريه بفتاة جميلة.. فقد عشت بمفردي خمسة عشر عامًا..»

«هنا؟».

وخيم عليهما الصمت.. وراح الوقت ينصرم.. وامتدت ظلال

مبنى الجمر ك بعض الشيء نحو النهر.. وتحرك العقاب في الجو قليلاً
كأنه عقرب ساعة أسود اللون..

وعاد المستر تنش يقول وهو يومئ برأسه نحو السفينة:

«هل جئت فيها؟».

«لا».

«هل ستمضي عليها؟!».

وبدا على الرجل الغريب أنه يريد التهرب من الإجابة عن هذا
السؤال، ومن ثم قال مراوفاً:

«لقد جئت لأرى.. أظن أنها سوف تبهر بعد قليل!».

فقال المستر تنش:

«سوف تبهر في خلال بضع ساعات.. إلى فيراكروز».

«ألا ترسو على موانئ أخرى؟».

«وما هي الموانئ التي يمكن أن ترسو عليها؟..!.. كيف جئت إلى
هذه المدينة؟!».

فقال الرجل الغريب بغموض:

«في زورق».

«أتمتلك مزرعة من مزارع الموز؟».

«لا».

«جميل أن أسمع اللغة الإنجليزية بعد كل هذه السنوات.. هل تعلمت اللغة في الولايات المتحدة؟!».

فلما أوماً الرجل برأسه مما يفيد الإيجاب، أردف المستر تنش قائلاً بصوت خافت:

«لشد ما أهفو إلى أن أكون هناك الآن.. آه.. آمل.. هل يمكن أن يكون في حافظتك هذه بعض الشراب؟ لقد عرفت رجلاً أو اثنين مثلك يحملون قليلاً من الشراب للأغراض العلاجية.. أطيب أنت؟!».

فأرسل الرجل الغريب من عينيه الحمراوين نظرة جانبية حادة إلى المستر تنش ثم قال: «يمكنك أن تسميني.. طيب بدون مؤهل طبي...!».

«آه.. إذن فأنت تحمل عينات من الأدوية.. حسناً! عش.. ودع غيرك يعيش!».

«هل تنوي أن تبهر على السفينة؟».

«لا.. وإنما جئت إلى هنا لكي.. لقد نسيت.. حسناً! هذا لا يهم».

ثم وضع يده على بطنه وأردف قائلاً للرجل الغريب!

«هل أجد لديك دواء- أي دواء؟.. لست أدري ماذا بي..! إنها هذه المنطقة اللعينة! إنك لن تستطيع أن تشفيني.. ولا أحد يستطيع...».

«أتحن للعودة إلى وطنك؟».

فقال المستر تنش:

«وطني!! إن هذه المنطقة هي وطني الآن.. هل تعلم كم تساوي
«البيزة» في مدينة المكسيك!! إن الدولار الأمريكي يساوي أربعاً
منها.. يا إلهي رحمتك وغفرانك..!».

«أأنت كاثوليكي المذهب؟».

فأجاب المستر تنش في اضطراب:

«لا.. لا.. إنه مجرد تعبير، إنني لا أعتقد في شيء من هذه
المذاهب.. إن الجو هنا شديد الحرارة..».

«أريد أن أبحث عن مكان أستريح فيه».

«إذن تعال معي إلى مسكني.. فإن لديّ سريرًا إضافيًا.. ولن تبحر
السفينة قبل مضي ساعات.. هذا إذا كنت تريد أن تراها وهي تبحر..».

فقال الرجل الغريب:

«إنني أتوقع أن أرى شخصًا يدعى لوبيز».

«لقد قُتل رميًا بالرصاص منذ أسابيع».

«قُتل..؟!».

«نعم.. أنت تعرف الحالة هنا.. هل كان صديقًا لك؟!».

فأسرع الرجل يقول باضطراب!

«لا.. لا.. بل كان مجرد صديق لأحد الأصدقاء».

وجمع المستر تنش لعبه مرة أخرى وبصق في ضوء الشمس
الحامية وهو يقول:

«حسنًا.. هذه هي الحال.. لقد قيل إنه كان يساعد غير المرغوب فيهم.. حسنًا، والمهم هو أن فتاته تقيم الآن مع مدير البوليس».

«فتاته؟ هل تعني ابنته؟!».

«إنه لم يكن متزوجًا.. ومن ثم أعني الفتاة التي كانت تقيم معه».

وتوقف المستر تنش فجأة عن الحديث حين رأى وجه الرجل الغريب ينم عن الدهشة البالغة، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه قائلاً وهو ينظر في اتجاه السفينة جنرال أبريجون:

«أنت تعرف الحالة هنا.. آه هذه الفتاة الواقفة على سطح السفينة.. جميلة حقًا.. ولكنها بطبيعة الحال ستصبح كالأخريات في غضون عامين.. بدينة حمقاء.. آه لشد ما أنا ملهوف إلى كأس من الشراب- يا إلهي رحمتك وغفرانك».

فقال الرجل الغريب:

«إن لديّ قليلًا من البراندي».

فنظر المستر تنش إليه في حدة وقال:

«أين..؟».

فوضع الرجل ذو الوجه الضامر يده على حافظة أوراقه، ولكن المستر تنش بادر وأمسك بمعصمه وقال هامسًا:

«لا.. كن على حذر.. ليس هنا..».

ثم نظر إلى الظل الذي بدا على الأرض كأنه بساط قاتم اللون،

وتحولت نظراته إلى حارس كان نائماً على قفص فارغ وبندقيته بجانبه، ثم قال:

«تعال إلى مسكني..».

فقال الرجل الضئيل الغريب في فتور:

«لقد جئت.. جئت لأرى السفينة وهي تبهر».

فقال المستر تنش مؤكداً:

«إنها لن تبهر قبل بضع ساعات».

«بضع ساعات.. أنت متأكد؟ إن الجو هنا حار جداً».

«إذن يحسن بك أن تأتي معي إلى البيت».

البيت!! إنها كلمة تعود أن يصف بها الجدران الأربع التي ينام بداخلها.. أما «البيت» بمعناه الصحيح، فإنه لم ينعم به يوماً. ومضى الاثنان عبر الساحة الصغيرة المستعرة بحرارة الشمس حيث كانت «أكشاك» المياه الغازية مقامة في ظلال شجر النخيل.. وتعود فكرة «البيت» فتسيطر على ذهن المستر تنش.. إن «البيت» في ذاكرته يشبه صورة على ظهر بطاقة بريد بين عدد كبير من البطاقات، فإذا أنت قلبت في هذه المجموعة، ظهرت لك صورة مدينة نوتنجهام، مسقط رأس المستر تنش؟ وملعب صباه.. وقد كان والده طبيب أسنان أيضاً.. وإن أول ما يذكره المستر تنش هو أنه عثر في سلة المهملات على نموذج مهمل لفم فاغر خالٍ من الأسنان، مصنوع من الطين، وكأنه قطعة أثرية متخلفة من هيكل إنسان «النياندرتال» القديم.. وكان هذا النموذج

لعبته المفضلة.. وعبثًا حاول أبواه أن يغرياه بلعبة «الميكانو».. ولكن القدر كان قد قرر مصيره.. ففي مرحلة الطفولة تقع لحظة حاسمة يفتح فيها الباب في حياة الإنسان ليدخل منه المستقبل. هذا الميناء الحار المشبع بالرطوبة! عقبان الجو! هل التقطهما بدورهما من سلة المهملات؟.. جدير بالإنسان أن يشكر ربه؛ لأنه في طفولته لا يدري ماذا يخفي المستقبل أحيانًا من آلام وأهوال..

وكانت القرية التي يسيران فيها ذات طرقات متربة غير مرصوفة.. فإذا هطلت الأمطار جعلتها موحلة زلقة، أما الآن، فإنها تحت أقدامهما جافة كالحجر.. وكانا يسيران في صمت حتى تجاوزا دكان الحلاق وعيادتي طب الأسنان.. وكانت العقبان تجثم على أسقف المنازل، في ترقب وهدوء كأنها دجاج أليف.. فهي تبحث عن الحشرات تحت أجنتها الكبيرة الغبراء. ولما وصل المستر تنش مع صاحبه إلى كوخ من الخشب، قال له: «لقد وصلنا..».

وكان الكوخ مكوّنًا من طابق واحد مرتفع، له شرفة واسعة تحتوي على سرير من الشبك المعلق «الهاموك». وكان أكبر نسبيًا من الأكواخ الأخرى القائمة على جانبي الشارع الضيق الممتد نحو مائتي ياردة في اتجاه المستنقعات.

وعاد المستر تنش يقول لصاحبه بعصبية:

«أتحب أن تلقي نظرة حول الكوخ...! إنني لا أتفاخر إذا قلت إنني أحسن طبيب أسنان في هذه المنطقة.. وهذا الكوخ ليس رديئًا بالنسبة إلى غيره...».

وتموج الفخر في نبرات صوته كأنه نبات غير ثابت الجذور..

وتقدم صاحبه إلى الداخل بعد أن أغلق الباب الخارجي، ومضى إلى غرفة الطعام التي كانت تحتوي على مقعدين هزازين، وطاولة عارية، ومصباح بترولي، وبضع صحف ومجلات أمريكية قديمة.. وخزانة خشبية.

وقال المستر تنش:

«لسوف أعد الأقداح، ولكنني أريد أولاً أن تشاهد مسكني كله.. فالواضح أنك رجل مثقف».

وكانت غرفة عمليات طبيب الأسنان تطل على فناء تنتفش فيه بعض الديكة الرومية في حركتها التي تنم عن الكبرياء السخيف، وكانت- أي الغرفة- تحتوي على مثقاب أسنان يدوي، ومقعد عمليات خلع وعلاج الأسنان أحمر اللون، وخزانة ذات واجهة زجاجية تحتوي على آلات مبعثرة يعلوها الغبار، وعلى جِفت «كلاية» موضوعة في فنجان، وفي ركن من الغرفة مصباح مكسور. أما السدادات التي توضع بين الأسنان المصنوعة من القطن والصوف فقد كانت متناثرة على جميع الأرفف.

وقال الرجل الغريب معلقاً:

«شيء جميل!».

«إنه ليس رديئاً جداً على كل حال.. فأنت لا تستطيع أن تتخيل العقبات التي تعترضنا في هذه القرية!».

ثم أشار إلى مثقاب الأسنان وأردف قائلاً في مرارة:

«هذا المثقاب مصنوع في اليابان.. وقد اشتريته منذ شهر ويوشك أن يستهلك الآن.. وليس في مقدوري أن أشتري مثاقب أسنان أمريكية».

وقال الرجل الغريب:

«إن النافذة رائعة الجمال».

وكان للنافذة مصراع من الزجاج الملون، نقشت عليه صورة العذراء التي بدت كأنها تطل من النافذة - ذات الشبكة السلكية - على الديكة الرومية في الفناء. ولاحظ المستر تنش اتجاه نظرات الرجل الغريب، فقال له:

«لقد حصلت على هذا المصراع الزجاجي من إحدى الكنائس عندما صدر الأمر بإغلاقها ونهبها.. وأعتقد أنه لا يليق أن تخلو غرفة طبيب أسنان من الزجاج الملون المنقوش.. وقد جرت العادة في الوطن - أعني في إنجلترا - أن يزين طبيب الأسنان غرفة عملياته بزجاج منقوش عليه صورة الفارس الضاحك.. ولا أدري لماذا، أو صورة بعض الزهور التي ترمز إلى العصر التيودوري.. ولكنني هنا لا أستطيع أن أختار ما أشاء..».

وفتح باب غرفة أخرى ثم أردف قائلاً:

«وهذه غرفة المصنع.. والمخدع».

وكان أول ما يطالع الداخل إليها سرير تحيطه به «كلة». وقد

قال المستر تنش إنه يتخذ من هذه الغرفة مصنعًا ومخدعًا لقلة عدد الحجرات، وكان بها- عدا السرير و«الكلّة»- إبريق وحوض ومنضدة وصبانة، وفي الجانب الآخر منفاخ، ووعاء مملوء بالرمل، وملاقط وفرن صغير. وقد تناول المستر تنش قالبًا للجزء الأسفل من طاقم أسنان وقال في أسى:

«إنني أصنع القوالب من الرمال.. إذ ليس في وسعي أن أفعل غير هذا في مثل هذه المنطقة.. وفي هذه الحالة لا يكون الطاقم مناسبًا تمامًا.. ومن ثم فإن عملائي لا يكفون عن الشكوى».

وأعاد القلب إلى مكانه، وفغر فاه مرة أخرى وعادت إلى عينيه تلك النظرة الجوفاء. وكانت حرارة الجو في الغرفة قد بلغت المدى، وظل المستر تنش واقفًا كأنه رجل ضل طريقه في كهف زاخر بأدوات وحفائر عصر لا يعرف عنه إلا الشيء القليل.. وأخيرًا قال الرجل الغريب:

«ألا يمكن أن نجلس؟».

«ويمكن أن نفتح زجاجة براندي».

«آه.. البراندي!».

وأحضر المستر تنش قدحين من خزانة صغيرة تحت المنضدة، وبعد أن مسح عنهما آثار الرمال، مضى مع صاحبه حيث جلسا على المقعدين الهزازين بالغرفة الأمامية، وهناك تناول قدحًا وراح يصب فيه شيئًا، فقال له الرجل الغريب:

«أهذا ماء؟».

«لا.. إنك لا تستطيع أن تستسيغ شرب الماء في هذه النواحي، لقد سبب لي ماء هذه المنطقة الآلام هنا».

ثم وضع يده على بطنه وأردف قائلاً وهو يطيل النظر إلى الآخر:
«وأنت أيضًا لا تبدو في صحة طيبة.. فإن أسنانك في حاجة إلى علاج».

فقال الرجل الغريب وهو ينظر إلى كمية «البراندي» القليلة في الكأس نظرة الإنسان إلى شيء عزيز عليه ولكنه لا يثق فيه:
«ولكن.. ما جدوى العناية بأسناني؟».

وكان يبدو من وجهه الضامر وعدم اهتمامه بمظهره كأنه رجل فاشل يائس بسبب سوء صحته أو استبداد القلق بنفسه... وكان جالسًا على حافة المقعد الهزاز وحافطة أوراقه متوازنة على ركبتيه، والكأس في يده، يرنو إليها في شوق آثم..

وقال له المستر تنش يشجعه رغم أن «البراندي» ليس ملكًا له:
«اشرب.. إنه مفيد لك».

وكان منظر الرجل ببذلته السوداء وكتفيه المنحدرين يذكره بمنظر تابوت الموتى، بل لقد خيل إليه أن الموت نفسه يطل من فمه ذي الأسنان الفاسدة.

وصب المستر تنش لنفسه كمية أخرى من «البراندي» في كأسه،
ثم قال:

«إن الإنسان يشعر بالوحشة هنا.. ومن الممتع أن يتحدث الإنسان باللغة الإنجليزية ولو إلى رجل غريب.. تُرى هل تحب أن ترى صورة أبنائي؟».

ثم تناول من جيبه صورة باهتة وقدمها للرجل الغريب.. وكانت الصورة تمثل طفلين يتعاركان للظفر برشاشة زرع في حديقة المنزل الخلفية، وقال المستر تنش:

«لقد التقطت هذه الصورة منذ ستة عشر عامًا».

«لا شك أنهما الآن في دور الشباب».

«مات أحدهما».

فقال الرجل الغريب بصوت رقيق:

«آه.. حسنًا.. لقد مات في دولة مسيحية».

ثم شرب من كأسه جرعة وراح يتسم ببلاهة للمستر تنش الذي قال في صوت المتعجب وهو يزيل اللعاب من فمه:

«نعم.. أعتقد هذا وإن كنت بطبيعة الحال لا أقيم وزنًا كبيرًا لهذا الأمر».

وخيم عليه الصمت، وشردت أفكاره، وانفتح فمه، وبدأ عليه الذهول والإعياء، ثم ما لبث أن أفاق على وخز الألم في بطنه، فصب لنفسه كمية أخرى من الشراب وقال:

«فيم كنا نتحدث.. آه.. عن الأولاد.. نعم.. الأولاد.. إن ذكريات الإنسان أحيانًا تدعو للعجب.. فأنا مثلاً أتذكر رشاشة الزرع بأوضح

مما أتذكر ولدي.. ومن هذه الذكريات أنى اشتريتها بثلاثة شلنات وأحد عشر بنسًا وثلاثة أجزاء البنس.. وكان لونها أخضر.. وفي مقدوري أن أمضي بك إلى المتجر الذي اشتريتها منه.. أما عن الأولاد...».

ثم توقف عن الحديث برهة، وراح ينظر في أسى إلى الكأس وكأنما يرى فيها صور الماضي البعيد، ثم عاد يقول:

«إنني لا أكاد أتذكر عنهم إلا.. كثرة بكائهم وصياحهم».

«ألم تتلق أخبارًا عنهم؟».

«أواه.. لقد كففت عن الكتابة إلى أهلي قبل أن أستقر هنا.. ما جدوى الكتابة والتراسل؟ فليس في مقدوري أن أرسل إليهم بعض المال، ولن أدهش إذا علمت أن زوجتي تزوجت مرة أخرى.. فلا شك أن أمها ترحب بهذا.. تلك العجوز اللعينة.. إنها لم تكن تحفل بأمرى مطلقاً...».

فقال الرجل الغريب في صوت خافت:

«هذا شيء بشع».

وعاد المستر تنش يفحص الرجل بنظرات مدهوشة.. إنه يراه جالسًا في مكانه كأنه علامة استفهام سوداء، مستعدًا للانصراف أو مستعدًا للبقاء، منتصبًا في جلسته، حقيرًا في مظهره وفي وجهه غير الحليق، ضعيفًا، تطمع الناس في استخدامه لتنفيذ أوامرهم.. وقد استدرك هذا الرجل عبارته، فقال:

«أعني العالم.. والأحداث التي تجري فيه...».

«اشرب كأسك».

فراح يحسوها على مهل، وأخيرًا قال:

«هل.. هل تذكر هذه المنطقة قبل.. قبل أن يسيطر عليها ذوو القمصان الحمراء..؟».

«أعتقد هذا».

«كم كانت الحياة ناعمة فيها يومذاك؟».

«أكانت كذلك؟ إنني لم أفطن إلى هذه الحقيقة».

«يكفي أن كان الناس فيها يؤمنون.. بالله».

فصب المستر تنش لنفسه مزيدًا من البراندي؟ وقال:

«إن الحياة هنا، بالنسبة لي، كما هي، فليس لعقائد الناس أية علاقة بأسنانهم. وأيًا كان الامر، فالحياة هنا رهيبة.. موحشة.. يا إلهي.. كنت أظن، وأنا في وطني، أن الحياة هنا مغامرة ممتعة.. وكنت أنوي ألا تستمر إقامتي أكثر من خمسة أعوام.. وقد ربحت كثيرًا في خلال هذه الأعوام الخمسة الأولى، ولكن قيمة البيزة هبطت فجأة، وهأنذا عاجز عن الرحيل.. ولكنني سوف أعتزل العمل يومًا.. وأرحل.. أعود إلى وطني.. وأعيش كما ينبغي.. سيدًا محترمًا.. انظر إلى هذا كله..».

ثم أشار إلى الغرفة العارية وأردف قائلاً:

«لسوف أنسى هذا كله.. نعم.. سيتحقق هذا الأمل قريبًا.. إنني من المتفائلين».

وفجأة سأله الرجل الغريب قائلاً:

«ما هو الزمن الذي تستغرقه في الوصول إلى ميناء فيراكروز؟».

«من هي؟».

«السفينة».

فقال المستر تنش في أسى:

«أربعون ساعة.. أربعون ساعة من الآن ثم نكون هناك في فندق ويلجانا، إنه فندق جميل. وهناك أيضًا المساهر والمراقص.. إنها مدينة مريحة».

فقال الرجل الغريب:

«إن أربعين ساعة ليست بالزمن المديد.. ولكن.. كم ثمن التذكرة؟».

«يمكنك أن تسأل لوبيز.. وكيل الشركة الملاحية».

«ولكن لوبيز!...».

«آه.. نسيت.. لقد قُتل رميًا بالرصاص».

وسمع الاثنان شخصًا يطرق الباب الخارجي، فأسرع الرجل الغريب ودس حافظة أوراقه تحت مقعده، بينما مضى المستر تنش في حذر نحو النافذة وهو يقول:

«على الإنسان أن يلزم دائمًا جانب الحذر.. ولكل طيبب أسنان ناجح أعداء يتربصون به».

وسمع في تلك اللحظة صوتاً واهناً يهيب به:
«إنني صديق».

وفتح المستر تنش الباب فوراً حيث اقتحم ضوء الشمس الغرفة كأنه قضيب من الحديد المحمي. وكان الباب صبي يلتبس طبيئاً.. وكان الصبي يغطي رأسه بقبعة كبيرة، وله عيانان قاتمتان تنمان عن الغباء، وعلى مسافة قريبة وراءه كان ثمة بغلتان تفحصان الأرض بحوافرهما.. وقال المستر تنش للصبي إنه ليس طبيئاً باطنياً، وإنما هو مجرد طبيب أسنان. وكان الرجل الغريب جالساً في تلك اللحظة وقد بدا على وجهه كأنه يتهل في أعماق نفسه.. وقال الصبي إنه سمع عن وجود طبيب بالقرية، وأن أمه العجوز تعاني من الحمى ولا تستطيع الحراك، ومن المحتمل أن تموت في أية لحظة.

وتحركت ذكريات غامضة في ذهن المستر تنش، فقال للرجل الغريب بلهجة الذي اكتشف شيئاً مهماً:

«لقد قلت لي إنك طبيب.. بدون مؤهل.. أليس كذلك؟».

«لا لا.. يجب أن ألحق بالسفينة قبل أن تبهر».

«لقد ظننت أنك قلت...».

«لا.. لقد عدلت عن رأيي».

«حسنًا.. إن السفينة لن تبهر قبل ساعات.. وهي عادة لا تبهر في الوقت المحدد».

ثم التفت إلى الصبي وسأله عن مكان إقامته، فقال إن المكان يبعد

سنة فراسخ «الفرسخ ثلاثة أميال». وعندئذ قال المستر تنش:

«إن المسافة بعيدة.. اذهب وابحث عن طبيب آخر».

ثم التفت إلى الرجل الغريب وأردف قائلاً:

«أرأيت كيف تنتقل الأخبار هنا بسرعة.. لقد عرف الجميع بوجودك في هذه المنطقة».

فقال الرجل الغريب بصوت ملهوف وكأنما يلتمس النصيحة بخضوع من المستر تنش:

«ليس في مقدوري أن أقوم بعمل نافع».

وعاد المستر تنش يقول للصبي:

«هلم انصرف».

ولم يتحرك الصبي من مكانه، وإنما ظل واقفاً في الشمس لا يريم، ويحدق إلى داخل الكوخ في صبر عجيب وهو يردد أن أمه توشك أن تموت! أما نظراته البلهاء فلم تكن تعبر عن أية عاطفة، وكأنما يدرك بغريزته حقيقة الإنسان الذي يولد، ثم يموت أبواه، ثم يشيخ هو، ثم يموت بدوره.

وقال المستر تنش:

«إذا كانت أمك على فراش الموت، فإن الطبيب لن يستطيع إنقاذها».

ولكن الرجل الغريب نهض في تلك اللحظة وكأنما أدرك أن

الأقدار تدعوه إلى مهمة لا يستطيع التخلي عنها، ومن ثم قال بصوت حزين:

«يبدو أن الأحداث تجري دائماً.. هكذا!».

«ولكنك لن تلحق بالسفينة عندما تبهر».

«إنني لن ألحق بها.. وهذا ما أريده.. أعطني قليلاً من البراندي».

وكان جسمه يرتعد وهو يتناول الكأس ويصب ما فيه في فمه، ثم تحول بنظراته إلى الصبي الواقف لا يريم، وإلى الطريق المتلطي بحرارة الشمس، وإلى العقبان التي بدت في السماء كأنها وصمات سوداء..

وقال المستر تنش:

«ولكن ما جدوى ذهابك إذا كانت المرأة تحتضر؟».

«إنني أعرف هؤلاء الناس.. إنها أبعد ما تكون عن حالة الاحتضار».

«أيّا كان الأمر فإنك لن تفيدها في شيء».

وكان الصبي يرقب الاثنين كأن الأمر لا يعنيه في قليل أو كثير، ذلك أن المناقشة بينهما كانت تجري بلغة أجنبية لا يفهمها ولا يعنيه أن يفهمها.. وحسبه أن يظل في مكانه حتى يمضي الطبيب معه..

ورد الرجل الغريب على المستر تنش في حدة قائلاً:

«إنك لا تدري شيئاً.. إنك تردد ما يردده الناس دائماً، وهو أنني

لا أستطيع أن أفيد أحداً!«.

وأمسك برهة وهو يرتعد من تأثير الخمر أو من تأثير الشعور
الرهيب بالمرارة، ثم أردف قائلاً:

«إنني أسمع هذه العبارة تقال عني في جميع أركان الأرض».

فقال المستر تنش بهدوء:

«على كل حال.. فهناك سفينة أخرى ستبحر بعد أسبوعين أو
ثلاثة.. ومعنى هذا أنك رجل محظوظ سعيد.. في مقدورك أن تغادر
هذه المنطقة في أي وقت.. إنك لم تركز فيها كل ما تمتلك».

وشرع يفكر في ممتلكاته.. المثقاب الياباني.. ومقعد خلع
الأسنان، والمصباح، والملاقيط، والفرن الصغير الذي يصنع فيه ذهب
الحشو، وقطعة أرض مرهونة في الريف..

وقال الرجل الغريب للصبي:

«هلم!».

ثم استدار نحو المستر تنش وراح يشكر له حسن ضيافته بطريقة
لا تخلو من هذه الكبرياء المزعومة التي يدركها المستر تنش تماماً..
إنها تشبه كبرياء مرضاه الذين يجلسون على مقعد خلع الأسنان وهم
يرتعدون في أعماق نفوسهم. ولكن تلك الكبرياء المزعومة تأتي
عليهم أن يكشفوا عن خوفهم.

وختم الرجل الغريب عبارات شكره قائلاً:

«ولسوف أصلي من أجلك».

«إنك على الرحب والسعة في أي وقت..».

وركب الرجل الغريب إحدى البغلتين وامتنطى الصبي متن الأخرى ومضى في المقدمة تحت وهج الشمس الحامية نحو المستنقعات المفضية إلى المناطق الداخلية، وكان الرجل الغريب قد جاء من هذه المناطق الداخلية في الصباح ليلقي نظرة على السفينة جنرال أبريجون. وها هو يعود إليها، إنه يترنح قليلاً على مقعد السرج من تأثير الخمر، وإنه لم يلبث أن أصبح نقطة سوداء صغيرة في نهاية الطريق..!

وعاد المستر تنش إلى داخل كوخه بعد أن أغلق الباب الخارجي بالمفتاح «لأن الإنسان لا يدري ما تأتي به الرياح» وكان لا يزال يشعر بهذه المتعة الرقيقة التي أحس بها وهو يتبادل الحديث باللغة الإنجليزية - لغة وطنه - مع الرجل الغريب! أما الآن، فإنه يواجه الوحشة والافراد والعزلة مرة أخرى، ولكنه لم يحفل كثيرًا بهذا الأمر بعد أن تعود عليه، وأنه ليجلس على المقعد الهزاز ويروح به ويجيء متأرجحًا وهو ينظر إلى وجهه في أديم الشراب بالكأس، وكانت حركة اهتزاز المقعد تتيح له شيئًا من التيار الهوائي الذي يخفف حرارة الجو بالغرفة، وكان ثمة طابور من النمل يتحرك عبر الغرفة إلى بعض قطرات من البراندي سقطت من كأس الرجل الغريب.. وكانت مجموعات النمل تتمرغ في البراندي، ثم تمضي إلى الجهة المقابلة حيث تختفي. وهناك.. في النهر.. انطلق صفير السفن مرتين دون أن يعرف المستر تنش السر في هذا..

وكان الرجل الغريب قد ترك وراءه الكتاب.. كان مُلقى تحت

المقعد الهزاز، وكان على الغلاف صورة امرأة في ملابس القرن الماضي متهاكة على سجادة تبكي وهي تحتضن حذاءً بنيًا لامعًا مدبب الطرف لرجل كان واقفًا ينظر إليها في نفور وقد قتل شاربيه، وكان عنوان الكتاب «القديس الخالد». وبعد برهة التقط المستر تنش الكتاب، فلما فتحه، لم يستطيع أن يقرأ مما فيه شيئًا، إذ كان مكتوبًا باللغة اللاتينية. وبعد أن فكر برهة، أغلق الكتاب، ومضى به إلى غرفة النوم.. إنه لا يستطيع أن يحرق كتابًا، ولكنه يستطيع أن يخفيه في مكان أمين.. يخفيه من أي شيء! إنه لا يدري على التحديد، وأخفى الكتاب في الفرن الذي يصهر فيه ذهب الحشو، ثم وقف بجانب منضدة العمل فاعرًا فاه.. لقد تذكر السبب الذي من أجله غادر الكوخ إلى رصيف الميناء.. إنها أسطوانة الأثير التي تحملها السفينة «جنرال أبريجون».. وها هو ذا يسمع، مرة أخرى، صفيرها.. وها هو ذا ينطلق بغير قبعة إلى الطريق. لقد كان يعتقد أن السفينة لن تبهر قبل ساعات.. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يعتمد على سكان هذه المناطق في تحديد الوقت.. وليس أدل على هذا من أنه رأى، حين وصل إلى رصيف الميناء، أن السفينة جنرال أبريجون قد ابتعدت عشر أقدام عن المرساة في طريقها إلى البحر.. وعبثًا راح يهتف ويصيح ليوقفها، ولم يجد أي أثر لأسطوانة الأثير على الرصيف.. وعاد يصيح مرة أخرى، ولكنه لم يلبث أن هدا فجأة.. حسنًا!.. إن أسطوانة الأثير ليست بأمر مهم. ومن الممكن أن يحتمل مرضاه مزيدًا من الألم في سبيل خلع أسنانهم وعلاجها.

وشرعت نسمات لطاف تهب على السفينة «جنرال أبريجون»

وامتدت مزارع الموز على جانبي النهر مدى البصر، وراح رصيف الميناء يغيب عن ركابها شيئاً شيئاً حتى لم يبق منه إلا بعض ساريات هوائية قليلة لأجهزة لاسلكية. وغاب الميناء تماماً كأنما لم يكن له وجود وانفتحت أبواب المحيط الممتد إلى مدى البصر، وشرعت الأمواج الرمادية الضخمة ترفع مقدم السفينة، وأخذت الديكة الرومية المقيدة على سطحها تتدحرج من مكان إلى آخر.. ووقف ربانها في برج القيادة الصغير وقد تعلقت في شعر رأسه خلاله «سلاكة أسنان» وبدأ الشاطئ يتراجع في بطاء، ولكن بانتظام، وأسدل الليل أستاره فجأة، وتألقت في قبة السماء النجوم وأضيء مصباح زيتي واحد في مقدمة السفينة، وأخذت الفتاة - التي شاهدها المستر تش - تردد بصوت خفيض محزون أغنية عاطفية هادئة عن الزهرة التي تناثرت عليها دماء الحب الحقيقي.. وكان منظر الخليج الواسع، والنسمات المنعشة، والمياه الممتدة إلى غاية البصر، وخط الشاطئ الذي اختفى في طيات الظلام كما تختفي المومياء في جوف المقبرة، كان هذا كله قد أثار في قلب الفتاة إحساساً بالحرية وبجمال الحياة «إنني سعيدة» هكذا راحت تردد لنفسها دون أن تدري لماذا.. إنني سعيدة.. سعيدة.. وهناك.. في الداخل.. بعيداً. في جوف الظلام، كانت البغلطان تمضيان.. وكان أثر الخمر قد زال تماماً من رأس الرجل الغريب. ومضى هو يفكر خلال اجتيازه المستنقعات والممرات الجبلية بأنه لن يستطيع اجتياز هذه المناطق مرة أخرى إذا أقبل موسم الأمطار، ولما سمع صفير السفينة جنرال أبريجون من بعيد، أدرك المعنى الذي

ينطوي تحت هذا الصغير.. إنها الطريق إلى العالم الواسع.. وأنه لن يستطيع اللحاق بها.. وأنه ليشعر - رغمًا عنه - بالكراهية لهذا الصبي الذي يتقدمه ولأمه المريضة أيضًا...

وتصاعدت من حوله رائحة الرطوبة والعطن.. إن هذه المنطقة تبدو وكأنها ظلت منذ الأزل رطبية معطنة.. لم تكن جافة حتى عندما كانت المجموعة الشمسية قطعة واحدة ملتزمة تدور في الفضاء اللانهائي.. لعلها كانت مخصصة لامتناس السحب والضباب الذي كان يخيم على الوجود في تلك الأحقاب..

وشرع يدعو ويبتهل إلى الله في نفسه وهو يتأرجح على سرج البغلة، ثم تمتم أخيرًا بأنفاس فيها بقية من رائحة الخمر «ليتهم يقبضون عليّ.. ليتهم يقبضون عليّ».

لقد حاول أن يهرب.. ولكنه لم يهرب.. لقد كان أسير شيء حال دون الهروب..



الفصل الثاني

العاصمة

كانت شرذمة جنود البوليس تسير في طريق العودة إلى القسم وكان الجنود يسرون في غير انتظام، ويحملون بنادقهم كيفما يكون، وكانت سترات بعضهم تنقضها الأزرار، وكانت «قلشينات» بعضهم الآخر تهدل على أحذيتهم وكان بين صفوفهم رجال صغار الجرم، سود العيون، غامضو النظرات، ينحدرون من أصول الهنود الحمر، سكان البلاد الأصليين.

وكانت الساحة الصغيرة الواقعة على قمة التل، مضاعة بمصاييح كبيرة شد كل ثلاثة معًا في قطعة من السلك مدلاة من الأسلاك العامة المشدودة في أعلى.. وكان يحيط بها، أي بالساحة، بيت الحاكم العام، ومبنى الإدارة المالية، وعيادة طب الأسنان، ومبنى السجون، وكان بناءً عتيقًا يرجع تاريخه إلى ثلاثمائة عام مضت.. وشارع ينحدر نحو النهر، ثم الجدار الخلفي للكنيسة، ثم صفوف من المنازل تتخللها

شوارع ضيقة موحلة، تؤدي كلها إلى النهر أو إلى مستنقعات من الماء الآسن، وكان الطلاء الأحمر القاتم قد تساقط في أماكن كثيرة من واجهات البيوت وكشف عن جدرانها المشيدة من الطين والأوحال. وحول جوسق المياه الغازية كانت جماعة من ذوي القمصان الحمراء تدور في صفين.. صف مكون من الرجال- أكثرهم في سن الشباب- وصف من النساء.. وحول الساحة كلها كانت شرذمة الجنود تقوم بجولتها الليلية الأخيرة قبل أن تعود إلى معسكرها في فناء القسم.

وكان الضابط يسير في مقدمة جنوده، وأمارات وجهه تنم عن الاشمئزاز العميق، وكأنما هو يمضي أمامهم رغماً عنه، أو لعل هذا الجرح الذي ترك آثاره على فكه دليل على محاولة سابقة للهرب من الخدمة.. وكان حزامه وجراب مسدسه وتزلك حذائه كلها نظيفة لامعة، وأزرار سترته كاملة، وكانت أنفه حادة طويلة.. وكانت أناقته واهتمامه بمظهره- في منطقة نائية كهذه- ينمّان عن رغبة كامنة في الطموح والارتقاء.

وتصاعدت إلى الساحة من مياه النهر والمستنقعات رائحة كريهة نفّاذة، وجثمت العقبان على أسقف البيوت وقد أخفت رؤوسها تحت أجنحتها السوداء، وبين الحين والآخر يبرز أحدها رأسه ويحكها بمخلبه ثم يعود للنوم.. وفي تمام التاسعة والنصف مساءً، أطفئت جميع الأنوار بالساحة..

وأدى أحد جنود البوليس تحية المساء، بطريقة بدائية، ومن ثم عادت شرذمة الجنود إلى المعسكر، وهناك، وبدون انتظار الأمر،

راحوا يعلقون بنادقهم على الجدار القريب من غرفة الضابط، ثم تفرقوا.. بعضهم صعد للنوم في الأسرة المعلقة، وبعضهم ذهب إلى دورة المياه.. وقليل منهم ألقوا بأحذيتهم وركدوا على الأرض، وكان طلاء الجدران قد تساقط من أكثر من موضع، وكانت ثمة عبارات لا معنى لها مكتوبة على الأجزاء الثابتة من الطلاء الجيري الأبيض، خطّها عدد كبير من رجال البوليس على مر السنين، وفي جانب من فناء المعسكر كان ثمة رجال من سكان القرى جالسين على دكة خشبية، مطرقي الرؤوس، لا يكاد يشعر بهم أحد، وفي دورة المياه كان يسمع صوت اثنين يتشاجران..

وقال ضابط البوليس سائلاً:

«أين المدير؟».

ولم يعرف أحد مكان المدير وإن كان أكثرهم يعتقد أنه كان يلعب البلياردو- هوايته الرياضية المفضلة- في مكان ما بالمدينة. وجلس الضابط متوتر الأعصاب إلى مكتب المدير، وكان مرسوماً على الجدار الكائن خلفه، صورة قلبين متعانقين رسمت بقلم الرصاص. وفجأة هتف قائلاً في غضب موجه الكلام إلى وكيله.

«ماذا تنتظر؟ هلم أحضر المتهمين...».

وحضر المتهمون، الواحد بعد الآخر، مطرق الرأس، يحمل قبعته في يده. وشرع الضابط يقرأ اسم كل منهم والتهمة الموجهة إليه «فلان الفلاني متهم بالسكر والعريضة، خمس بيزات غرامة» ويقول

أحدهم محتجًا: «ولكني لا أستطيع يا صاحب السعادة أن أدفع هذه الغرامة.. دعني أشتغل بها في تنظيف غرفات السجن ودورة المياه..». ويعود الضابط وينادي بعض الأسماء «فلان الفلاني متهم بنزع إحدى اللافئات الانتخابية.. غرامة خمس بيزات» «وفلان الفلاني ضبط وهو يحمل شعار مذهب ديني تحت قميصه.. غرامة خمس بيزات».

وظل الضابط ينادي الأسماء ويوقع الغرامات حتى فرغ من هذه المهمة دون أن يعثر على مخالفة خطيرة تثير الاهتمام.. وظل البعوض يدخل الغرفة من الباب المفتوح وهو يرسل طينيه في غير انقطاع..

وسمع الضابط أحد الحراس في الخارج وهو يؤدي التحية بالسلاح، فأدرك أن مدير البوليس قد حضر.. ولم يلبث هذا أن دخل بجسمه البدين، ووجهه المكتنز المستدير، وبذلته البيضاء، وقبعته الواسعة، وحزام الذخيرة المعلق فيه مسدسه الكبير. وكان يمسك بيده منديلًا يضغط به على فمه ويقول في توجع:

«يا للألم في أسناني.. يا للألم...!».

فقال الضابط له في لهجة ازدراء:

«ليس ثمة جديد في أحداث اليوم».

فولول المدير قائلاً:

«لقد عنفني الحاكم العام مرة أخرى اليوم».

«لماذا...؟! هل رآك تشرب الخمر؟».

«لا.. وإنما بسبب ذلك الراهب».

«أي راهب؟! لقد قتلنا بالرصاص آخرهم في الأسبوع الماضي!».

«إنه لا يعتقد هذا».

«اللعنة على كل شيء.. فليس لدينا صور نستدل بها على الهاربين

من هؤلاء».

ثم استدار برأسه ونظر إلى صورة مجرم أمريكي مطلوب القبض عليه بعد أن هرب عقب ارتكابه إحدى جرائم القتل.. وكانت الصورة تبين وجه المجرم في وضعين ومن زاويتين، وكانت نشرات أوصافه قد أرسلت إلى جميع مراكز البوليس في أمريكا الوسطى، وراح الضابط يتأمل - في لهفة - ملامح المجرم ذي الجبين الضيق والعينين اللتين تتركز نظراتهما المجنونة على شيء واحد.. لشد ما يتلهف هذا الضابط لو ساقط الأقدار هذا المجرم إلى أمريكا الوسطى حتى تتاح له فرصة القبض عليه. ولكن هذا احتمال بعيد.. فمن المرجح أن يقبض على المجرم الهارب في ماخور بإحدى مدن الحدود.. كمدينة جواريز، أو بدراس نجراس، أو نوجلاس..

وعاد المدير يقول في لهجة احتجاج:

«يقول الحاكم إن ثمة راهبًا مطلق السراح.. آه لشد ما تؤلمني

أسناني».

ومد يده إلى جيبه الخلفي ليحصل على شيء، ولكن جراب مسدسه اعترض سبيل اليد، وراح الضابط ينقر على الأرض بحذائه في صبر نافذ، وأخيرًا أبرز المدير صفحة من مجلة عليها صورة عدد

كبير من الأشخاص المجتمعين حول مائدة، أكثرهم فتيات في ملابس حريرية بيضاء، ونسوة في منتصف العمر تنم وجوههن عن الرهبة والخشوع، ووراء المجتمعين ظهرت رؤوس بعض المتفرجين وقد بدت عليهم أمارات الترقب والخوف، وكانت الصورة قد التقطت منذ سنوات لأحد الاجتماعات الدينية أثناء «العشاء الرباني». وقد ظهر بين الفتيات والنساء صورة راهب كاثوليكي في ملابس مدنية، قصير بدين ناتئ العينين، يبدو عليه أنه يتلقى فكاهات المجتمعين في صدر رحب وكأنما هو واثق من مكانته الرفيعة بينهم.

وقال المدير مشيراً إلى الصورة:

«لقد التقطت منذ سنوات عديدة».

«إن الراهب فيها يبدو كغيره من الرهبان والقساوسة.. لا شيء يميزه عنهم».

ورغم أن وجه الراهب في الصورة يبدو غير واضح تماماً، إلا أن عين الناظر لا تخطئ ذلك الوجه المستدير الحليق الناعم، المترف، الذي ينم عن نجاح صاحبه المبكر في الحياة، وعن استمتاعه بالنفوذ ورفع الشأن والشعور بالاستقرار والأمن.. نعم.. كان الوجه البادي في الصورة ينم عن أن صاحبه رجل سعيد، يعرف كيف يؤثر في القلوب بمواعظه، وكيف يخفف عن النفوس المحرومة بفكاهاته، وكيف يتقبل احترامات الجميع بلباقة وتلطف...

وتحركت في أعماق نفس الضابط ألوان من الكراهية الطبيعية

التي تقوم بين الكلب والقط، ثم إذا هو يقول:

«لقد أطلقنا الرصاص عليه أكثر من ست مرات!». «

«إن الحاكم تلقى بلاغاً عنه.. ويقول البلاغ إن هذا الراهب حاول في الأسبوع الماضى الهرب إلى ميناء فيراكروز على السفينة جنرال أبريجون».

«ولماذا لا يحاول الحاكم أن يستعين بذوي القمصان الحمراء للقبض عليه».

«لقد أوشكوا أن يوقعوه في الفخ، وكانوا ينتظرونه على سطح السفينة، ولكنه لم يبحر عليها في اللحظة الأخيرة».

«وماذا حدث له؟».

«لقد عثروا على البغلة التي كان يركبها.. والحاكم يصبر على أن نقبض عليه خلال هذا الشهر قبل موسم الأمطار».

«وآين كانت أبراشيته..؟!».

«فى مدينة كونسبكيون والقرى المحيطة بها..».

«هل ثمة تقارير مسهبة عنه؟ هل يعرف أحد من الأهالي كيفية تنكره الآن؟».

«كل ما يعرف عنه أنه يمكنه أن يعيش متنكرًا في هيئة رجل أمريكي مهاجر.. فقد أمضى بضعة أعوام في إحدى الجامعات الأمريكية، وقد ولد في مدينة كارمن، وكان أبوه أمين مخزن.. وهذا كل ما نعرفه عنه، ولا شك أنه قليل..».

وقال الضابط وهو يعيد النظر إلى الصورة:

«إن جميع الوجوه تبدو في نظري متشابهة».

وكانت أمارات وجهه وهو يحدق في الصورة تنم عن الانفعالات الرهيبة التي راحت تصطبغ في أعماق نفسه وتكاد تبلغ به حد الخوف.. إنه ينظر إلى الفتيات في ملابسهن الحريرية البيضاء ويتذكر رائحة الطيب المركز المنساب في جو الكنيسة، عندما كان يذهب إليها غلامًا.. والقناديل، وحفيف الملابس، والشعور بالتقدير الشخصي، والفلاحين والعجائز الراكعين أمام الصور المقدسة، وقد بسطوا أيديهم يرسمون بها علامة الصليب، بينما تنطق وجوههم بالإرهاق الذي يعانونه بعد ساعات العمل في مزارع الموز، والكاهن يدور عليهم ليجمع تبرعاتهم، وليعنفهم على خطاياهم الخفيفة - اللمم - دون أن يضحي هو بشيء إلا بالحرمان من الزواج.

وقال الضابط يحدث نفسه:

«ما أبسط تضحية هؤلاء الكهنة والرهبان.. ما كان أبسطها وأسهلها.. إنني شخصيًا لا أفكر في الزواج.. بل لا أفكر في النساء على الإطلاق..».

ثم أردف قائلاً بصوت مسموع:

«لسوف نقبض عليه.. حتمًا.. إن عاجلاً أو آجلاً».

وولول المدير قائلاً:

«أسناني.. أسناني ستقتلني.. إنها تسمم حياتي كلها.. تصور أنني

لم أظفر اليوم في البلياردو بأكثر من خمسة وعشرين بنطاً؟».

«إذن يجب أن تغير طبيب أسنانك...».

«إنهم جميعاً متماثلون...».

وتناول الضابط الصورة وثبتها في الجدار بجانب صورة المجرم الأمريكي الهارب جيمس كالتر قاطع الطريق، ولص المصارف، وقاتل الأنفس البشرية.. وابتسم الضابط وهو ينظر إلى صورة المجرم الذي بدا كأنه يتفرج بدوره على الاجتماع الديني في الصورة القريبة منه، ثم قال كأنما يحدث نفسه:

«إنه على كل حال.. رجل...».

«مَنْ؟!..».

«المجرم الأمريكي الهارب».

«هل سمعت بما ارتكبه في مدينة هوستون.. لقد هرب سارقاً عشرة آلاف دولار بعد أن قتل اثنين من رجال البوليس الأمريكي».

«اثنين من رجال البوليس!».

فأوماً المدير ثم قال وهو يضرب بعنف بعوضة لسعته:

«نعم.. وإن محاربة رجل كهذا لا تخلو من بعض الشرف إن كنت تدرك ما أعني».

فأمّن الضابط على حديثه قائلاً:

«إن رجلاً كهذا - رغم إجرامه - أهون خطراً من الراهب الهارب..»

لقد قتل حقًا عددًا من الناس.. وكلنا سوف نموت.. وسرق مالا كان سينفقه غيره على كل حال.. أما هؤلاء الرهبان.....».

وارتسمت على وجهه مختلف الانفعالات وهو واقف بحذاءه المدبب اللامع، إنها انفعالات الرجل الذي يؤمن بفكرة معينة، أيًا كانت هذه الفكرة، والذي يريد أن يرضي طموحه، وحقده، بالقبض على هذا الراهب المبجل الذي كان ضيفًا في أول اجتماع ديني خطير. وعاد المدير يولول قائلاً:

«لا شك أن هذا الرجل يتمتع بدهاء شيطاني أتاح له البقاء مختفيًا كل هذه السنوات...».

«إن في مقدور كل إنسان أن يفعل هذا.. ونحن لا نهتم بأمر هؤلاء الفارين إلا إذا وقعوا في أيدينا.. ولأثبت هذه الحقيقة فإني أضمن لك القبض عليه في خلال شهر.. إذا....».

«إذا ماذا؟!».

«إذا أتيت لي السلطة الكافية».

«إن الأمر أخطر من مجرد الكلام.. ماذا في وسعك أن تفعل؟».

«إن هذه الولاية صغيرة ومحدودة بالجبال في الشمال وبالبحر في الجنوب، ويمكنني أن أفتش كل ركن فيها.. كل شارع.. كل بيت».

فتأوه المدير وهو يضع منديله على فمه ثم قال:

«إن الأمر يبدو لك سهلاً في ظاهره...».

وقال الضابط بحماس:

«لسوف أخبرك ماذا يمكن أن أفعل.. لسوف آخذ من كل قرية رجلاً ليكون رهينة تحت يدي.. فإذا لم يبلغني أهل القرية عن الراهب المختفي بمجرد ظهوره بينهم، فسوف أقتل الرهائن رمياً بالرصاص، ثم أقبض على رهائن آخرين..».

«معنى هذا أن كثيراً من هؤلاء الرهائن سيموتون».

فقال الضابط في نشوة وابتهاج:

«كل شيء يهون للقضاء نهائياً على هؤلاء الرهبان».

«ربما تكون على صواب».

وسار الضابط في الطريق إلى مسكنه خلال المدينة الهاجعة.. لقد عاش كل حياته في تلك المنطقة، وقد كان له دور كبير في تنفيذ القوانين التي قضت على كل مظاهر العقيدة والدين.. وتغيرت معالم المدينة إلى حد كبير.. فأصبحت المدرسة داراً لنقابة العمال، والمزارعين، وغدت الكاتدرائية بحدائقها ملعباً للأطفال وساحة للتدريب الرياضي. ولسوف يشب الجيل الجديد من الأطفال وهم لا يعرفون شيئاً عن العقائد والأديان...

وبلغ مسكنه أخيراً، وكان كغيره من المنازل، مكوناً من طابق واحد مطلّي الواجهة بالجير، وتحيط به حديقة صغيرة فيها قليل من الزهور وبثر.. وكانت النوافذ المطلة على الطريق محصنة بقضبان الحديد، وفي الداخل، كانت غرفة الضابط تحتوي على سرير مصنوع

من خشب الصناديق، فوقه حشية من القش، ووسادة وغطاء، وعلى الجدار صورة الحاكم، وجندرة، وعلى الأرضية منضدة ومقعد هزاز.. وكانت الغرفة في جملتها، تبدو في ضوء القنديل كأنها غرفة في سجن أو صومعة ناسك في دير.

وجلس الضابط على حافة سريره، وشرع يخلع حذائه، وكانت تلك هي الساعة التي تعود الأهالي، قبل القانون الجديد، أن يتوجهوا فيها بالصلاة إلى الله شكرًا على انقضاء يوم من أعمارهم في سلام. وحاول الضابط أن ينسى هذه «الذكريات» بمراقبة «الخنافس» أو «الفرقع لوز» وهي تصطدم بالجدار المواجه لفراشه، وكان عددها يزيد عن اثنتي عشرة خنفسة، تزحف كلها على الجدار بأجنحة محطمة، وشعر بالغضب يجيش في صدره وهو يذكر أن كثيرًا من الأهالي، إن لم يكن جميعهم، لا يزالون يؤمنون بوجود إله قادر رحيم غفور.. بل إن هناك بعض الصوفيين الذين يزعمون أنهم على اتصال مباشر بالله.. وقد كان هو من قبل صوفيًا ولكنه لم ير شيئًا، ولم يتصل بشيء، ومن ثم أصبح لا يؤمن إلا بأن هذا العالم الذي فيه يعيش مصيره إلى العدم والفناء، وأن الإنسان كان في الأصل حيوانًا وتطور، وأنه خلق - أو وُجد - لغير هدف معين..!

ورقد في فراشه دون أن يخلع قميصه أو سراويله، وأطفأ المصباح، وشعر بحرارة الجو كأنها عدو واقف في الغرفة لا يريم، وسمع من بعيد أنغامًا تنساب من مذياع.. لعلها موسيقى ترسلها محطة الإذاعة بمدينة مكسيكو، أو لعلها آتية من لندن أو نيويورك لتترفرف في أجواء

هذه الولاية البعيدة المنسية.. وشعر بالغضب على هذه الأنغام الآتية من العالم الخارجي لتغزو جو بلاده.. نعم إنها بلاده.. وأنه يود لو استطاع أن يحيطها بأسوار عالية من الفولاذ حتى يستطيع - دون تدخل خارجي - أن يمحو منها كل أثر من آثار الماضي.. إنه يريد أن يدمر كل شيء.. أن يبقى وحيداً بغير ذكريات.. فإن حياته بدأت منذ خمسة أعوام.. أي منذ صدرت القوانين الجديدة..

وظل راقدًا على ظهره مفتوح العينين، بينما وصلت الخنافس إلى السقف، وراح يذكر الراهب البدين القصير الذي قتلته جماعة القمصان الحمراء رميًا بالرصاص في ساحة المدافن فوق قمة التل.. وكان راهبًا ناتئ العينين أيضًا بدرجة «مونسينور» وكان يظن أن درجته هذه سوف تحميه من القتل، وكان يعرب عن احتقاره لمن هم أقل منه في الدرجة.. وظل حتى اللحظة الأخيرة وهو يحاول أن يشرح لجلاديه مركزه الرفيع.. وفي آخر لحظة، تذكر الصلاة فركع على الأرض، وتركه قاتلوه حتى يفرغ من صلاته الأخيرة، وكان الضابط واقفًا يرقب المنظر من بعيد؛ لأن هذا الأمر لم يكن يعنيه مباشرة يومذاك.. وكان ذو القمصان الحمراء قد أعدموا خمسة من رجال الدين، وفر اثنان أو ثلاثة، ولجأ كبير الأساقفة ليعيش في أمان بمدينة مكسيكو، وخضع راهب منهم للقانون الذي يحتم على رجال الدين أن يتزوجوا، فتزوج وأصبح يعيش الآن مع زوجته في بيت قريب من النهر، وقد كان هذا الخضوع لقانون الزواج هو أسطع نجاح للحملة كلها، في نظر الضابط؛ لأن الراهب المتزوج أصبح أمام الرأي العام الدليل الحي على خداع

زملائه ونفاقهم، فلو أنهم كانوا- هكذا راح الضابط يفكر- يؤمنون حقًا بالعقاب والثواب في الآخرة؛ لاحتمل هذا الراهب بعض التعذيب أو التشرّد في سبيل الدفاع عن المبدأ...

وشعر الضابط، وهو راقد على فراشه الخشن في جو الغرفة الحار، بأن كراهيته للراهب الذي خضع لقانون الزواج، أشد من كراهيته لزملائه الذين احتملوا العذاب والقتل والتشريد.

في إحدى الغرف الخلفية التابعة للمعهد التجاري، كانت إحدى السيدات تقرأ في كتاب ديني لأفراد أسرتها المكونة من فتاتين أحدهما في السادسة من عمرها والثانية في العاشرة، وكانتا جالستين على حافة الفراش، وابن في نحو الرابعة عشرة من عمره، وكان معتمدًا بكتفه على الجدار وقد ارتسمت على وجهه أبلغ أمارات الملل والفتور. وشرعت السيدة تقرأ:

«وكان جوان الصغير منذ طفولته مشهورًا بتواضعه وتقواه بينما كان الكثير من الأطفال غيره معروفين بالغلظة وفسولة الطبع. ولكن جوان الصغير كان يحرص على أتباع تعاليم السيد المسيح ويدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن، وقد ظن والده ذات يوم أنه كذب في حديثه، فضربه، ثم تبين فيما بعد أن ابنه لم يقل إلا الصدق، فراح يعتذر له، ولكن جوان قال له: «أبي العزيز، إن من حقك أن تعاقبني كما تشاء كما أن من حق الله أن يعاقب أو يثيب من يشاء».

وحك الغلام- ابن السيدة- وجهه بضيق شديد- في طلاء الغرفة، وظلت الفتاتان جالستين على حافة الفراش مبهورتين مما تسمعان من أمهما التي استمرت تقرأ:

«ولكن.. ليس معنى هذا أن جوان الصغير لم يكن يضحك أو يلعب كغيره من الأطفال لا.. فقد كان يفعل هذا كله في حدود الأدب، ثم لا يلبث أن ينسحب من مجتمع أترابه ويتسلل حاملاً الكتاب الديني المصور إلى حيث مربوط الأبقار...».

وسحق الغلام بقدمه خنفسة كانت تدب على الأرض، وقال لنفسه: إن لكل شيء نهاية، ولسوف يأتي اليوم الذي تفرغ فيه أمه من قراءة الفصل الأخير في هذا الكتاب حيث يسمع كيف يهتف جوان الصغير بحياة السيد المسيح وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في ساحة الإعدام. ولكن.. ماذا بعد أن تفرغ أمه من قراءة هذا الكتاب الديني؟... لاشك أنها ستبدأ في قراءة كتاب آخر من هذه الكتب الدينية التي كانت تهرب إلى الولاية، بمختلف الوسائل من مدينة مكسيكو..؟

واستأنفت الأم القراءة:

«وقد كان الصغير جوان مواطناً مكسيكياً أصيلاً.. وإذا كان دائم التفكير في ملكوت الله أكثر من غيره من الغلمان، فقد كان أيضاً صاحب القدح المعلى في القيام بالأدوار التمثيلية بالمسرحيات المدرسية. وقد حدث في ذات عام أن قامت فرقته المدرسية بتمثيل مسرحية صغيرة أمام الأسقف، وكان موضوع المسرحية يدور حول ما كان يلقاه المسيحيون الأوائل من عذابات وقتل على أيدي

الوثنيين.. ولعل أحداً لم يطرب كما طرب جوان حين أسند إليه دور نيرون في المسرحية، فقد وجدها فرصة سانحة ليصور شخصية ذلك العاهل الوثني بصورة تثير الضحك والسخرية؟ ولعله لم يكن يدري أنه سيموت في ميعة الصبا على يد حاكم أقسى وأبشع من نيرون.. وقد كتب زميل له في فرقته المدرسية، ويدعى الأب ميجويل سيرا في مذكراته يقول عن جوان: «لقد كان يوماً خالداً في حياة من شاهدوا جوان وهو يؤدي دوره في تلك المسرحية».

ولعقت إحدى الفتيات شفيتها خفية وهي تقول لنفسها: «هكذا تكون الحياة».

واستأنفت الأم القراءة بقولها:

«ورفعت الستار عن جوان، فإذا هو مرتد رداءً ملوناً من أودية الاستحمام، وقد رسم بالفحم على شفتيه العليا صورة شارب، ووضع على رأسه تاجاً من صفيح علب الحلوى، ولم يسع الأسقف نفسه إلا أن يبتسم حين تقدم جوان فوق المسرح المدرسي الصغير وبدأ في إلقاء...».

وكتّم الغلام - ابن السيدة القارئة - ثناء «عطس» به في جدار الغرفة المطلي بالجير، ثم قال بصوت كله ضجر:

«هل جوان هذا قديس حقاً يا أماه؟!».

«لسوف تصبح قديساً.. في يوم قريب.. عندما يعلن عن قدسيته، والدنا المقدس».

«وهل هم جميعًا على هذه الشاكلة؟!».

«من هم؟».

«الشهداء؟!».

«نعم».

«حتى الراهب «بادر جوزيه» الذي خضع لقانون الزواج وتزوج؟».

«كيف تجرؤ وتذكر اسم هذا الرجل الحقير أمامي؟ إنه رمز
الخيانة والإثم».

«لقد قال لي يا أماء إنه يحتمل من العذاب في حياته أكثر مما
احتمل جميع الشهداء».

«لقد حذرتك مرارًا من مجرد الحديث إلى هذا الرجل يا ابني
العزيز».

«والراهب الآخر.. الذي زارنا ذات يوم متخفيًا.. هل هو في منزلة
جوان؟».

«لا.. ليس في منزلته.. تمامًا.. أقل منه بعض الشيء».

«هل هو رجل.. حقير..؟».

«لا.. ليس حقيرًا».

وعندئذ قالت صغرى الفتاتين فجأة:

«إن له رائحة عجيبة!».

وعادت الأم تقرأ في الكتاب قائلة:

«ترى هل كان الصغير جوان شاعرًا، في تلك الليلة، بأنه سيكون هو أيضًا، بعد بضع سنوات، بين القديسين والشهداء؟ إن أحدًا لا يستطيع أن يجزم. ولكن الأب ميجويل سيرا يخبرنا في مذكراته بأن الصغير جوان ظل راکعًا يصلي في تلك الليلة فترة أطول من المعتاد.. ولما حاول زملاؤه في الغرفة المدرسية أن يعابثوه كالمعتاد..».

واستمرت الأم في القراءة بصوت هادئ ثابت رقيق، وظلت الفتاتان الصغيرتان مرهفتي الآذان، وهما يكونان في ذهنيهما بعض العبارات الدينية ليفاجئا بها والديهما، أما أخوهما الغلام، فقد ظل يتثائب وهو معتمد على جدار الغرفة المطلي بالجير، ويقول لنفسه: «لكل شيء نهاية».

وأخيرًا انصرفت الأم إلى زوجها حيث قالت له:

«إنني أشعر بالقلق من ناحية الولد!».

«ولماذا لا تقلقين من ناحية الفتاتين؟ إن أسباب القلق في كل مكان».

«إن الفتاتين قديستان صغيرتان منذ الآن.. أما الولد.. فإنه يكتر من الأسئلة عن الراهب السكير.. لشد ما أتمنى لو أننا لم نستقبله في هذا البيت».

«لو لم نستقبله ونخفيه لوقع في قبضة ذوي القمصان الحمراء، وعندئذ يصبح في نظرك من القديسين والشهداء.. بل إن بعض زملائه لا يترددون حينئذ عن تأليف كتاب عنه، ولن تترددي أنت في قراءة هذا

الكتاب على الأولاد».

«هذا الرجل؟؟ مستحيل أن يكون في زمرة القديسين؟».

فابتسم الزوج وقال:

«أياً كان الأمر، فإنه لا يزال يكافح ويناضل من أجل العقيدة. وإذا كانت له بعض الرذائل فلأنه بشر.. ولهذا فإنني لا أصدق بعض ما يذكر في هذه الكتب؛ لأننا جميعاً من البشر؛ لسنا معصومين».

«هل تعلم ماذا سمعت اليوم؟ إن امرأة مسكينة حملت ابنها الطفل إليه لكي يعمده باسم بدرو، ولكن هذا الراهب كان في حالة سكر كالمعتاد، فعمد الولد باسم أنثوي..وسماه.. بريجيتا.. تصور.. بريجيتا!!».

«حسنًا.. إنه اسم قديس طيب».

«إنك تشير أعصابي أحياناً كثيرة بمثل هذا الاستخفاف.. وها هو ذا ابنك لا يزال يتحدث عن المدعو بادر جوزيه.. رغم تحذيراتي له».

فاتسعت البسمة على شفتي الزوج وهو يقول:

«إننا نعيش في مدينة صغيرة محدودة.. نائية وليس لنا مفر من الاعتراف بالواقع، وأكبر الظن أن العالم الخارجي لا يكاد يشعر بوجودنا.. ولم يبق لدينا من يمثل الكنيسة والدين إلا بادر جوزيه المتزوج، والراهب السكير.. فإذا لم نكن راضين عنهما، فيحسن بنا أن نرحل!».

وشرع يرقب تأثير كلماته عليها في هدوء وصبر.. فقد كان أكثر

من زوجته ثقافة، فهو يحسن الكتابة على المكتاب «الآلة الكاتبة»، وهو يعرف فن تنظيم المكتبات، وقد سبق له السفر إلى مكسيكو- العاصمة- كما أنه يعرف كيف يقرأ الخرائط الجغرافية، ومن ثم فهو يعلم أن المسافة بين هذه المدينة- عاصمة الولاية- وبين الميناء الصغير تستغرق عشر ساعات في السفر عن طريق النهر، والمسافة بين الميناء الصغير إلى مدينة فيرا كروز تستغرق نحو اثنتين وأربعين ساعة في عرض البحر، وهذا هو أحد طريقي الرحيل عن هذه الولاية الملحدة، أما الطريق الآخر، فيقع في الشمال، عبر المستنقعات والجبال التي تفصل بين هذه الولاية والولاية التالية. وفي هذا المخرج الشمالي لا توجد طرق ممهدة، وإنما ممرات لا يمكن السير فيها إلا للبغال، وقرى للهنود الحمر، وبعض السهول الوعرة. ويقع المحيط الهادي بعد هذا كله على مسافة مائتي ميل..

وقالت الزوجة أخيرًا:

«إنني أفضل الموت على الخضوع لهذه القوانين الإلحادية».

«نعم.. نعم.. طبعًا هذه مسألة لا تحتاج إلى مناقشة، ولكن علينا أن نستمر في الحياة بقدر الإمكان».

جلس الرجل العجوز على صندوق خشبي فارغ في الفناء الجاف الواقع أما منزله، وكان بدينًا جدًّا، لاهث الأنفاس، وقد كان يلهث قليلًا كأنما بذل مجهودًا فوق طاقته في حرارة الجو.. وكان فيما مضى

مشغولاً بعلم الفلك، وهو الآن يحاول إلا أن يقرأ حظه وما يخبئه له الغيب، بالنظر إلى النجوم؟ وكان يرتدي قميصاً وسراويل، ولكن قدميه كانتا عاريتين.. ومع هذا كله، فقد كانت تبدو عليه بوضوح بعض سمات رجال الدين. فلا شك أن أربعين سنة في خدمة الدين قد وسمته بطابعها.

وكان السكون التام مخيمًا على جو المدينة بعد أن نام كل من فيها..

ولمعت النجوم في ذلك العالم البعيد كأنها الأمل.. ولكن هذا العالم ليس هو كل الوجود.. وليس من شك في أن السيد المسيح لم يمت، وإنما لا يزال حيًّا في مكان ما بهذا الوجود.. ولكن الرجل البدين لم يعد يشعر بهذا العالم البعيد المتألق بالأمل.. لقد أصبح بالنسبة إليه، عالمًا مظلمًا، مغلفًا بالصعاب، يتيه في الوجود كسفينة مهجورة.. نعم.. إنه يشعر أن خطيئته قد طوت هذا العالم كله، وأفقدته كل أمل في الدنيا أو في الآخرة..

وارتفع صوت امرأة من الغرفة الوحيدة التي يقيم فيها تقول له بلهجة آمرة:

«جوزيه.. بادر جوزيه».

إنه الراهب الذي خضع لقانون الزواج.. وأن المرأة التي تنادي عليه هي زوجته! وانكمش في نفسه كأنه عبد في سفينة قراصنة عند سماع صوتها، وتحول بنظراته عن السماء وهربت التأملات من ذهنه.. وأخذت الخنافس تزحف في الفناء نحوه..

وتكرر النداء باسمه.. وشرع هو يحسد في أعماق نفسه زملاءه
الرهبان الذين استشهدوا.. لقد استراحوا بسرعة.. لقد أخذوا إلى ساحة
المدافن هناك، وأوقفوا بالقرب من الجدار وأطلق الرصاص عليهم،
وفي أقل من ثانيتين، انطفأت جذوة الحياة من أجسادهم، وأصبحوا في
نظر الجميع، شهداء..

أما هو فإنه لا يزال يعيش.. إنه في الثانية والستين من عمره وقد
يبلغ التسعين من العمر.. أي قد يستمر في الحياة ثمانية وعشرين
عامًا.. وإنها لفترة طويلة، ليس فيها ما يستحق أن يذكر إلا الفترة
الواقعة بين طفولته، وبلوغه مرحلة الرجولة بعد أن تلقى دراسته العالية
وظفر بمنصبه الديني..

وارتعد جسمه وهو يسمع صوت زوجته مرة أخرى تقول له: «هلم
يا جوزيه إلى الفراش».

إنه يعرف أن زواجه كان من الأحداث المثيرة للضحك والسخرية.
فزواج الرجل العجوز مضحك في ذاته، فما بالك بزواج راهب عجوز!!
وشرع يفكر في نفسه وفي موقفه، وكأنما تجسمت أفكاره، وراحت
تنظر إليه وهو جالس على الصندوق الخشبي وتصدر حكمها عليه..
ليخيل إليه أنه رجل منبوذ من رحمة الله والناس، وأنه غير جدير حتى
بالعذاب في جهنم.. إنه مجرد عجوز بدين مثير للسخرية والتحقير..
إنه الأنموذج الحق للإيمان المزعزع، والتهالك المقيت على البقاء في
الحياة بأي ثمن.. لقد رأى في الأيام الأولى، رجلًا متعصبًا في الحادة
يدخل الكنيسة، عندما كانت الكنائس لم تزال قائمة، ويبصق على

صورة العذراء، وتجمع المصلون عليه وحملوه، ثم شنقوه كما كانوا يفعلون مع تمثال يهوذا المصنوع من القماش والقش أثناء الاحتفال بالخميس المقدس «خميس الصعود» وإن بادر جوزيه يعتقد أن هذا الرجل المملح أفضل منه على كل حال.. أفضل منه لأنه ضحى بنفسه في سبيل مبدأ يؤمن به، أيًا كان هذا المبدأ من الفسولة والخبث - أما هو.. فلا يعدو أن يكون شيئًا تافهًا.. لا قيمة له.. كالصورة الدمية البشعة التي يخيفون بها الأطفال.

وترنح في جلسته على الصندوق الفارغ مرة أخرى حين سمع صوت زوجته يقول:

«جوزيه.. ماذا تفعل في الفناء.. هلم إلى الفراش».

ماذا يفعل!! إنه لا يفعل شيئًا على الإطلاق.. لم يعد هناك عمل بالكنيسة.. لم تبق شعارات دينية يقوم بها، أو قداس يؤديه، أو اعترافات ينصت إليها من الخاطئين. بل إنه لم يعد يصلي، ولو سرًا؛ لأن الصلاة تحتاج إلى قوة إرادية ووازع ديني، وهو قد أصبح محرومًا من الأمرين. لقد عاش في خطيئة مستمرة دون أن يجد أحدًا من زملائه ليعترف بين يديه ويتطهر..

نعم.. إنه لم يعد يفعل شيئًا على الإطلاق.. إنه يجلس فقط. ويأكل.. يأكل كثيرًا.. أكثر مما ينبغي.. إنها تطعمه وتسمنه وتحفظ به كأنه خنزير كبير تزمع أن تعرضه في معرض المواشي وتظفر من أجله بالجائزة!

وسمع اسمه يتردد مرة أخرى.. واستبد به الفواق من فرط توفز

أعصابه وهو يوشك أن يواجه زوجته للمرة الثامنة والثلاثين بعد السبعمائة. إنها هناك.. في الفراش الذي يحتل نصف الغرفة.. تحت الكلة.. عجفاء.. ضامرة، مغضنة الوجه، تبدو ضفيرة شعرها الأشيب كذيل خنزير.. ومع هذا فهي تعتقد أنها في مركز رفيع بالنسبة لغيرها من نساء المدينة.. ألم يقرر لها الحاكم معاشاً دائماً؟!.. أليست هي زوجة الراهب الوحيد الذي خضع لقانون زواج الرهبان؟! لماذا لا تشعر بالفخر؟! ولماذا لا يتضاعف شعورها بهذا الفخر وهي تذكر أنها لم تكن من قبل غير خادمة أو مديرة بيت هذا الراهب نفسه، تقف بين يديه، ولا تكاد ترفع عينها إليه!

«جوزيه..!».

«إنني آتٍ يا عزيزتي».

وفيما هو ينهض عن الصندوق الفارغ، سمع ضحكة خفيفة ترن في مكان قريب، فرفع عينيه الضيقتين كأنه خنزير يشعر بوصوله إلى المجزر، ثم إذا هو يسمع صوت طفل يصيح به: «جوزيه».

وراح يلتفت مدهوشاً في جوانب الفناء، ثم وقعت نظراته أخيراً على وجوه ثلاثة أطفال في نافذة ذات قضبان بالمنزل القريب المواجه لمنزله.. وكان الأطفال الثلاثة ينظرون إليه في اهتمام عميق، فتجاهل أمرهم، واستدار نحو باب منزله وراح يدب بجسمه البدين في بطاء.. وفجأة سمع صوتاً رفيعاً يصيح: «جوزيه» فالتفت برأسه حيث رأى الأطفال الثلاثة يتضحكون في سرور شديد. ولم يبد في عينيه الصغيرتين أية أمارات من الغضب.. فهو يرى أنه ليس من حقه أن

يغضب، ومن ثم فتح شفتيه في بسملة واهنة شاحبة لا معنى لها، وكأنما أطمعت هذه البسملة الأطفال فيه، أو كأنما كانت الإذن لهم ليضاعفوا من عبثهم، فإذا هم يصيحون مقلدين صوت زوجته:

«جوزيه.. جوزيه.. هلم إلى الفراش».

وملأت أصواتهم العابثة فناء البيت، وابتسم هو مرة أخرى في ذلة ومسكنة، وأشار لهم راجياً الصمت، ولكنه كان يدرك أنهم لن يطيعوا إشارته؛ لأن الطاعة وليدة الاحترام، وهو لم يعد موضع الاحترام في أي مكان: في البيت، أو في الشارع، أو في المدينة، أو في كل مكان تحت النجوم..



الفصل الثالث

النهر

كان الكابتن «فيلوز» يغني لنفسه بصوت مرتفع يعلو على هدير المحرك الصغير في مقدمة الزورق البخاري. وكان وجهه الكبير الملفوح بحرارة الشمس يبدو كخريطة منطقة جبلية فيها بقع من اللون البني المتدرج، وفيها بحيرتان صغيرتان زرقاوان، وهما.. العينان!

وكان ينظم الأغاني لنفسه وهو يمضي، ولكن صوته كان خلواً من جمال النغم، وإنما هو صوت مرسل، لكلمات مرسلّة «إنني عائد إلى البيت.. إلى البيت، حيث الطعام الشهي في انتظاري.. إنني لا أحب أن أتناول إفطاري في المدينة!».

وانحرف من المجرى الرئيسي للنهر إلى أحد فروعها، فشاهد على الشاطئ الرملي بعض التماسيح الراقدة فوق رمال الحافة، فشرع على

الفور «ينظم» لها بدورها أغنية ويردها.. لقد كان الرجل سعيداً.. وكانت مزارع الموز تمتد على الجانين إلى مدى البصر، ولم يكن يقطع السكون المخيم على المنطقة غير صوته المدوي وأزيز محرك الزورق، ولم يكن ثمة أحد غيره في تلك النواحي.. ولهذا كان يمشي كأنه يسبح في بهجة على أمواج الطفولة السعيدة رغم أنه يؤدي عملاً لا يؤديه إلا الرجال.. إنه لم يشعر بمثل هذه السعادة والتحرر من الأعباء إلا مرة واحدة منذ أمد بعيد.. عندما كان يشترك في الحرب العالمية بالميدان الغربي بفرنسا.. ميدان الخنادق والقنابل والموت الجاثم في أية لحظة..

ومضى الزورق به في فرع النهر إلى منطقة المستنقعات.. وحلق فوق رأسه أحد عقبان الجو.. وفتح الكابتن فيلوز صندوقاً صغيراً تناول منه شطيرة راح يلتهمها في شغف.. ما أطيب الطعام عندما يكون في الخلاء..! ووثب أحد القردة على فرع شجرة وأخذ يثرثر له كأنما يطلب منه قطعة من الشطيرة.. وتضاعف الإحساس بالسعادة في قلب فيلوز وهو يعيش مع الطبيعة.. وأحس كأنما حب الوجود بما فيه ومن فيه قد شرع يجري في عروقه مع الدماء. وها هو ذا يقترب من البيت، وها هو ذا يرفع عقيرته مرة أخرى بالغناء وهو يحاول أن يذكر عبارة فيلسوف ملهم كان قد قرأها ذات يوم في كتاب.. إنها عن شيء من هذا القبيل «هبنى الحياة التي أحبها: إنها الخبز الذي أغمسه في ماء النهر، تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم، والبيت الذي أعود إليه من رحلة الصيد».

وبدأت مزارع الموز تتضاءل على الجانبين كلما اقترب من البيت، وظهرت من ورائها الجبال البعيدة كأنها خطوط سوداء عريضة متعرجة عند الأفق، ولم يلبث أن رأى غير بعيد بضعة أكواخ، ثم الفيلا الخشبية التي يقيم بها..

وشعر وهو يقترب من البيت، كأن سحابة مجهولة قد طوت شعوره بالسعادة!

ولم يدر لماذا؟ لعل السبب هو أنه لا يجد عادة من يستقبله بالبشاشة والترحاب.

وسار نحو الفيلا التي كانت تمتاز عن الأكواخ القريبة منها بسقف منحدر من الآجر، وبسارية لرفع العلم- بدون علم- وبلافتة نحاسية مثبتة على الجدار بجانب الباب مكتوب عليها «شركة أمريكا الوسطى لتجارة الموز».

وكان ثمة سريران من الشبك معلقان في الشرفة الواسعة، ولكن أحداً لم يكن كالمعتاد في استقباله.. فلا شك أن زوجته ملازمة الفراش كعادتها.. ولاشك أن ابنته لم تسمع وقع أقدامه.. وعليه هو أن يشعرها بوصوله.. ومن ثم اقتحم الباب وهو يرفع عقيرته بالغناء «لقد عاد الوالد.. عاد الوالد..».

وظل يرفع عقيرته حتى دخل مخدعه حيث أطل عليه، من وراء الكلة المحيطة بالفراش، وجه زوجته الخائفة، فقال لها وهو يذب على الأرضية بقدميه:

«هل أنت سعيدة بعودتي يا عزيزتي تريكسي؟!».

وتمتت الزوجة وهي ترسم على وجهها أمارات الشعور بالخوف:

«طبعًا يا عزيزي».

«وأنا سعيد أيضًا بعودتي».

وكان يلقي هذه العبارة بلهجة الذي يريد أن يوحي إلى نفسه بأنه سعيد حقًا، فهو يحاول دائمًا أن يعتقد بأنه يشعر - حقًا - بمعنى السرور، والحب والبهجة، والحزن، والكراهية.. إنه لا يريد أن يتعود التظاهر بمثل هذه العواطف..

وعادت زوجته تقول:

«هل كل شيء كما ينبغي في المكتب؟».

«نعم.. تمامًا».

«لقد عانيت أمس من نوبة حمى».

فقال في غموض:

«إنك في حاجة إلى الرعاية.. ولسوف تتحسن حالتك الآن بعد أن جئت لأقوم على رعايتك..».

ثم قرر أن يغير مجرى الحديث عن الحمى والأمراض، فراح يصفق بيديه في قوة، جعلت زوجته ترتعد في فراشها، ثم صاح:

«أين كورال؟».

«إنها مع ضابط البوليس».

فقال وهو يتجول في أنحاء الغرفة على غير هدى:

«كنت أرجو أن أجدها في استقبالي...».

ثم تنبه فجأة إلى عبارة زوجته، فأسرع يقول:

«ضابط بوليس؟ أي ضابط بوليس...؟!».

«لقد جاء هذا الضابط أمس ليلاً وسمحت له كورال بالمبيت في

الشرفة، ويبدو أنه يبحث عن شخص هارب.. هكذا يقول!».

«ما أعجب هذا! أبحث عن الهارب.. هنا؟!».

«إنه كما قلت لك ضابط بوليس، وليس مجرد شرطي عادي. لقد

ترك رجاله في القرية.. هكذا قالت كورال».

«إذن كان يجب أن تكوني معها في حالة كهذه.. أعني.. إنني لا

أثق في هؤلاء الناس.. ولا يجوز لأحد أن يثق فيهم...».

ثم أردف قائلاً بصوت متردد:

«ولكنها على كل حال.. طفلة».

فولولت زوجته قائلة:

«قلت لك إنني أصبت أمس بنوبة حمى.. إنني مريضة جداً».

«حسنًا.. حسنًا.. لسوف تتحسن صحتك فورًا.. لعلها ضربة

شمس بسيطة، وسوف ترين كيف تتحسنين بعد أن وصلت...».

«لشد ما كان الصداع يؤلمني.. لم أستطيع أن أقرأ أو أعمل شيئاً..

ثم أقبل هذا الرجل ..».

وارتعد جسمها فجأة.. لقد كانت تعاني من حالة نفسية معقدة.. فهي تشعر دائماً بالخوف.. فتعتقد أن الخوف يملأ نفسها.. وأن المخاطر وراء ظهرها.. ولو تركت وشأنها لظلت تدور حول نفسها كالنحلة.. وكانت مظاهر الخوف تتجسم لها في كل شيء.. في الحمى.. وفي الفيران.. والخوف من التعطل وعدم الاستقرار.. إن حقائق الحياة بالنسبة لها مجرد أوهام.. أن الموت يقترب منها في كل عام تقضيه في هذه المنطقة النائية.. أن كل إنسان متحضر يجمع حاجياته ويرحل.. ولم يبق إلا هي، وزوجها وابنتها.. هنا.. في هذه المقبرة التي لا يزورها أحد..

نعم.. إن هذه المنطقة، في رأيها، لا تزيد عن قبر كبير.. فوق سطح الأرض..

وقال زوجها فجأة:

«أعتقد أن واجبي الآن أن أذهب وأرى هذا الرجل..»

ثم جلس على حافة الفراش، ووضع يده على ذراعها، وأردف قائلاً:

«لقد مضى ذلك الرجل الملون الذي كان يشغل سكرتيراً للمدير».

«إلى أين مضى؟».

«إلى.. السماء!».

وشعر بالردة تسري في ذراعها، فأدرك أنه لمس وتراً من أوتار
الخوف الكامن في أعماق نفسها، وإذا هي تنكمش فجأة وتقول:

«آه.. لشد ما أشعر بالإعياء!».

«أيؤلمك رأسك يا عزيزتي؟».

«أليس من الأفضل أن تمضي لمقابلة ضابط البوليس؟».

«آه.. نعم.. نعم لسوف أمضي».

ولكنه لم يتحرك من موضعه.. ولم تلبث الابنة أن جاءت ووقفت
بالباب، وراحت ترقبهما في سمت الشخص الذي يقدر المسؤولية
ويشعر بعبئها على كاهله.. فقد كان أبوها يبدو أمامها كطفل كبير،
وتبدو أمها كأنها طيف إذا نفخت فيه طار!

كانت صبية في الثالثة عشرة من عمرها.. وفي مثل هذه السن لا
يشعر الإنسان عادة بالخوف من أشياء كثيرة.. كالموت، والشيخوخة،
والأمراض، وعدم الاستقرار وما إلى هذه المتاعب التي تتسلل -
كالأفاعي - كلما تقدم العمر. إن الحياة بالنسبة لها لم تبدأ.. ولكن
الظروف المحيطة بها جعلتها تشعر رغماً عنها بذلك الإحساس
الوهمي بعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقها..

قالت بهدوء لوالدها:

«لقد أخبرت ضابط البوليس إنك حضرت».

فقال الوالد:

«آه.. نعم.. نعم.. ولكن.. ألا تقبّلين أباك؟».

فتقدمت بوقار نحوه، وطبعت على جبينه قبلة خفيفة خالية من حرارة العاطفة، ذلك أن ذهنها كان مشغولاً بمسائل أخرى جعلتها تقول:

«لقد أخبرت الطاهية أنك يا أماء لن تبرحي فراشك اليوم..».

فقال الوالد لزوجته:

«ألا يمكن أن تحاولي مغادرة الفراش يا عزيزتي؟».

فقالت كورال - الابنة:

«لماذا؟!».

«أوه.. لا شيء».

«أريد يا أبي أن أتحدث معك على انفراد».

وانكمشت مسز فيلوز - الأم - على نفسها داخل السرير تحت الكلة، بينما قال الوالد متسائلاً في دهشة وحيرة:

«إنني لا أفهم..؟ لماذا لا تريدان أن تسمع والدتك الحديث؟!».

وكانت كورال تتوقع هذا السؤال.. وكانت من ثم قد أعدت الإجابة عنه، وكان والدها يعرف عنها أنها لا تلقي الكلام على عواهنه، وإنما هي تفكر في كل عبارة تلفظ بها.. ولكن إجابتها عن أسئلته كانت تبدو أحياناً غير مألوفة.. ولعل السبب في هذا يرجع إلى أن الصبية قد شبت في هذه المنطقة الوحشية، حيث الأحرار والمستنقعات وأكواخ الأهالي المعدومين، والبعوض والحشرات وعقبات الجو، والحرمان من الأتراب الذين يلعبون معها إلا الأطفال الوطنيين ذوي الكروش

المتنفخة بسبب الديدان!!

وإذا كان يقال إن الطفل عادة يربط بين الأبوين، فإن الكابتن فيلوز يشعر بأن ابنته كورال تربط بينه وبين زوجته بطريقة عكسية.. فإنها تبدو كالشخص الغريب في حياتهما.. الشخص الدخيل الذي يريد أن يفرض إرادته عليهما..

ومد الرجل يده ليمسك بذراع زوجته برفق وهو يقول:

«إنك تثيرين الخوف في نفوسنا يا كورال!».

فقالت الصبية في بطاء ووضوح:

«لا أعتقد... إنه ليس في الأمر ما يثير خوفك».

فقال في استسلام وهو يضغط على ذراع زوجته:

«حسنًا يا عزيزتي. يبدو أن ابنتنا قد حزمت رأيها».

فقالت الزوجة بصوتها المرتعد:

«يجب أولاً أن تذهب لمقابلة ضابط البوليس... إنني أريد أن

ينصرف فلست أحب وجوده هنا».

فقال الكابتن فيلوز وهو يرسل ضحكة عصبية جوفاء:

«إذن يجب أن ينصرف».

فقالت الابنة بصوتها الهادئ الحاسم:

«لقد طلبت منه هذا.. وعندما حضر أمس مساءً في ساعة متأخرة،

لم أستطع أن أرفض السماح له بالمبيت في السرير المعلق بالشرفة..

أما الآن فيجب أن ينصرف..».

«وهل رفض أن يطيع أمرك؟».

«قال إنه يريد أن يتحدث إليك».

«إذن فهو مخطئ.. لا يعرف من هو.. صاحب الأمر هنا..».

وكان ينطق عبارته الأخيرة في تهكم خفيف.. وكان التهكم هو دفاعه الوحيد.. ولكن كورال لم تكن تفتن إليه، أو إلى أي شيء آخر لا يكون بسيطاً واضحاً كالحروف الهجائية أو الأرقام أو التواريخ.

وترك ذراع زوجته، ونهض في تناقل، ومضى إلى مدخل «الفيللا» حيث كانت شمس الأصيل ترسل أشعتها الدافئة، وهناك أمام الشرفة، رأى ضابط البوليس واقفاً كالتمثال - لا يتحرك، بل ولا يتقدم خطوة لمقابلته وتحيته..

وقال الكابتن فيلوز في قلق:

«خيرًا يا لفتنانت؟!».

«إنني أبحث عن رجل ذكرت التقارير أنه في هذه النواحي».

«لا شك في أنه ليس مختبئاً هنا».

«لقد قالت ابنتك هذا».

«حسنًا.. وماذا بعد؟».

«إن الرجل هارب من اتهام خطير».

«جريمة قتل؟!».

«لا.. بل خيانة عظمى».

«أوه.. خيانة».

وهبطت نبرات صوته فجأة كأنما زال من نفسه كل أثر للاهتمام..
ذلك أن الاتهام بالخيانة كان شائعاً في كل مكان وضد كل شخص
تقريباً، وهو- أي الاتهام- يشبه شيوعه تلك السرقات الخفيفة التي
تحدث في معسكرات الجنود..

وقال الضابط مستأنفاً الحديث:

«إنه راهب.. وأعتقد أنك سوف تبلغ عنه فوراً حين تراه».

ثم توقف برهة قبل أن يردف قائلاً:

«إنك أجنبي تعيش في حماية قوانيننا.. ونحن نتوقع منك أن ترد
جميل كرمنا معك.. هل أنت كاثوليكي المذهب؟».
«لا».

«إذن فأنا واثق بأنك سوف تبلغ عنه».

«أعتقد هذا».

وظل الضابط واقفاً في الشمس كأنه علامة استفهام تهديدي
سوداء، وكان يبدو عليه أنه لا يريد أن يقبل من هذا الأجنبي عن
بلاده مجرد الوقوف في ظل بيته.. ولكنه مع ذلك قبل أن يبيت ليلته
في السرير المعلق بالشرفة- هكذا حدث الكابتن فيلوز نفسه- ولعله
اضطر إلى هذا بحكم الضرورة.

وفجأة قال له مرحبًا:

«أسمح لي بأن أقدم إليك بعض الشراب.. أعني زجاجة مياه غازية!». .

«لا.. لا.. شكرًا».

«حسنًا.. ليس في مقدوري أن أقدم إليك شرابًا آخر.. فإن من الخيانة أن يشرب الإنسان هنا خمرًا!». .

واستدار الضابط فجأة كأنما لا يطيق أن يطيل النظر إلى هذا الأجنبي وابنته.

ثم مضى في الطريق المؤدي إلى القرية.. وكان «تزلكه» وجراب مسدسه يلمعان في ضوء الشمس.. وبعد أن قطع مسافة من الطريق، إذا هو يتوقف ويبصق في عنف.. لقد أبى أن يبصق بالقرب من الرجل وابنته حتى لا يبدو عديم الذوق.. ولكنه ما كاد يتعد عنهما حتى أعرب- بالبصق- عن شعوره بالكراهية والاحتقار لهؤلاء الناس الذين يختلفون عنه في النظر إلى الحياة وفي العيش الميسر، والشعور بالأمن، والتسامح. والابتهاج..

وقال الكابتن فيلوز وهو يشيعه بنظراته:

«إنني لا أحب أن أعادي هذا الرجل».

«لا شك أنه لا يطمئن إلينا».

«إنهم لا يطمئنون إلى أحد».

«أعتقد أنه يشم رائحة الراهب في هذه المنطقة».

«إنهم يشمون رائحة الرهبان في كل مكان».

«ولهذا السبب فإني لم أسمح له بتفتيش المكان».

فقال الكابتن فيلوز:

«لماذا؟!».

ثم أردف قائلاً وقد شردت أفكاره في مجرى آخر:

«كيف استطعت أن تمنعني من تفتيش المكان؟».

«قلت له إنني سأطلق كلاب الحراسة عليه، ثم أقدم شكوى إلى القنصل الأمريكي، على أساس أن ليس من حقه تفتيش بيت مواطن أمريكي بدون إذن رسمي».

«أليس من حقه؟! إن الحق في نظر هؤلاء الناس كامن في مقابض مسدساتهم، ولكن.. ما هو وجه الضرر الذي سيعود علينا إذا سمحت له بالتفتيش؟».

«لقد وعدت وعد شرف».

وكانت كورال، واقفة في جمود كالضابط الذي ذهب.. صغيرة ملوحة البشرة، غريبة بين أحراش الموز.. وكانت صراحتها المتناهية لا تسمح لأحد أن يطعم فيها أو يؤول حديثها إلى غير معناه الواضح. وأن مستقبلها بكل ما فيه من مباهج وأخطار وقلق ومتاعب يبدو خارج نطاق حياتها في ذلك الحين.. إن بوابة حياتها مغلقة.. ولكنها ستفتح يوماً ليدخل المستقبل منها.. وإن فتحها في أية لحظة يتوقف على كلمة السر «سمسم». وقد تكون هذه الكلمة لفظة عابرة.. أو

إشارة طارئة، أو حركة خفيفة.. ثم.. ثم ماذا.. إن الكابتن فيلوز يشعر بالخوف من المستقبل الذي سيدخل من بوابة حياة ابنته.. إنه يحبها هذا الحب الذي يفقده السيطرة عليها.. فالإنسان لا يستطيع أن يسيطر على من يحب.. وإنما يرقب فقط المحبوب وهو يمضي مستهترًا نحو القنطرة المحطمة، أو في الطريق الوعر الزاخر بالضباب، أو وهو يدب في ظلمات السبعين عامًا التي تمتد أمامه..

وأغلق الكابتن عينيه حتى يوقف هذا اللون من تفكيره.. إنه رجل سعيد، وهو لا يريد أن يظل سعادته بمثل هذه الأفكار القائمة.. وإنه ليغمغم بإحدى أغنياته «المنظومة» بينما قالت ابنته فجأة كأنما تتم حديثًا بدأته:

«نعم.. لقد وعدت وعد شرف.. ولم يكن في مقدوري أن أتسبب في مقتل رجل كهذا حتى لا يقال عني.. كاذبة».

فهتف والدها مروعًا:

«كاذبة..؟ يا إله السموات؟ هل تعنين أنه.. هنا.. الراهب الطريد؟».

«نعم.. طبعًا».

«أين..؟!».

«في المخزن الكبير!».

ثم أردفت قائلة في لهجة رقيقة:

«لم أستطع أن أدعهم يقبضون عليه».

«وهل تعرف أمك هذه الحقيقة؟».

«لا، لم أשא أن أخبرها.. خشيت أن تفقد أعصابها».

وكانت الفتاة قد تعودت ألا تعتمد عليها في شيء منذ أن أدركت انهيار أعصاب أمها، ونفسية أبيها التي جعلته لا يزيد عن طفل كبير..
إنهما، بالنسبة إليها، قطعة من الماضي، وسوف يصبحان في خلال أربعين عامًا على الأكثر، عظامًا نخرة..

وقال الوالد أخيرًا:

«هلم إليه».

وسار معها في ببطء وهو يشعر بالسعادة تنض عنه بأسرع وأتم مما تنض من قلب الرجل السعيد.. فالرجل غير السعيد يكون عادة مهيباً في كل لحظة لأن يفقد ومضة السعادة التي قد تشرق في قلبه مصادفة..
وكان وهو يسير وراءها يرى ضفيري شعرها تلمعان في ضوء الشمس. وخطر له حينئذ أنها بلغت هذه المرحلة من العمر التي تتأهب فيها بنات الهنود الحمر للزواج.. فماذا سوف يحدث؟!

وجفل فجأة عن التفكير في هذه المشكلة التي لم يجروء على مجرد التعرض لها من قبل.

وفيما هما يجتازان نافذة غرفة النوم، لمح زوجته مكومة تحت كلة السرير، عجفاء، شاحبة، وحيدة.. وعاد يذكر، وهو يرثي لحال نفسه، كيف كان سعيداً مبتهجاً وهو يقود زورقه في مجرى النهر ويؤدي عمله كرجل، دون أن يفكر في شيء، أو يحمل عبء شيء.. وتمنى في تلك

اللحظة لو أنه ظل بدون زواج..

وقال لابنته بصوت الطفل الباكي الذي يضرب علقه على ظهره:
«ليس من حقنا يا كورال أن نحشر أنفسنا في الشؤون السياسية
هنا».

فقال في رقة وتلفظ:

«ليس للسياسة دخل في هذا الموضوع.. فأنا أعرف ما هي
السياسة.. فقد بلغت مع أمي في دروس معهد المراسلة درس التاريخ
عن «قوانين الإصلاح»..

ثم تناولت من جيبها مفتاحًا وفتحت به باب المخزن الكبير الذي
تجمع فيه «سباطات» الموز قبل تصديرها للخارج، وبدا المخزن
مظلمًا من الداخل بعد وهج الضوء في الخارج، وسمعت حركة خفيفة
في أحد أركانه، فالتقط الكابتن فيلوز مشعلًا كهربائيًا، وصبوب شعاعه
إلى ذلك الركن حيث رأى رجلًا ضئيل الجرم، مرتديًا بذلة سوداء، غير
حليق الوجه، ينظر إليه وهو يطرف بعينه في ضوء المشعل..

وقال الكابتن باللغة الإسبانية:

«من أنت؟!».

فأجاب الرجل وهو يقبض على حافظة أوراقه في سمت المسافر
الذي يريد أن يلحق قطارًا يوشك أن يتحرك:

«إنني أتحدث الإنجليزية بطلاقة».

«هل يليق.. أن تختبئ لدينا؟!».

«لا.. لا.. طبعًا».

«إننا هنا أجنب وليس من حقنا أن ن تدخل في شئونكم السياسية».

«طبعًا.. طبعًا.. لسوف أذهب».

ونفض واقفًا وقد أطرق برأسه كأنه جندي مراسلة ينصت إلى أوامر ضابطه. وشعر الكابتن فيلوز بشيء من العطف عليه، ومن ثم قال:

«يحسن بك أن تبقى حتى ينتشر الظلام.. فأنت ولا شك لا تريد أن يُلقى القبض عليك.. أليس كذلك؟».

«نعم.. لا أريد».

«أشعر بالجوع..؟».

فأجاب الرجل في مسكنة منفرة:

«قليلاً... وهذا لا يهم.. ولكن إذا شئت أن تسدي إليّ معروفًا..».

«ماذا..؟!».

«قليل من.. البراندي».

«ألا يكفي أنني أخالف القانون الآن بإخفائك، فتريد أن أخالفه مرة أخرى!».

ثم غادر المخزن متفخًا تاركًا الرجل الضئيل واقفًا مطرق الرأس في الظلام بين أكوام الموز، وأغلقت كورال الباب، ولحقت بأبيها الذي كان يقول مستنكرًا:

«أي رجل دين هذا الذي يستجدي بعض الخمر؟.. يا للعار!»
«ولكنك يا أبي تشرب الخمر أحياناً».

«عندما تشبين عن الطوق يا عزيزتي سوف تعرفين الفرق بين
شرب قليل من الخمر بعد الغداء، وبين اللهفة الدائمة إليها..».

«هل تسمح لي بتقديم بعض البيرة إليه؟!».

«لا أسمح لك بأن تقدمي إليه شيئاً على الإطلاق».

«إننا يا أبي لا نستطيع الاعتماد على الخدم في أمر كهذا».

فقال وهو يشعر بالغضب الشديد الناتج عن العجز وقلة الحيلة:
«أرأيت أي مأزق وضعتنا فيه!».

ثم ضرب الأرض بقدمه وانطلق إلى المنزل، ومضى إلى غرفة
النوم حيث راح يهيم فيها على غير هدى، أما زوجته فقد كانت نائمة
تحلم بحفلات الزفاف، وقد تمتمت أثناء الحلم بصوت مسموع قائلة:
«القطار.. حذار أن يفوتك القطار».

والتفت الزوج إليها في دهشة قائلًا:

«ما هذا! ما معنى هذا؟!».

وأسدل الليل أستاره السوداء فجأة.. ففي لحظة كانت الشمس
لا تزال تضيء المكان، وفي اللحظة التالية، أخلت مكانها لأستار الليل.

واستيقظت مسز فيلوز لتواجه ليلة أخرى، ثم قالت لزوجها:

«هل كنت تحدثني يا عزيزي؟..».

«أنت يا عزيزتي التي كنت تتحدثين.. عن القطارات».

«لا شك أنني كنت أحلم».

فقال في لهجة تنم عن رضاء خفي:

«سيمضي وقت مديد قبل أن ترى هذه المناطق شكل القطار..».

ثم مضى وجلس على حافة السرير بعيدًا عن النافذة وكأنما يقول لنفسه: «البعيد عن العين، بعيدًا عن القلب».

وشرعت الجنادب «الصراصير المصفرة» ترسل في الجو صفيها، وبدأت الذبابات المضيئة ترفرف في جو الغرفة، خارج الكلة، كأنها مصابيح دقيقة، وعاد هو يضع يده في رفق على ذراع زوجته المنكمشة في فراشها ويقول:

«إن الحياة هنا يتركسي ليست باللغة السوء الآن.. أليس كذلك؟».

وشعر بجسمها يتصلب تحت ذراعه.. لقد لمست كلمة «الحياة» وترًا من أوتار الخوف الكامن في أعماق نفسها.. أليست «الحياة» مقابلة «الموت»! واستدارت بوجهها نحو الجدار، ثم عادت - في بأس - واستدارت بعيدًا عن الجدار.. فإن عبارة «استدار بوجهه نحو الجدار» من العبارات التي تلمس أيضًا أوتار الفزع في قلبها.. وظلت متهالكة في فراشها والشعور العميق بالرعب يركبها، بينما أخذت حدود مخاوفها تتسع حتى شملت كل علاقة لها بالوجود.. كان شعورها بالخوف يشبه شعور «الرجل الموسوس» من ناحية الأمراض المعدية.. إنه يعتقد أن كل شيء زاخر بالجراثيم والميكروبات.. بل

إن كلمة غطاء الفراش توحى إليها بغطاء التابوت في القبر، وهي من ثم، تزيح الغطاء عن جسمها في فزع متزايد وهي تهمس: «إن الجو حار جدًا...».

وأخذ الزوج السعيد، عادة، والزوجة البائسة دائمًا، يرقبان ظلام الليل وهو يتكاثف بإحساس مشترك من النفور.. وكأنهما رفيقان معزولان عن الحياة، فليس لأي شيء معنى خاص خارج مشاعرهما أو كأنهما طفلان في مركبة تمضي بهما في الفضاء الواسع دون أن يعلما إلى أين هي تمضي، أو أين سوف تقف.

وبدأ يردد أغنية من الأغاني التي كان يترنم بها أيام الحرب؛ وذلك حتى لا يسمع وقع هذه الأقدام التي تمر خارج الغرفة في الطريق إلى المخزن الكبير..!

وضعت الصبية كورال على الأرض صحيفة الطعام التي تحتوي على قطعة من لحم «التورتيللا» وساق دجاجة محمرة، ثم فتحت باب المخزن، وعادت تحمل الصحيفة في يد وزجاجة البيرة في الأخرى، ودخلت المخزن حيث سمعت في الركن هذه الحركة التي تنم عن خوف الرجل المختبئ، فقالت تهدئ من روعه: «إنني أنا» ثم أردفت قائلة دون أن تضيء المشعل:

«هذه زجاجة من البيرة وبعض الطعام».

«شكرًا.. شكرًا جزيلًا».

«لقد غادر رجال البوليس القرية في طريقهم نحو الجنوب. ولهذا يحسن أن تمضي أنت نحو الشمال».

ولم يجب.. وعادت هي تقول بذلك الفضول المعروف عن الأطفال:

«ماذا يفعلون بك لو أنهم قبضوا عليك؟».

«يقتلونني رميًا بالرصاص».

«إذن فلا شك أنك تشعر بالخوف الشديد».

فأخذ يتحسس طريقه من المخزن المظلم نحو الباب حيث ضوء النجوم الشاحب، وهو يقول:

«نعم.. إنني أشعر بالخوف».

وقالت كورال:

«أليس في مقدورك أن تهرب من هنا؟!».

«لقد حاولت.. منذ شهر.. وكدت أركب السفينة وهي راسية في الميناء، ولكنني استدعيت فجأة في اللحظات الأخيرة».

«هل كان أحد في حاجة شديدة إلى خدماتك؟».

فقال في صوت يقطر بالمرارة:

«إنها لم تكن في حاجة إليّ على الإطلاق».

وكان في مقدورها حينئذ أن ترى وجهه على ضوء النجوم الباهت.. وقالت لنفسها:

«ترى ماذا يقول أبي حين يراني أتحدث مع هذا الرجل الذي ينم وجهه عن .. الغدر».

وعاد الرجل يقول بنفس اللهجة المريرة:
«أرأيت إلى مدى تفاهتي وأنا أتحدث هكذا؟»
«تفاهتك!»

فأمسك بحافظة أوراقه وقال فجأة:
«هل يمكن أن تخبريني في أي شهر نحن .. ألا نزال في شهر فبراير؟».

«لا .. إننا في السابع من شهر مارس».
«إن الناس الذين ألتقي بهم لا يعرفون أسماء هذه الشهور .. حسناً .. لا يزال باقياً على موسم الأمطار نحو شهر .. أو على التحديد ستة أسابيع .. وعندما يحل موسم المطر، أكون بعيداً عن الخطر؛ لأن رجال البوليس لا يستطيعون الاستمرار في مطاردتي أثناء الموسم ..».
فقالت في لهجة الطفل الذي يريد أن يتعلم أشياء جديدة:
«إذن فالأمطار هي ستار الأمان لك؟».

وكانت دروس التاريخ والحساب واللغة الفرنسية ترقد في ذهنها كأنها أحجار كريمة. وكانت تتوقع أن تسمع إجابة عن كل سؤال، ومن ثم فهي تنتظر هذه الإجابات لتتربها في لهفة ونهم ..
وقال الرجل مجيئاً:

«نعم.. نعم.. ولكن عليّ أولاً أن أعيش ستة أسابيع وأنا على هذه الحال».

ثم راح يقضم ساق الدجاجة.. وكانت أنفاسه تصل إلى أنف كورال غير طيبة، كأنها شيء تعرض للشمس فترة طويلة. وعاد وهو يقول:

«وأعتقد أنني لن أنجح في تضليل البوليس قبل موسم الأمطار».

«ولكن ألا تستطيع.. أن تسلم نفسك وتستريح؟».

وكانت إجاباته تتسم بنفس الصراحة والوضوح الباديين في أسئلتها، ومن ثم قال لها وهو مستمر في الطعام:

«هناك ألم الموت.. ومن المستحيل عليّ أن.. أن أعرض نفسي مختاراً لهذا الألم، ثم إنني أعتقد أن الواجب يحتم عليّ عدم الاستسلام.. إن الأسقف غير موجود.. ولهذا لا يجب أن أترك الأبراشية.. أبراشيتي.. بدون راع..».

وعثرت يده على لحم «التورتيللا» فشرع يلتهمه في نهم، بينما قالت الصبية بوقار:

«إنها لمشكلة!».

وكانت وهي تتحدث، تسمع قرقرة البيرة في حلقه وهو يشرب من الزجاجاة، فلما فرغ من شرب الجرعات الأولى، قال:

«إنني أحاول أن أذكر كم كنت سعيداً ذات يوم».

وأرسلت ذبابة مضيئة شعاعاً خافتاً من الضوء على وجهه.. ذلك

الوجه المتشرد، ثم اختفى الضوء بأسرع مما ظهر، وعجبت كورال
ماذا يمكن أن يسعد مثل هذا الوجه..؟!!

وعاد هو يقول:

«إنهم الآن في مدينة مكسيكو يقيمون صلوات البركة.. والأسقف
هناك.. فهل يمكن أن تتصورى أنه.. أنهم جميعًا يعتقدون أنني الآن في
عداد الأموات!؟».

«إن في مقدورك طبعًا.. أن تتبرأ».

«إنني لا أفهم ما تعنين؟».

«أعني أن تتبرأ من عقيدتك.. وبذلك تنجو من الإعدام».

«هذا مستحيل.. فأنا راهب.. وليس في مقدوري أن أفعل».

وقالت الصبية وهي تنصت إليه وهو يحاول أن يرشف آخر
القطرات من زجاجة البيرة:

«أظن أن في استطاعتي إحضار قليل من البراندي الخاص بأبي».

فقال بعد أن أفرغ آخر نقطة من البيرة في جوفه:

«لا لا.. لا يليق أن تسرقى خمر والدك.. والآن.. يجب أن

أنصرف».

«يمكنك دائمًا أن.. تلجأ إلينا».

«إن والدك لا.. لا يوافق على هذا الرأي».

«ليس من الضروري أن يعرف.. وفي مقدوري أن أعني بك.. فإن

غرفتي هي التي تواجه باب المخزن.. ويمكنك أن تنقر على زجاج نافذتها».

ثم أردفت قائلة في لهجة حادة:

«ولكن يحسن أن نتفق على إشارة معينة.. فربما نقر على النافذة شخص آخر».

فقال في صوت ينم عن الجزع:

«أتعنين رجلاً.. آخر؟».

«نعم.. من يدري.. فربما يحاول هارب آخر من القانون أن يلجأ إلينا..».

«آه.. هذا محتمل».

«إن مثل هذه الأحداث غير بعيدة الوقوع».

«هل حدث شيء من هذا القبيل قبل الآن؟».

«لا.. ولكنني أتوقع أن يحدث.. ولهذا أريد أن أكون على أهبة الاستعداد، ويمكنك أن تنقر على النافذة ثلاث مرات.. نقرتان قصيرتان.. والثالثة طويلة».

وعندئذ أرسل ضحكة قصيرة صبيانية وقال:

«كيف يمكن للإنسان أن ينقر نقرة طويلة؟!».

«هكذا؟».

«تعنين نقرة عالية الرنين؟».

«نعم.. كإشارات مورس التلغرافية».

وشعر كأنه يخرج فجأة من ظلمات اليأس، ومن ثم قال:

«إنك فتاة على جانب كبير من الذكاء والصلاح.. هل تصلين من أجلي؟».

«إنني لا أعرف طريقة الصلاة».

«إذن سوف أصلي من أجلك».

«حسنًا.. يمكنك أن تفعل إذا شئت.. وعندما تأتي في المرة التالية سوف أعلمك طريقة التفاهم بإشارات مورس.. إنها تنفعك».

«كيف..؟!».

«إذا كنت - مثلاً مختبئاً بين مزارع الموز، فإن في مقدوري أن أرسل إليك بالضوء المنعكس من مرآة أخبار تحركات البوليس..».

فانصت إليها باهتمام ثم قال:

«ولكن ألا يحتمل أن يروك؟».

«يمكنني عندئذ أن ألق لهم أي مبرر».

«حسنًا يا ابتني.. وداعًا».

وتقدم خطوة خارج الباب ثم توقف واستدار قائلاً:

«حسنًا، إذا كنت لا تعرفين طريقة الصلاة.. هل.. تحبين أن أعلمك حيلة لطيفة؟».

«إنني أحب الحيل المسلية».

«إنها حيلة تؤدينها بأوراق اللعب. ألدك مجموعة الأوراق؟»
«لا».

فتنهذ، ثم أرسل ضحكة صبيانية أخرى وقال بأنفاس ممثلة
برائحة البيرة:

«حسنًا، لا فائدة.. سوف أصلي من أجلك».

«يخيل إليّ الآن أنك لا تشعر بالخوف».

«إن قليلًا من الخمر تصنع العجائب في نفسية الجبان.. نعم إنني
بقليل من الخمر أستطيع أن أواجه.. الشيطان نفسه!».

وتعثرت قدمه في عتبة الباب الخارجي.

وقالت الفتاة بصوتها الرقيق:

«أرجو أن توفق في الهرب من البوليس».

وسمعت زفرة خفيفة تنساب من طيات الظلام فأردفت قائلة:

«إنهم إذا قتلوك فلن أغفر لهم.. أبدًا».

ونم صوتها عن استعدادها التام لاحتمال عبء الانتقام إذا لزم
الأمر دون تردد أو تفكير..

كانت القرية مكونة من بضعة أكواخ من الطين والأغصان تتوسطها
ساحة خالية، وكان بين الأكواخ القليلة، كوخان خربان. وكانت بعض
الخنازير ترعى أوراق الشجر بالقرب من الساحة، بينما راحت امرأة
عجوز تنتقل بين الأكواخ حاملة شعلة من النار توقد بها بعض العشب

الجاف وسط كل كوخ؛ لكي يتصاعد منها الدخان فيطرد أفواج البعوض. وكانت نساء القرية يقمن في كوخين من أكواخها الستة، وتعيش الخنازير في كوخ ثالث.. أما الكوخ الرابع، حيث تخزن الذرة، فقد خصص لإقامة رجل عجوز وصبي ومجموعة من الفيران!

ووقف الرجل العجوز في الساحة الخالية يراقب المرأة وهي تدور بالشعلة المضرمة على الأكواخ، وكانت الشعلة تبدو في الظلام كأنها جزء من شعائر وثنية تقام في مثل هذه الساعة كل يوم- وإلى الأبد.. وكان الرجل أبيض الشعر واللحية، ملوح اليدين، نحيلًا ذابلًا كورقة شجرة سقطت منذ عام. وكان يبدو عليه سمات الرجل الذي يعيش على هامش الحياة، تمر به الأعوام دون أن تغير من مظهره شيئًا..

«لقد كان عجوزًا منذ أعوام مديدة مضت!».

وأقبل الرجل الغريب على الساحة منتعلا حذاءً من أحذية أهل المدن، أسود، مدبب الطرف، بالي النعلين، بحيث لم يبق منه غير الجزء الأعلى.. ومن ثم فهو- أي الرجل الغريب- يسير حافي القدمين، وإن كان منتعلاً بقايا حذاء..!

وكان يرتدي أيضًا قميصًا وسراويل ممزقة، ويحمل حافظة أوراق كأنه محصل الضرائب في موسم من المواسم، وكان يبدو عليه أنه- بدوره- قد بلغ أُرذل العمر، ولكن الزمن ترك على وجهه جراحه الغائرة، وكانت بقايا حذائه تنم عن ماضٍ يختلف أشد الاختلاف عن ماضي الرجل العجوز بالقرية، أما وجهه، فقد كانت تتصارع فوقه انفعالات الأمل والخوف من المستقبل..

وتوقفت المرأة ذات الشعلة المضيئة فجأة بين كوخين وراحت
تنظر إليه في ترقب.. وتقدم هو نحو الساحة بوجه مطرق إلى الأرض
وكتفين منهديلين، كأنما ضبط وهو يرتكب جريمة.. وسار رجل القرية
العجوز نحوه ليستقبله وليتناول يده ثم يرفعها إلى شفثيه ويقبلها..
وقال العجوز الغريب:

«هل تسمحوا لي بسرير معلق أبيت فيه الليلة؟»
«إذا أردت أيها الأب سريراً معلقاً، فعليك أن تلتمسه بالمدينة، أما
هنا، فليس لدينا غير الأرض نبيت عليها».
«حسنًا.. لا بأس.. إن أي مكان يصلح للرقاد.. ولكن.. هل
يمكن.. أن أجد لديكم قليلاً من.. الخمر؟»
«ليس لدينا أيها الأب غير القهوة».
«أو بعض الطعام؟»
«ولا طعام نملكه».
«حسنًا.. لا بأس».

وأقبل الصبي من الكوخ وراح يرقب العجوزين.. وكان جميع من
في القرية يرقبهما في تلك اللحظة وكأنما يشاهدون مباراة لمصارعة
الثيران.. بلغ الثور فيها درجة الإعياء ومن ثم فهم يترقبون الحركة
التالية.. ولا يعني هذا أنهم كانوا غلاظ القلوب، وإنما يعني أنهم كانوا
يشاهدون لأول مرة منظرًا مثيرًا يدعو للعجب، منظر رجل في حالة
أسوأ من الحال التي كانوا عليها..

وراح الرجل الغريب يطلع مجهداً نحو الكوخ، وعجوز القرية وراءه، وهناك داخل الكوخ، كان الظلام كثيفاً، وكان ضوء العشب المشتعل لا يصل إلى الركبتين، وكانت رائحة الذرة المخزونة تكاد تملأ جو المكان، والفيران تتحرك بين أوراق الذرة الجافة، وكان ثمة سرير مصنوع من الطين فوقه حصير من القش، وصندوقان فارغان على هيئة منضدة، وورقد الرجل الغريب على الحصير وهو يقول لعجوز القرية الذي كان قد أغلق الباب من الداخل:

«هل نحن في أمان هنا؟».

«نعم.. والصبي يتولى الحراسة في الخارج.. إنه يعرف...».

«هل كنتم تتوقعون حضوري..؟!».

«لا يا أبي.. ولكننا لم نرقساً أو راهباً منذ خمسة أعوام. ومع هذا فقد كان متوقعاً أن نرى أحدكم يزورنا يوماً من الأيام».

واستسلم الراهب لنوم غير مريح، وقبع العجوز على الأرض يضرم النار في العشب بأنفاسه، ونقر الباب ناقر، فاعتدل الراهب من فوره جالساً، وقال العجوز: حسناً..

«إن القهوة قد أعدت يا أبي».

وحملها إليه.. وكانت القهوة ساخنة مصنوعة من دقيق الذرة المحروق صبها في كوب من الصفيح.. ولكن الراهب لم يستطع أن يحتسيها لفرط شعوره بالنعب، ومن ثم ظل مستلقياً على جانبه في سكون تام، بينما راح فأر يرقبه من بين أعواد الذرة..

وقال العجوز وهو ينفخ في جذوة النار:

«كان رجال البوليس هنا أمس».

وتصاعد الدخان كثيفاً في جو الغرفة، وبدأ الراهب يسعل ومرق
الفأر كأنه ظل يد تحركت بسرعة واختفى بين الأعواد. وعاد الرجل
العجوز يقول:

«إن الصبي، يا أبي، لم يُعمد بعد.. لقد طلب آخر كاهن هنا
«ببببب» أجباً لتعميده.. ولم يكن معي غير بيضة واحدة.. أما الآن
فلمست أملك غير نصف بيضة واحدة.. أما الآن فلمست أملك غير نصف
البيضة أي خمسين ستافو».

فقال الراهب في ضجر:

«نعمه غداً..».

«هل ستقيم لنا قداساً في الغد يا أبي؟».

«نعم.. نعم».

«والاعترافات يا أبي - هل ستسمع اعترافاتنا؟».

«نعم.. ولكن دعني أنام أولاً».

ثم استدار واستلقى على ظهره وأغمض عينيه ليتقي الدخان..
وعاد العجوز يثرثر قائلاً:

«ولكننا يا أبي لا نملك ما لا نقدمه إليك.. إن الراهب الآخر بادر

جوزيه..»..

«حسنًا.. لا أريد منكم مالا.. يكفي أن تعطوني بعض الملابس».

«ولكننا لا نملك من الملابس إلا ما نرتديه».

«خذوا ملابسي بدلًا منها».

وغمغم الرجل العجوز بكلمات غامضة وهو ينظر إلى ملابس
الراهب السوداء البالية على ضوء جذوة النار المتقدة، وأخذ ينفخ النار
بأنفاسه لبضع دقائق ثم قال:

«إذا لم يكن بد يا أبي!».

وكان الراهب قد أخذ يغفو مرة ثانية، بينما أردف العجوز يقول:

«إن لدينا الكثير من الاعترافات بعد أن تجمعت في صدورنا
خمس سنوات».

واستوى الراهب جالسًا بسرعة وهو يقول:

«ما هذا؟!».

«يبدو أنك كنت تحلم يا أبي.. فإن الصبي كفى بأن يخبرنا إذا
رأى أحدًا من رجال البوليس.. لقد كنت أقصد فقط».

«ألا تدعني أنام خمس دقائق؟!».

ثم اضطجع لينام.. وعندئذ انبعث من أحد أكواخ النساء، صوت
يغني:

«ذهبت يومًا إلى حقلي، وهناك وجدت زهرة».

واستطرد العجوز في ثرثرته قائلاً في هدوء:

«سيكون من المؤلم أن يأتي رجال البوليس قبل أن تتاح لنا فرصة الاعتراف.. فإن الأوزار يا أبي قد تراكمت حتى أثقلت أرواحنا البائسة..».

وعندئذ نهض الراهب واعتمد بظهره على الجدار وقال في حلق شديد:

«حسنًا.. هلم ابدأ.. إني مستعد لسماع اعترافاتك».

وانطلقت الفيران هاربة بين أكوام الذرة بينما استطرد الراهب يقول:

«هلم اعترف!.. لا تضع الوقت.. متى كانت آخر مرة».

وركع العجوز بجانب النار، وانساب صوت المرأة المغنية عبر الساحة وهي تقول: «ذهبت يومًا إلى حقلي فوجدت الزهرة ذابلة».

وقال العجوز وهو ينفخ في النار بأنفاسه:

«خمسة أعوام مضت.. إن الإنسان لا يستطيع أن يتذكر يا أبي».

«ألم تقترف شيئًا ينافي الفضيلة؟».

وهز العجوز رأسه، وتراجع الراهب إلى الجدار يعتمد بظهره عليه وقد طوى ساقيه تحته، واستمرت الفيران في سعيها بين أكوام الذرة وقد ألفت الأصوات، ومضى العجوز يلتقط ذنوبه من خزانة ذكرياته وما فتئ ينفخ في جذوة النار. وكلما خذلته الذاكرة، راح الراهب يحثه على الاعتراف، فيقول: «تذكر!.. تذكر.. لا تخفي شيئًا حتى يطهر قلبك..؟».

وراح الرجل في شبه سبات.. وجمد الاعتراف على لسانه وبين شفتيه وعجز عن إتمام اعترافه.. وأخيرًا عاودته اليقظة فقال:
«أستطيع أن أستدعي النساء للاعتراف؟. خمسة أعوام».
«.. نعم، ادعهن للحضور.. إنني خادمكم».

ثم وضع الراهب يديه على عينيه وراح يبكي.. وفتح العجوز الباب.. وكان الظلام في الخارج غير كثيف، إذ كانت النجوم المتناثرة في قبة السماء تخفف من شدته بأضوائها الباهتة.. وسار الرجل نحو كوخ النسوة، وطرق بابه. فسمع صوتًا يدعوهُ إلى الدخول فقال:

«يجب أن تحضرن للاعتراف بين يدي الكاهن..» فقلن له إنهن متعبات، ولا بأس من الاعتراف في الصباح. فقال غاضبًا: «وكيف ذلك؟ إن امتناعكن عن الاعتراف الآن يعتبر إهانة للراهب..! لقد جاء إلينا ليظهر من الذنوب قلوبنا، إنه راهب مقدس، وقد تركته الآن في كوشي يبكي من فرط خطايانا..».

ثم راح يدفعهن، الواحدة بعد الأخرى، إلى الخارج حيث أخذن في السير عبر الساحة نحو كوخ الراهب.. أما العجوز، فقد مضى في طريقه نحو ضفة النهر ليتولى حراسة المخاضة بدلًا من الصبي.



الفصل الرابع

المتفرجون

كان قد مضى على المستر تنش سنوات عديدة دون أن يرسل إلى أسرته - في الوطن - خطابًا. وها هو ذا قد جلس أخيرًا إلى المنضدة واضعًا سن ريشة الكتابة بين أسنانه حيث استبدت به رغبة غريبة في أن يرسل خطابًا على آخر عنوان احتفظ به. ترى مَنْ مِنْ أفراد أسرته لم يزل باقياً على قيد الحياة؟ إنه يحاول أن يبدأ الكتابة، وإن هذه المحاولة لتشبه رغبة الإنسان في أن يبدأ الحديث في حفلة لا يعرفه فيها أحد. لقد بدأ الكتابة على المظروف «مسز هنري تنش، طرف مسز مارزديل رقم ٣ الشارع الكبير بوستكليف». إنه عنوان منزل حماته.. هذه المرأة المستبدة المتطفلة التي كانت السبب في إفلاس عيادته لطب الأسنان بمدينة سوثند. واختتم الكتابة على المظروف بهذه العبارة «يسلم ليد مسز هنري تنش» ولكن.. هل ستسلم حماته الخطاب إلى زوجته؟ إنها

لن تفعل إذا عرفت أنه المرسل. ولكن من المرجح أنها لن تتعرف على خطه بعد هذه السنوات.

وعاد يمتص سن الريشة الملوثة بالمداد ويفكر فيما سيكتبه في الخطاب. كيف يبدأ، وماذا يقول: كان في الإمكان أن يكتب بسهولة لو أن هناك سببًا خاصًا يرر إرسال الخطاب غير مجرد الرغبة في أن يسجل - لأي شخص - إنه لا يزال على قيد الحياة، ولسوف يكون الموقف بالغ الحرب إذا وصلها الخطاب وهي متزوجة من شخص آخر، ولكنها في حالة كهذه لن تتردد في تمزيق الخطاب قبل أن يطلع عليه زوجها الجديد.

وكتب يقول بخط واضح، وبأحرف كبيرة، وهو ينصت إلى أزيز النار في الفرن:

«عزيزتي سيلفيا».

وتوقف عن الكتابة، وراح ينصت مرة أخرى إلى أزيز النار في الفرن حيث كان يصهر قطعة من الذهب المخلوط من عيار ١٤ ليصنع منها ضرسًا صناعيًا.

إنه لا يدري ماذا يقول.. فإن حياته في هذه المنطقة النائية تكاد تكون خالية من الأحداث.. فهو يعيش هذه العيشة المتزنة، المحترمة، الرتيبة التي طالما كانت حماته تتمنى أن يعيشها.

وأرسل نظرة على الفرن.. إن الذهب يوشك أن يبلغ درجة الانصهار مع الخليط، ومن ثم وضع فوقه ملء ملعقة من الرماد ليحمي

الخليط من الهواء، ثم تناول الريشة مرة أخرى وجلس يفكر. إنه لا يستطيع أن يتذكر زوجته بوضوح، وإنما هو يتذكر فقط القبعات التي كانت تشتريها. لشد ما ستكون دهشتها حين تتلقى خطابه بعد كل هذه الغيبة الطويلة. فإنهما لم يتبادلا غير رسالتين منذ وفاة ابنهما الثاني.. ثم راحت الأعوام تنصرم بسرعة في حياته دون أن تغير شيئاً من عاداته وطباعه.. لقد كان ينتوي أن يعود إلى وطنه منذ سنوات ست، ولكن قيمة البيزة هبطت إلى الحضيض مع الثورة، فاضطر للهجرة إلى هذه المنطقة الجنوبية.. واستطاع مرة أخرى أن يدخر مبلغاً آخر من المال، ولكن قيمة العملة عادت إلى الهبوط مرة ثانية منذ شهر مما يدل على وقوع أحداث في إحدى الولايات المجاورة، ولم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً إلا أن ينتظر.. وأعاد سن الريشة إلى أسنانه، وراحت أفكاره تذوب بسبب حرارة الجو في الغرفة. ثم لماذا يجهد نفسه بالكتابة؟! وسمع طرقاً على الباب الخارجي، فنهض تاركاً الخطاب على المنضدة وفوقه عبارة «عزيزتي سيلفيا» مكتوبة بخط واضح، وبأحرف كبيرة مستديرة..

ودوى في الجو من ناحية الشاطئ رنين الناقوس في إحدى السفن.. إنها السفينة جنرال أبريجون عادت من ميناء فيراكروز. إن بعض الذكريات تتحرك في ذهنه تمامًا كما يتحرك شخص حي متألم بين المقاعد في الغرفة الأمامية «كانت فترة لطيفة تلك التي أمضيتها معه في ذلك الأصيل.. ترى ماذا حدث له..؟! هل مات؟ أم استطاع أن يواصل الهرب؟!» وأيًا كان الأمر فإن المستر تنش متعود على رؤية

الألم.. فتلك هي صناعته.. وليس هناك ما هو أقسى من ألم الأسنان في بعض الأحيان. ولم يذهب لفتح الباب الخارجي فوراً، وإنما انتظر في حذر حتى سمع الطرق يتكرر مصحوباً بصوت رجل يقول له: «افتح.. فأني صديق...».

ومضى المستر تنش وفتح الباب ليدخل أحد مرضاه..

وعبر بادر جوزيه - الراهب الذي تزوج - البوابة الكبيرة، العتيقة، المكتوب عليها بأحرف سوداء كبيرة كلمة «سكون»، ثم دخل إلى ساحة المدافن التي كان الأهالي يطلقون عليها من قبل اسم «حديقة الله»، أما الآن، فهي أقرب ما تكون إلى المكان الذي لا يهتم بأمره أحد.. فأحجار المقابر الضخمة تعلو فوق أرض الساحة بدون حد معين، وكيفما اتفق.. وقد ترى هنا أو هناك تمثال ملاك مكسور الأجنحة، أو أزهاراً صناعية جافة باهتة فوق أحد الأرفف، وكأنما المكان بيت هجره سكانه دون أن ينظفوه.. ولكن الداخل مع هذا، يشعر فيه بإحساس من الألفة، فهو يستطيع أن ينتقل فيه أنى يشاء، وأن يرى كل شيء؛ لأن الحياة فيه قد انحسرت تماماً..

وسار جوزيه في بطاء - بسبب بدانته - بين المقابر.. هنا.. فقط.. يستطيع أن ينفرد بنفسه.. فليس ثمة أطفال يسخرون منه، وهو هنا يستطيع أن يوقظ في أعماق نفسه شعوراً بالحنين البسيط الذي هو أفضل - على كل حال - من عدم الشعور بأي شيء. لقد أشرف بنفسه على دفن بعض الناس هنا.. وأن عينيه الصغيرتين الحمرأوين لتدوران

في أنحاء المكان، هنا وهناك، حتى إذا وصل إلى قبر لوبيز- التاجر الكبير الذي كان يمتلك منذ خمسين عامًا الفندق الوحيد بالعاصمة- وجد فجأة أنه ليس الشخص الوحيد الموجود بساحة المدافن، فقد رأى قبرًا جديدًا محفورًا بجانب سور المدافن، واثنين من العمال منهمكين في الحفر، وامرأة واقفة بجانب رجل عجوز، وعند أقدامهما تابوت طفل، ولم تستغرق عملية حفر القبر غير فترة وجيزة، إذ كانت الأرض رخوة مشبعة بالرطوبة؟ ولما اقترب بادر جوزيه من المكان، نظر الجميع إليه وكأنه دخیل عليهم؟ ولم يكن ثمة إحساس بالحزن في جو ذلك اليوم الساطع بحرارة الشمس، وكان ثمة عقاب جوي جاثم على سقف بيت خارج المدافن، وفجأة هتف أحدهم قائلاً: «أبي!!».

ورفع جوزيه يده كأنما يريد أن يوحي إليهم أنه غير موجود.. أو أنه ذهب إلى بعيد واختفى عن مرمى البصر..

وقال الرجل العجوز الواقف بجانب المرأة:

«بادر جوزيه!!».

وأخذ الجميع ينظرون إليه في لهفة.. لقد كانوا قبل وصوله مستسلمين للأمر الواقع، أما الآن، فقد ثارت في نفوسهم مشاعر الأمل واللهفة.. ولكن جوزيه انحنى ومضى ليروغ عنهم بعيدًا، وعاد الرجل العجوز يهيب به:

«بادر جوزيه: ألا تصلي على الطفلة؟».

وأخذ الجميع يتسممون.. وبتربقون.. لقد تعودوا أن يروا الناس

يموتون كل يوم، ولكن أملًا من السعادة الخفية قد شاع في نفوسهم..
أن في مقدورهم - على الأقل - أن يفخروا بأن واحدًا من أفراد الأسرة
قد ووري التراب بعد أن أقيمت على جثمانه صلاة دينية رسمية..

وقال بادر جوزيه:

«هذا مستحيل!!».

وقالت المرأة في رجاء ولهفة:

«إن المتوفاة طفلة لم تتجاوز الخامسة من عمرها.. وكان أمس
ذكرى ميلادها».

وعاد جوزيه يقول:

«إنني آسف».

وأزاح الرجل العجوز التابوت بقدمه ليتسنى له الاقتراب من بادر
جوزيه، وكان التابوت صغيرًا، خفيفًا، ولا يحتوي إلا على جثمان
الطفلة الصغيرة التي ماتت بعد أن ضمّر جسمها حتى أصبحت كومة
من العظام. وقال العجوز:

«إننا لا نطمع في مراسيم كاملة.. مجرد صلاة قصيرة.. دعاء..
إنها طفلة بريئة».

وقال جوزيه في إصرار:

«إن هذا مخالف للقانون».

وقالت الأم:

«إن اسمها أنيتا.. وقد كنت أعاني من المرض عندما وضعتها».
وكأنما كانت تريد بهذه العبارة الأخيرة أن تعتذر عن ضعف الطفلة
الذي أدى إلى وفاتها ومن ثم إلى هذا الموقف كله..
«ولكن القانون!!».

ووضع الرجل العجوز أصبعه على أنفه قائلاً:
«يمكنك أن تثق فينا.. إن الأمر لن يعدو صلاة قصيرة.. وأنا
جدّها.. وهذه أمها.. وهذا أبوها.. وذلك عمها.. ليس بيننا غريب كما
ترى.. ومن ثم يمكنك أن تضع كل ثقتك فينا».
وكانت تلك هي المشكلة.. أنه لا يستطيع أن يثق في أحدٍ أبداً كان.
فليس من شك في أنهم، أو أحدهم على الأقل، سوف يفخر بما حدث
بمجرد أن يكر راجعاً إلى البيت. وكان في خلال هذا كله يتراجع بظهره
وهو يحرك أصابعه البدينة ويهز رأسه بالرفض، حتى اصطدم بقبر
لوبيز.. إنه يشعر بالخوف، ولكنه في الوقت نفسه كان يحس بالفخر
يملاً عليه دنياه لأنه يقابل مرة أخرى - باحترام - كقسيس، ومن ثم قال:
«آه يا أولادي.. لو كنت أستطيع!».

وفجأة شاع في جو المدفن إحساس مفاجئ بالألم الروحي.. لقد
اعتادوا فقد أولادهم بالموت، ولكنهم لم يعتادوا مواراتهم الثرى دون
صلاة أو دعاء...

وشرعت المرأة تبكي، بغير دموع، وكأنما دموعها نبرات صوت
مكتوم لا يجد الوسيلة للانطلاق، وسقط العجوز على ركبتيه، ورفع

ذراعيه هاتفاً:

«بادر جوزيه.. ليس بيننا من...».

وبدا الرجل كأنما يتوقع حدوث معجزة، وشعر جوزيه برغبة عميقة تدفعه لأن يخاطر ويقوم بالصلاة على القبر؛ لأن إحساساً عميقاً كان يغريه بأداء الواجب الديني في تلك اللحظة.. ولكن الخوف يرتد إليه وينتشر في جسمه كالمخدر.. لأنه يرى الأمان والاحتقار ينتظرانه خارج المدافن، إنه يريد أن يلوذ بهما- نعم، بالأمان والاحتقار.. وأنه، من ثم، يركع على ركبتيه ويبتهل إلى هؤلاء الناس قائلاً:

«أرجوكم.. أرجوكم أن تدعوني وشأني، إنني لا أصلح لشيء كما ترون، إنني إنسان تافه.. جبان».

وواجه الرجلان العجوزان أحدهما الآخر، وهما راكعان بين القبور، وكان التابوت الصغير ملقى بجانبهما كأنه علة.. شيء سخي في نظر جوزيه.. وشعر في تلك اللحظة كأن حياته كلها منشورة أمامه.. حياته التي طالما حللها وسبر غورها وعجم كل عود فيها حتى عرف حقيقة نفسه.. عرف أنه مجرد مخلوق بدين قبيح عجوز محتقر.. ليخيل إليه أن جميع ملائكة الرحمة في حياته قد تخلت عنه، تاركة وراءها جموع الأطفال يضحكون منه، ويسخرون كلما وقعت أنظارهم عليه. ولقد عرف أخيراً، الآن، إنه في قبضة أكبر خطيئة لا تغتفر- اليأس...

وشرعت الأم تقرأ في الكتاب الديني لابنها الغلام وابنتيها
الطفلتين:

«وجاء اليوم المبارك آخر الأمر بعد أن أتم «جوان» المرحلة
التمهيدية للرهبنة.. ولشد ما كانت سعادة أمه وأخواته بذلك اليوم..
حقًا كانت سعادتهن مشوبة ببعض الحزن؛ لأن للنفس الإنسانية
ضعفها وغرائزها.. ومن ثم لم يكن مقدورهن إلا أن تبكي قلوبهن
بعض الشيء لفراق الابن الصغير والأخ الأكبر. ولكن.. هل كن
يعلمن أنهن قد ظفرن في ذلك اليوم المبارك بقديس جديد يصلي من
أجلهن في السماء؟!».

وقالت الابنة الصغرى وهي جالسه على الفراش:

«أليس لدينا قديس يا أماه؟».

«نعم.. طبعًا».

«إذن لماذا يريد الناس مزيدًا من القديسين؟».

ولم تجب الأم، وإنما استمرت في القراءة قائلة:

«وفي اليوم التالي اجتمعت الأسرة كلها لتلقى القداس من يدي
الابن والأخ. وأخيرًا راحوا يودعونه وهم لا يدرون أنه الوداع الأخير
لجندي من جنود المسيح، ثم عادوا إلى بيوتهم في مدينة موريلوس.
وكانت سحب الحالة السياسية تخيم على جو البلاد، وكان الرئيس
كاليز يناقش القوانين الجديدة لمحاربة العقائد والأديان، وهو مترجع
في قصره بمدينة شابلتوبيك.. ولم يكن ثمة شك في أن الشيطان

وأعوانه كانوا يستعدون لغزو بلادنا العزيزة مسلحين بهذه القوانين». و تحرك الغلام - ابن السيدة القارئة، بجانب الجدار ثم سأل فجأة: «هل اقتربنا من مشهد إطلاق الرصاص على القديس جوان؟». ولم تجب الأم عليه، وإنما استمرت في القراءة بحماس شديد: «وكان جوان - الذي لم يكن معروفًا إلا للمعترفين له وبفضله - يعد نفسه لمواجهة المحنة التي تنتظره في صبر وجلد. وكان زملاؤه لا يدرون بما يدور في نفسه من مشاعر، إذ كان دائمًا يبدو أمامهم مرحًا، سعيدًا، راضيًا، وفي يوم الاحتفال بذكرى مؤسس المذهب الكاثوليكي، قام...».

فقاطع الغلام أمه قائلاً:

«نعم.. نعم.. إني أعرف.. قام بتمثيل المسرحية». والتمعت في عيون الفتاتين أبلغ أمارات التعجب.. وتوقفت الأم عن القراءة ثم قالت وهي تضع أصبعها على الكتاب: «ولماذا لا يا لويس؟».

وكررت هذا السؤال عندما راح الغلام ينظر إليها في تجهم وعبوس، وأخيرًا استأنفت القراءة قائلة:

«لقد كان هو الذي حصل على تصريح بتمثيل مسرحية من فصل واحد تدور حول....».

ومرة أخرى قاطع الغلام أمه قائلاً:

«إنني أعرف.. إنها مسرحية سراديب الموت».

وزمت الأم شفيتها واستمرت في القراءة:

«تدور حول تعذيب وإعدام المسيحيين الأوائل.. ولعله كان يذكر تلك المناسبة التي مثل فيها دور نيرون- وهو غلام- أمام الأسقف العجوز الطيب. أما في هذه المرة، فقد أصر على القيام بدور بائع السمك الروماني الساخر..».

وهتف الغلام في تجهم وغضب:

«إنني لا أصدق كلمة واحدة من هذا...».

«هل جننت؟ كيف تجرؤ على هذا القول؟!».

«لا يوجد إنسان بمثل هذه البلاهة».

وظلت الفتاتان جالستين في صمت، ولكن نظراتهما كانت تنم عن الدهشة والتقوى.

وقالت الأم لابنها:

«اذهب إلى أبيك».

«نعم سأذهب حتى لا أسمع مزيدًا من.. من..».

«أخبر أباك بما تقوله الآن».

«مزيدًا.. من.. من..».

«اخرج من الغرفة».

وانطلق الغلام، وصفق الباب وراءه، وكان أبوه واقفًا في «الصالة»

ينظر إلى الطريق من وراء النافذة ذات القضبان الحديدية. وكانت الخنافس قد تساقطت بعد اصطدامها بالمصباح المضاء، وراحت تزحف على الأرضية الحجرية بأجنحة كسيرة.

وقال الغلام لأبيه:

«طلبت أُمِّي أن أقول لك إنني قلت لها إنني لا أصدق ما ورد في الكتاب الذي تقرأه علينا».

«أي كتاب؟».

«الكتاب الديني».

«آه...».

وكان الطريق خاليًا من الناس، ومن الأحداث.. فالساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف مساءً، ومصابيح الشارع قد أُطفئت.

وعاد الوالد يقول:

«يجب أن تعرف معنى التغاضي يا بني.. فأنت تعرف أننا نجتاز محنة دينية رهيبة، وهذا الكتاب، بالنسبة لنا، كأنه قطعة من ماضينا».

«يخيل إليّ أن كل ما فيه سخيف».

«إنك لا تذكر، ولا شك، العهد الأول.. عهد الحرية الدينية.. وقد كنت أنا في ذلك العهد كاثوليكيًا رديئًا، ولكن ذلك العهد من الحرية الدينية، كان معناه إقامة الشعائر في الكنائس علنًا.. وكنا ننعم بالأضواء، والموسيقى، والحفلات، والأماكن الرطبية التي نفرّ إليها من حرارة الشمس. وكانت أُمك تجد دائمًا ما يشغلها.. ولو أن الحاكم

عوضنا عن الحرمان من الكنائس بارتياح دور المسارح، لما شعرنا
هكذا بأننا منبوذون».

«ولكن قصة جوان هذه.. تبدو.. ساذجة.. بلهاء».

«لقد مات شهيدًا.. أليس كذلك!».

«إنه ليس الوحيد الذي مات هكذا.. فهناك فيللا.. وأبريجون..
وماديرو...».

«من أخبرك عنهم؟».

«إننا جميعًا نمثل أدوارهم في المسرحيات المدرسية.. وأمس
فقط كنت أمثل دور ماديرو.. وقد قتلوني رميًا بالرصاص في الساحة
تطبيقًا للقانون الجديد».

ودوى في سكون الليل الجاثم صوت طبلية تفرع، وارتفعت من
مياه النهر تلك الرائحة الحادة لثملًا جو الغرفة.. وكان سكان تلك
المناطق يألفون هذه الرائحة كما يألف أهل المدن دخان المصانع.
وعاد الغلام يقول:

«وأجرينا القرعة بيننا، فوقع دور ماديرو عليّ، ودور بدرو على
زميلي هورنا. واستطاع بدرو- في المسرحية طبعًا- أن يفر إلى
فيراكروز من طريق النهر، ثم البحر، وانطلق يطارده زميلنا مانويل
الذي قام بدور كراتزا».

وأسقط الوالد خنفسة كانت فوق قميصه، وشرع يمد البصر إلى
الشارع الذي كان يمر فيه تلك اللحظة جماعة من الجنود. وأخيرًا قال:

«أعتقد أن أملك غضبي منك يا لويس!».

«وأنت يا أبي.. أغاضب أيضًا؟».

«وما فائدة الغضب؟ إن لك بعض العذر.. فقد تخلى العالم عنا».

وغابت جماعة الجنود في الطريق إلى المعسكر، هناك عند قمة التل، بالقرب من الكاتدرائية المهجورة. وكان الجنود يسرون بخطوات غير منتظمة رغم قرع الطبول المصاحبة لهم. وكان سوء التغذية واضحًا على أجسامهم، كما أنه لم يكن بينهم من خاض حربًا حقيقية.

وأطل الغلام برأسه من بين قضبان النافذة، وراح يشيع الجنود بنظرات كلها الحماس.. والأمل..!

وأخذت مسز فيلوز تروح وتجيء بمقعدها الهزاز وهي تستذكر مع ابنتها كورال درس التاريخ، فتقول:

«وهكذا قرر اللورد بالمرستون أنه إذا لم تقدم الحكومة اليونانية اعتذارها....».

وأمسكت فجأة عن القراءة، وقالت لابنتها:

«كفى هذا اليوم يا عزيزتي.. فإني أشعر بصداع شديد».

«حسنًا يا أماه.. وأنا أشعر أيضًا بصداع.. ولكن بسيط».

«إذن فسوف يزول بسرعة والحمد لله.. والآن أرجوك أن تعيدي

هذه الكتب إلى أماكنها».

وكانت هذه الكتب تصل إلى الأم وابنتها من معهد مراسلة يدعى «معهد الدراسات بالمراسلة بمدينة باترنوسترو». وكان برنامج الدراسة الثقافية يبدأ بكتاب «قراءة بدون دموع» وينتهي بدراسة قوانين الإصلاح وعهد بالمرستون وأشعار فيكتور هوجو، وفي كل ستة أشهر كانت تصل إليهما ورقة أسئلة، فتسجل مسز فيلوز عليها الإجابات وتعيدها إلى المعهد حيث تصحح وتحفظ في السجل الخاص بها. وقد حدث ذات مرة أن أهملت في الإجابة على ورقة الاسئلة بسبب ثورة قامت في مدينة زاباتا، فأرسل المعهد إليها يستفسر منها عن سبب التأخير.

ولكن المشكلة كانت في أنها وابنتها تسبقان البرنامج الثقافي بمراحل عديدة، وكانت الأسئلة التي تأتي إليهما دوريًا بانتظام تدور حول موضوعات درست منذ شهور عديدة.. ومن ثم كانت كل منهما تضطر إلى إعادة استذكار هذه الدروس. وبين فترة وأخرى كان المعهد يرسل لكل منهما شهادة- لتوضع في إطار، تعلن أن مس كورال فيلوز قد انتقلت بدرجة الامتياز من المرحلة الثانية إلى المرحلة الأولى، وفي نهاية الشهادة توقيع رسمي- بخاتم من المطاط- «هنري بيكل- بكالوريوس آداب ومدير معهد الدراسات بالمراسلة.. إلخ».

وفي أحيان أخرى كانت إحداهما تتلقى رسالة مكتوبة على الكتاب، وممهوره بنفس التوقيع الرسمي، وتقول: «تلميذتنا العزيزة: نعتقد أنه كان في مقدورك أن تزيد عنايتك بالإجابة عن أسئلة هذه

الفترة».

وكانت الرسائل كلها تصل متأخرة عن مواعدها ستة أشهر..

وعادت الأم تقول لابنتها:

«هل تذهبين يا عزيزتي وتطلبين من الطاهية أن تعد طعام الغداء.. لك أنت فقط.. أما أنا، فلن أستطيع أن أأكل شيئاً، ووالدك متغيب في المزرعة..».

ووضعت الفتاة القبعة على رأسها، وخرجت إلى شمس الضحى الحامية في طريقها إلى الطاهية.. وبعد أن أصدرت إليها تعليماتها، مضت إلى مخزن البضائع لتفحص جلود التماسيح الأمريكية المدبوغة المعلقة على الجدران، ثم توجهت إلى المربط لتتأكد من أن البغال في حالة طيبة؟ لقد كانت تقوم بتبعاتها في عناية واهتمام، ولم يكن هناك ما يمكن أن تغفل عنه..

وطار أحد عقبان الجو حين اقتربت منه..

وعادت إلى المنزل حيث قالت لأُمها:

«إن اليوم هو الخميس».

«أحقاً يا عزيزتي؟».

«ألم يرسل أبي محصول الموز إلى رصيف الميناء؟».

«إنني بالتأكيد لا أدري يا عزيزتي».

وعادت كورال في نشاط إلى الفناء، واستدعت - برنين الجرس -

إحدى الخادومات الهنديات حيث علمت منها أن محصول الموز لا يزال في المخزن، وأن الأوامر لم تصدر لإرساله إلى رصيف الميناء. وعندئذ قالت بلهجة أمرة:

«إذن يجب أن نرسل بالمحصول في سرعة.. إن السفينة سترسو في أي وقت».

ثم أحضرت دفتر حسابات والدها، وراحت تحصي سباطات الموز وهي تحمل من المخزن على أكتاف بعض العمال، وكانت كل سباطة تحتوي على مائة ثمرة أو أكثر قليلاً، ثمناها بضعة قروش، وقد استغرقت عملية تفريغ المخزن أكثر من ساعتين! ولم يكن ثمة مندوحة من هذه العملية، فقد حدث أن نسي والدها القيام بها في مرة سابقة وكانت النتيجة أن تلف كل المحصول الموجود بالمخزن.

وبعد نصف ساعة من بدء العملية، بدأت تشعر بالتعب والإرهاق رغم أنها لم تتعود من قبل أن تشعر بالتعب هكذا في أول النهار.. واعتمدت بظهرها على الجدار الملتهب بحرارة الشمس، ومع هذا لم يخامرها أي إحساس بالاستياء والحنق لاضطرارها إلى احتمال كل هذه الأعباء، فهي لم تعرف معنى «اللعب» طول حياتها، وإنما كانت حياتها جدًّا خالصةً ليس فيه من مرح الطفولة كثير أو قليل. وقد حدث أن رأت في أحد كتب معهد المراسلات صورة طاقم أدوات الشاي مما يُهدى للأطفال مع «العرائس»، ولم تفهم كورال معنى هذا الطاقم لأنها لم تر في حياتها الواقعية مثله..

وراحت تحصي سباطات الموز وهي تحمل من المخزن:

أربعمائة وست وخمسين.. أربعمائة وسبع وخمسين.. وأخذ العرق يتفصد منها بغزارة، وفجأة أحست بألم شديد في معدتها، فأخطأت العد، وحاولت أن تستدرك الخطأ، وشعرت لأول مرة بأن عبء الحياة يجثم على كاهلها كحمل ثقيل ظلت تنوء به أعوامًا مديدة..

واستمرت في عملية الإحصاء: خمسمائة وخمس وعشرين.. عجبًا.. إن الألم الذي تشعر به هذه المرة من لون جديد.. إنه ليس ناتجًا كالمعتاد من وجود الديدان في الأمعاء، ولكنه لم يسبب لها شعورًا بالقلق أو الجزع، وكأنما كان جسمها يتوقعه حين بلغ هذه المرحلة من النمو، كما يتوقع العقل - حين تنمو - انتهاء فترة الحنان والتدليل. ولا تستطيع أن تقول إن هذا الألم الجديد المفاجئ قد أعلن نهاية مرحلة الطفولة.. لا.. فإن الطفولة مرحلة لم تشعر كورال بها يومًا..

وقالت أخيرًا:

«أهذه آخر السباطات؟!».

«نعم ياسنيوريتا».

«أوافق أنت؟!».

«نعم ياسنيوريتا».

ولكن كان عليها أن تتأكد بنفسها.. ولم يحدث من قبل أن شعرت بمثل هذا الضيق وهي تؤدي عملًا ما.. ولم يكن ثمة مفر من أدائه راضية أو كارهة، فهي إذا لم تفعل فلن يؤديه أحد غيرها.. ولكن.. لشد ما تهفو اليوم إلى الراحة.. إلى النوم، ماذا عليها لو أنها ذهبت

لتنام؟ إن المحصول إذا لم يحمل إلى رصيف الميناء، فلن تقع التبعة عليها، وإنما على والدها. ترى ماذا ألم بها. أهى الحمى؟! إنها تشعر بقدميها باردتين فوق الأرض الملهبة بحرارة الشمس، آه.. حسناً.. هكذا فكرت.. ثم مضت إلى المخزن وهي تتذرع الصبر، وعثرت على المشعل الكهربائي فأضاءته، وتأكدت أن المخزن أصبح خالياً تماماً من المحصول، وتقدمت نحو الجدار الخلفي وهي تحمل المشعل في يدها، وتدحرجت زجاجة فارغة عند قدمها، فأرسلت عليها ضوء المشعل، فإذا هي زجاجة بيرة، وأضاء المشعل في الوقت نفسه الجزء الأسفل من الجدار الخلفي فرأت مجموعة من الصلبان مرسومة بقطعة طباشير.. آه.. لاشك أنه كان يسلي نفسه ويتغلب على مشاعر الخوف المسيطرة عليه برسم الصلبان على الجدار.. وقد كانت هذه الصلبان هي كل ما استطاع أن يشغل بها تفكيره في لحظات المحنة..

ووقفت الصبية تنظر إليها وهي تشعر بآلام المرحلة الجديدة من مراحل حياتها، وفجأة خيل إليها أنها تدخل في هذا الصباح عالمًا جديدًا.. رهيبًا.. وكأنما شاء القدر أن تظل أحداث هذا اليوم من الذكريات المحفورة في ذهنها..

كان مدير البوليس يلعب البلياردو بالنادي عندما عثر الضابط عليه.. وكان- أي المدير، يربط حول وجهه منديلًا كبيرًا ليخفف- في زعمه- شيئًا من آلام أسنانه، وكان يعد نفسه- حين أقبل الضابط إليه- ليستأنف اللعب بعد فترة استراحة، وكان في الجدار الذي وراءه

رف عليه زجاجات مياه غازية، وأخرى تحتوي على سائل أصفر يدعى «سيدرال» ومكتوب عليها «خالية تمامًا من المواد الكحولية». ووقف الضابط في باب الغرفة مقطب الوجه إذ كان يرى أن موقف مدير البوليس من الأحداث الجارية غير سليم.. وهو لا يريد أن يبدو في بلاده أي مظهر من المظاهر التي تجعل أحد الأجانب يسخر أو ينتقد.

وقال أخيرًا للمدير:

«هل يمكن أن أتحدث إليك؟».

وجفل المدير فجأة كأنما اشتدت آلام أسنانه، ثم أسرع نحو الباب في نشاط غير عادي، ونظر الضابط إلى لوحة تسجيل الأرقام فرأى أن المدير هو الخاسر في المباراة، وقال المدير له:

«لتتحدث في الخارج».

وسار الاثنان، جنبًا إلى جنب في الشارع.. المدير البدين، والضابط النحيل، وكان اليوم من أيام الأحاد، والمحال مغلقة وكان هذا هو التقليد الوحيد الباقي من العهد السابق، ولكن لم يكن ثمة رنين لأجراس الكنائس في أي مكان..

وقال الضابط:

«هل قابلت الحاكم؟».

«نعم.. وفي مقدورك الآن أن تفعل ما تريد».

«هل ترك لي حرية العمل؟!».

«أجل.. ولكن بشروط».

«وما هي؟».

«سوف تكون مسئولاً أمامه إذا.. إذا لم تقبض على الراهب المختفي قبل موسم المطر».

فقال الضابط مفكرًا:

«حسنًا.. ولكن أرجو ألا أكون مسئولاً عن أية إجراءات أتبعها..».

«لقد طلبت حرية التصرف.. وقد منحها الحاكم لك».

«وإني لمسرور».

وشعر الضابط في تلك اللحظة أن كل العالم الذي يهمله ويعنيه قد أصبح عند قدميه. واجتاز الاثنان المبنى الجديد الخاص بنقابات العمال والزراعيين، وكان يمكن للسائر أمام المبنى أن يرى في قاعته الأمامية لوحة ضخمة ملونة تصور أحد رجال الدين وهو يتحسس بيده إحدى المعترفات أمامه.. وأخرى تصور قسيسًا فاقد الوعي بعد أن أسرف في شرب الخمر في حفلة «عشاء رباني» وكان الواضح أن هذه الصور وضعت للدعاية ضد الدين ورجاله.

وقد أشار الضابط إلى هذه الصور وهو يمر أمام المبنى قائلاً:

«لن نحتاج إلى مثل هذه الدعايات بعد فترة وجيزة».

«لماذا...! إنها مضحكة».

وكان الضابط ينظر إلى هذه الصورة المزرية بعين الرجل الأجنبي، فتبدو له سخيفة لا معنى لها، ومن ثم قال:

«لسوف ينسى الناس في يوم ما أن هناك شيئاً اسمه الكنيسة».

ولم يجب المدير.. وشعر الضابط أنه لا يقيم وزناً لآرائه ومعتقداته
فقال له في لهجة حادة:

«والآن.. ما هي الأوامر؟».

وصمت المدير برهة كان خلالها يتأمل الضابط في فضول بعينين
كلهما الدهاء والمكر، وأخيراً قال:

«أنت تعرف أنني أثق فيك تماماً.. ويمكنك أن تتصرف كما تريد».

«هل تعترف بهذا كتابة؟».

«أوه.. لا.. ليس هذا ضرورياً.. إن كلاً منا يثق في الآخر».

وأخذ الاثنان يتجادلان في هذه النقطة أثناء الطريق، وأخيراً قال
الضابط:

«هل منحك الحاكم حرية التصرف بأمر كتابي؟».

«لا.. لقد قال إننا جميعاً نعرف بعضنا بعضاً».

واضطرب الضابط أخيراً إلى الإذعان؛ لأن الأمر كان يهيمه شخصياً،
كما أنه لم يكن شديد الاهتمام بمستقبله الخاص. وقد قال:

«سوف آخذ من كل قرية رجلاً أو أكثر ليكونوا رهائن بين يدي».

«في هذه الحالة سوف يتعد الراهب عن القرى».

«أيخطر ببالك أن أهل القرى لا يعرفون أين هو..؟! إنه مضطر لأن

يتصل بهم بين الحين والآخر، وإلا فلا جدوى من التجائه إلى الهرب
والتخفي».

«حسنًا.. افعل ما يحلو لك».

«ولسوف أقتل بعض الرهائن رميًا بالرصاص إذا لزم الأمر».

فقال المدير في لهجة مرح مصطنعة:

«إن قليلًا من الدم المراق لا يضر أحدًا.. أين ستبدأ؟!».

«سأبدأ في أبراشيته بمنطقة كونسبيكون.. ثم.. بمسقط رأسه».

«ولماذا هناك؟».

«لأنه قد يعتقد أنه سيكون هناك في مأمن».

ثم أردف قائلاً بلهجة تنم عن القلق:

«إن مصرع بعض الرهائن ليس بالثمن الغالي في سبيل القبض على

هذا الراهب، ولكن هل ستؤازرنى وتقف بجانبى إذا أثارت تصرفاتى ضجة في العاصمة مكسيكو؟».

«ليس من المحتمل أن يحدث هذا.. فإن لكل ولاية قوانينها...

ومع ذلك فهذا ما.....».

وتوقف عن إتمام العبارة بسبب ألم مفاجئ في أسنانه، فقال

الضابط كأنما يتم الحديث نيابة عنه:

«ومع ذلك فهذا ما أريده وأسعى إليه؟».

وافترق الاثنان.. فعاد المدير إلى رياضته المفضلة بالنادي، وسار

الضابط بمفرده في الطريق إلى مركز البوليس.. وكان الجو حارًا.. ولم

يكن بالطريق غير عدد قليل من المارة.. وراح يفكر..

آه لو كانت لديه صورة واضحة لوجه الراهب المختفي...! وفي الساحة رأى الضابط لفيقاً من الأطفال يلعبون لعبة «العسكر والحرامية» وإذا بزجاجة مياه غازية فارغة، تطير في الهواء وتسقط محطمة عند قدمي الضابط، فوضع هذا يده بسرعة على مقبض مسدسه واستدار مغضباً حيث رأى أمارات الجزع على وجه صبي، فقال له:

«هل أنت الذي قذفت بالزجاجة؟».

فازدادت أمارات الجزع وضوحاً على وجه الصبي وهو ينظر في صمت إلى الضابط وهو يقول في حنق:

«لماذا قذفت بالزجاجة؟».

«قذفتها على أنها قنبلة».

«أكنت تقذفها عليّ متعمداً؟».

«لا».

«على من إذن كنت تقذفها؟!».

«على هارب من القانون».

وارتسمت على شفتي الضابط ابتسامة باردة جوفاء وهو يقول:

«حسناً.. ولكن كان يجب أن تحسن إصابة الهدف».

وركل بقايا الزجاجة بقدمه إلى الطريق وراح يفكر في كلمات يوضح بها لهؤلاء الأطفال جزءاً من هدفه في الحياة، فقال:

«أعتقد أن ذلك الهارب من القانون واحد من هؤلاء الأغنياء الذين

يظنون...».

ثم توقف فجأة عن الحديث حين رأى أمارات الجزع على وجه الصبي تتحول إلى نظرات من الحب والاخلاص، ومن ثم شعر في أعماق قلبه بلون من العاطفة الحزينة المحرومة من لمسات الحب والحنان، فقال للصبي:

«اقترب مني».

واقترب الصبي منه، بينما وقف زملاؤه خائفين على مسافة بعيدة يرقبون ما يحدث في فزع ووجل، وقال الضابط:

«ما اسمك؟».

«لويس».

ولم يجد الضابط جديدًا يقوله، فقال:

«يجب أن تتعلم كيف تصيب الهدف بإحكام».

فقال الصبي بحماس وهو يركز نظراته على مقبض مسدس الضابط:

«أتمنى لو أستطيع....».

«أتحب أن تطلع على مسدسي؟».

ثم أخرج المسدس من جرابه وقربه من الصبي، واقترب الصبيان الآخرون في حذر، بينما أردف الضابط يقول:

«انظر.. هذا هو دبوس الأمان.. إذا رفعته أصبح المسدس معدًا للانطلاق».

«أهو محشو بالرصاص؟».

«نعم - دائماً».

وأخرج الصبي طرف لسانه وقد تحلب لعابه، كأنه جائع يشم رائحة الطعام، وكان زملاؤه قد اقتربوا حتى وقفوا معه حول الضابط، وقد مد أحدهم يده في شيء من الجرة ولمس الجراب.. وشعر الضابط - والأطفال يتحلقون حوله - بإحساس - غير مستقر - من السعادة وهو يعيد المسدس إلى مكانه من الجراب.

وقال الصبي المدعو لويس:

«ما نوع هذا المسدس؟».

«إنه كولد عيار ٣٨, ٠».

«كم رصاصة في خزانته؟».

«ست رصاصات».

«هل قتلت أحداً به؟».

«لا.. لم أقتل بعد».

وكان الصبيان مبهورين الأنفاس من فرط الفضول، وظل الضابط واقفاً أمامهم ينظر إلى عيني الصبي لويس ويده لا تزال ممسكة بمقبض المسدس في الجراب.. وراحت الخواطر الإلحادية تعصف برأسه... من أجل هؤلاء الأطفال، الذين يرمزون للأجيال الجديدة، يخوض المعركة ضد رجال الدين.. إنه يريد أن يمحو من عالمهم كل ما يمكن أن يجعلهم بؤساء، فقراء، يؤمنون بالخرافات والأوهام.. إنه يريد أن يعلمهم الحقيقة.. والحقيقة في نظره هي أنهم يعيشون على سطح كرة

أرضية تبرد شيئاً فشيئاً حتى تفنى الحياة منها في النهاية.. ثم لا شيء..
إنه يريد أن يمنحهم الحق في التماس السعادة من أي سبيل.. إنه على
استعداد لأن يثيرها مذبحة دامية من أجلهم، مذبحة يقضي فيها أولاً
على الكنيسة، ثم على الأجانب، ثم رجال السياسة، حتى رؤساءه،
سوف يقضي عليهم يوماً ما.. إنه يريد أن يبدأ مع هؤلاء الأطفال.. مع
الجيل الجديد، حياة جديدة، في عالم موحش.. في صحراء..

وقال الصبي لويس:

«أوه.. إنني أتمنى.. أتمنى....».

وتوقف عن إتمام عبارته وكأنما رأى أن أمنيته أكبر من أن تتحقق،
وبسط الضابط يده في حركة تنم عن العطف، ثم لمس وجه الصبي
وهو لا يدري ماذا يفعل بعد هذا، وأخيراً عرك أذنه ثم رآه وهو يحفل
متوجعاً، ثم إذا هو - لويس - وزملاؤه يهربون منه كطيور خائفة، وعبر
هو الساحة نحو مركز البوليس، وكأنه صورة حية من الحقد الذي
يحاول أن يبدو في مظهر الحب..

وعلى جدار مكتبه في مركز البوليس، كانت صورة المجرم
الأمريكي الهارب لا تزال معلقة بجانب صورة أول اجتماع ديني
للعشاء الرباني بعد صدور قانون الإلحاد، وكان وجه المجرم، في
الصورة متجهاً نحو المجتمعين في الصورة الأخرى، وكان أحد
الأشخاص قد رسم بقلم الحبر دائرة حول وجه الراهب الذي يتوسط
المجتمعين، ليميزه عن أشخاصهم جميعاً..

ونظر الضابط إلى ابتسامة الراهب التي تطل عليه من الصورة، ثم صاح في غضب وهو يوجه الحديث إلى الجنود في فناء المركز: «ألا يوجد أحد هنا؟».

ثم جلس إلى مكتبه وهو يسمع صرير كعوب البنادق على أرض الفناء..



الجزء الثاني

الفصل الأول

وحطت البغلة فجأة على الأرض حتى كاد الراهب يسقط من فوقها.. ولم تكن هذه الحركة المفاجئة غير متوقعة منها. فقد كانا يسيران داخل الغابة منذ اثنتي عشرة ساعة، وكانا يتجهان في أول الأمر نحو الغرب، ولكن الأنباء بلغت الراهب عن وجود رجال البوليس في هذه الناحية، فاستدار ببغلته نحو الشرق، ولكنه لم يلبث أن علم بأن ذوي القمصان الحمراء يبحثون عنه بنشاط في هذه الجهة أيضًا، فلم يسعه إلا الانحراف نحو الشمال حيث خاض سلسلة من المستنقعات قبل أن يدخل في ظلام الغابة الكثيفة.

وكان طبيعيًا أن يشعر الاثنان - الراهب وبغلته - بالإرهاق الشديد، وهكذا حطت البغلة ببساطة لتستريح.. وترجل الراهب عنها وبدأ يضحك.. إنه يشعر بالسعادة، فقد كانت تلك إحدى اللحظات التي يكتشف فيها الإنسان أن الحياة - أيًا كان نوعها - تزخر بلحظات من

النشوة والابتهاج، فهناك دائماً ذلك الشعور بالسرور الذي ينبثق أحياناً في أوقات الشدة.. فإن بندول الحياة لا يكف عن التذبذب بين الأمل واليأس حتى في أحلك أوقات البؤس والشعور بالخطر..

وخرج- في حذر- من منطقة كثيفة الشجر إلى ساحة معشبة، وقد كانت الولاية كلها على هذا النمط.. نهر.. ومستنقعات.. وغابة.. وركع على الأرض في ضوء الشمس الغاربة، وراح يغسل وجهه في الماء العكر لجدول كانت صفحته تشبه قطعة من الخزف الأسود المصقول الذي راح يعكس في تلك اللحظة وجه الراهب المستدير الشاحب الغائر الوجنتين النابت الشعر.. وفوجئ الراهب بصورة ملامحه في صفحة الجدول، فإذا هو يتسم هذه البسمة الخجول المترددة التي ترسم على شفتي الشخص حين يضبط وهو ينظر في المرأة.. وقد كان في العهد الماضي متعوداً أن يقف أمام المرأة فترات طويلة ليتحكم في تعبيرات وجهه كما يفعل الممثلون، أما الآن، فكأنما شاء القدر أن يضاعف من شعوره بالتواضع والذلة.. فلم يعد وجهه كما كان أو قريباً مما كان، وإنما أصبح أقرب ما يكون إلى وجه مهرج يصلح لإثارة الضحك في نفوس النساء، ولا يصلح إطلاقاً للوقوف على منبر الكنيسة أو عند سياج المحراب.

لقد حاول، أثناء هروبه، أن يغير من سماته وينكر وجهه، وإنه ليقول لنفسه: «يبدو أنني نجحت تماماً في تغيير ملامح وجهي.. ولن يستطيع رجال البوليس أو ذوو القمصان الحمراء أن يتعرفوا عليّ الآن».

وشعر مرة أخرى ببهجة السعادة تعود إليه قلبه، كأنها كأس الخمر

التي ستطرد عنه مؤقتًا، الشعور بالخوف، والوحدة والبؤس. لقد طورد من رجال البوليس حتى بلغ نفس المكان الذي فرّ منه خلال ست سنوات.. أما الآن، فقد أرغم على أن يقترب منه، وأن يصل إليه، بل إن الوصول إليه الآن قد أصبح واجبًا، وليس ذنبًا.. ومن ثم عاد إلى بغلته وركلها في رفق وهو يقول:

«هلم انهضي أيتها البغلة».

إنه ذاهب إلى ذلك المكان الذي ظل يتجنبه ست سنوات.. ذاهب إليه في ملابس قروية ممزقة.. ذاهب إليه وهو يحمل بين جنبيه شعور الرجل العائد.. إلى بيته!

إن ذهابه إلى ذلك المكان لن يكون إلا مرحلة من المراحل التي اضطر فيها إلى الاستسلام والإذعان لأحكام الضرورة.. وإنه إذ ينظر إلى السنوات الخمس أو الست الماضية من حياته ليجدها زاخرة بمثل هذه الإذعانات البسيطة التي اضطر فيها إلى التخلي عن أشياء كثيرة.. روحية ومادية.. فقد تخلى أولاً عن أيام الاحتفالات الدينية، وأيام الصيام، وأيام التقشف والزهد. ثم اضطر لأن يتخلى عن كتاب الصلوات الذي كان يحتفظ به أثناء محاولته الفرار من مأزق حرج.. وقد تخلى في نفس هذه المحاولة عن قطعة الحجر التي كان يحملها من محراب كنيسته، وبذلك أصبح لاحق له في إقامة قداس.. ولهذا كله فقد تعرض لعقوبة الإيقاف عن عمله.. ولكن هذه العقوبة أصبحت غير ذات موضوع في ولاية تحكم بالإعدام على كل قس أو راهب لا يخضع لقوانينها الإلحادية الجديدة...

إن سياق حياته أصبح كالسد المائي المتصدع الذي تنساب منه مياه النسيان لتمحو هذه الذكرى أو تلك من ذكريات حياته المؤلمة.. فمئذ خمسة أعوام استسلم في لحظة ضعف رهيبة إلى اليأس، وهو الخطيئة التي لا تغتفر، وها هو ذا يعود- بشعور عجيب من البهجة- إلى المكان الذي شهد لحظة اليأس الرهيب.. لأن عودته هذه تنم عن انتصاره على هذا اليأس.. حقاً إنه يعرف عن نفسه أنه راهب شرير، ويعرف أنهم يطلقون عليه اسم الراهب السكير.. وكذلك هو يعرف أن ذكريات فشله المتعدد كانت تترسب في أعماق نفسه، وتجمع إلى أن يأتي اليوم الذي تسد فيه كل مجال للشعور الديني، وحتى يأتي هذا اليوم، فإنه لا يسعه إلا أن يمضي في الكفاح رغم شعوره الدائم بالخوف، وبالقلق، وبهذه البهجة، الفاضحة- التي يزر بها قلبه في بعض الأحيان..

وخاضت البغلة في مياه المستنقع الضحل عبر الساحة المعشبة، ثم عادت إلى ظلام الغابة.. وبعد فترة يسيرة من الوقت، وصل الراهب والبغلة إلى الطريق المؤدي مباشرة نحو القرية.. وكانت أشجار الغابة على الجانبين قد أزيلت لتزرع الأرض بالمحاصيل المختلفة، وفجأة توقف عن ضرب البغلة وهو يشعر بخجل غريب. فقد رأى امرأة تخرج من أحد الأكواخ وتنظر إليه في ترقب وهو يقطع الجزء الباقي من الطريق في ببطء على ظهر البغلة المجهدة.. وكانت القرية صغيرة.. لا تتجاوز أربعة وعشرين كوخاً من الطين والعشب تتوسطها ساحة غبراء، وأحس بديبب الراحة يسري في كيانه وهو يدخل هذه القرية..

إنه يشعر على وجه التأكيد أنه سيقابل فيها بالترحاب، أو - على الأقل - سوف يجد فيها شخصًا واحدًا يستطيع أن يثق بأنه لن يخذله ويسلمه لرجال البوليس..

ومرة أخرى حطت البغلة فجأة من تحته حين اقترب من الكوخ. وتدحرج هو على الأرض بعيدًا عنها، ثم وثب واقفًا بينما ظلت المرأة ترقبه كأنه واحد من الأعداء، وأخيرًا قال لها:

«آه.. ماريا.. كيف حالك؟».

فتمتت قائلة:

«أهذا أنت.. يا أبي!».

ولم يكن ينظر إليها مباشرة، وإنما كان يشيح بنظراته عنها في مكر وحذر وهو يقول:

«ألم تتعرفني عليّ؟».

فشرعت تقيسه بنظراتها من أعلى إلى أسفل في شيء من الاحتقار ثم قالت:

«لقد تغير منظرك».

ثم أردفت بعد لحظة صمت قائلة:

«متى حصلت على ملابسك هذه؟».

«منذ أسبوع».

«وأي ملابسك الأخرى؟».

«استبدلت بها هذه الملابس».

«لماذا؟! لقد كانت ملابس جميلة!».

«بل كانت رثة بالية.. ضيقة».

«كان في مقدوري أن أصلحها وأرفوها ثم أخفيها.. إن ضياعها خسارة.. وأنت تبدو في هذه الملابس كرجل عادي».

وارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو ينظر إلى الأرض بينما استمرت هي تلومه كما تلوم ربة البيت طفلها العاثر أو زوجها المهمل.. وكان الموقف بينهما يشبه - إلى حد ما - مواقفهما في الأيام الخالية، عندما كانت الحرية الدينية سائدة، والاجتماعات مباحة، والناس يتبادلون الأحاديث والشائعات عن النشاط الديني في كل مكان...

وعاد يقول لها وهو يتسم في ارتباك دون أن ينظر إليها:

«كيف حال.. بريجيتا؟».

وخفق قلبه بعنف على رنين هذا الاسم: فقد تكون للخطيئة نتائج ضخمة.. وهو لم يعد إلى هذا المكان الذي يعتبره بمثابة «البيت» منذ ست سنوات..

وقالت المرأة بهدوء:

«إن حالتها كحالتنا.. ماذا تنتظر أكثر من هذا؟».

وشعر بالرضى.. ولكنه تذكر أكثر فجأة أن هذا الشعور بالرضى يرتبط بتلك الخطيئة التي ارتكبها في ساعة ضعف وسكر منذ ست سنوات، وأنه لا يليق به أن يشعر بالرضى نحو أي شيء له علاقة

بالماضي.. وأخيرًا قال بصوت عادي:

«حسنًا.. هذا جميل».

ولكن قلبه ظل يخفق بذلك الحب الأبوي الكامن في أعماقه..

وبعد برهة صمت أردف قائلاً:

«إنني أشعر بأشد التعب.. لقد كان رجال البوليس في نواحي زاباتا».

«لماذا لم تحاول الهروب في اتجاه مونت كريستو!».

ورفع عينيه إليها في سرعة وقلق.. فإن عبارتها هذه لا تتفق مع ما كان ينتظره من حسن الوفادة والترحاب.. وكان بعض سكان القرية قد تجمعوا بين الأكواخ وراحوا يرقبونه من بعيد.. وكان في الساحة الواقعة بين الأكواخ مقعد طويل قديم مثبت في الأرض من جذوع الشجر، وجوسق لبيع المياه الغازية، وكان السكان قد أحضروا مقاعدهم إلى الساحة ليجلسوا فيها وينعموا بنسائم الليل، ولكن أحدًا منهم لم يتقدم نحو الراهب ويقبل يده ويلتمس بركاته. وكأنما قد هبط عن طريق الخطيئة إلى عالم الكفاح البشري ليفطن إلى حقائق أخرى كثيرة، غير اليأس والحب، ومن هذه الحقائق أن الإنسان قد لا يظفر بالترحاب وحسن الاستقبال حتى من أهل بيته وقريته!

وأخيرًا قال ردًا على سؤال المرأة:

«إن ذوي القمصان الحمراء في نواحي مونت كريستو».

فقالت المرأة في لهجة الاستسلام لحكم الضرورة:

«حسنًا يا أبي.. ليس في مقدورنا أن نطردك.. ويحسن الآن أن تأتي معي».

وسار وراءها في مسكنة وهو يكاد يتعثر في سراويله الواسعة، وكانت أمارات البهجة قد تلاشت تمامًا عن وجهه، وترك الابتسامة وراءه كأنما هي قطعة عائمة من حطام سفينة!!

وكان عدد الواقفين في الساحة لا يتجاوز ثمانية رجال وامرأتين وستة أطفال. وقد سار بينهم كأنه متسول يلتمس الإحسان والمأوى.. ولم يسعه إلا أن يتذكر زيارته لهذه القرية في المرة السابقة. يتذكر حرارة الاستقبال.. وتسابق السكان في إحضار زجاجات الخمر من أماكنها الخفية، ورغم هذا الاستقبال الحار فقد كان يومذاك حديث العهد بخطيئته، أما الآن، فهو في عودته إلى جحرهم هذا النائي أشبه ما يكون بالمهاجر الذي يعود إلى وطنه معدمًا مفلسًا فاشلاً..

وقالت المرأة للواقفين:

«هذا هو الأب».

وراود الأمل قلبه.. فمن يدري.. فلعلهم لم يتعرفوا عليه في أول الأمر، ومن ثم راح ينتظر تحيتهم له.. وأقبلوا، الواحد بعد الآخر، يقبلون يده، ثم يتراجعون عنه، ويتظرون.

وقال لهم:

«إني سعيد برؤيتكم».

وكاد يقول: «يا أولادي» ولكنه تذكر أن الرجل المحروم من الذرية

هو - فقط - الذي له الحق في أن ينادي الغرباء بكلمة «يا أولادي». وفي تلك اللحظة كان «الأطفال» يقبلون إليه ليقبلوا يده، واحدًا بعد الآخر، بعد إلحاح من آبائهم.. ولا عجب فقد كانوا أصغر من أن يتذكروا الأيام الخوالي التي كان القساوسة والرهبان فيها يرتدون الملابس الدينية السوداء والبنىقات المقفلة، ويمتازون عن بقية الأهالي، بالأيدي البدينة الناعمة، وقد لاحظ الراهب أنهم - أي الأطفال - يشعرون بالرهبة لما يديه أهلوهم نحوه من مظاهر التوقر والاحترام.. ورغم أنه لم يكن ينظر إليهم مباشرة، إلا أنه كان يرقبهم، خفية، بإمعان.. وكانت بينهم طفلتان أحدهما نحيلة ضامرة في الخامسة، أو السادسة، أو السابعة من عمرها.. إنه لا يدري على وجه التحديد، فهي تبدو، من فرط سوء التغذية أصغر من عمرها الحقيقي، وفي نفس الوقت كان وجهها الماكر الشرير ينم على أنها أكبر من عمرها أيضًا.. وكانت تطل من عينيها نظرات «الأنثى» الكامنة في أعماق نفسها..

وقال أحد الرجال:

«هل ستمكث بيننا طويلاً يا أبي؟».

«لا أدري.. إنني متعب وأحتاج إلى بضعة أيام من الراحة».

فقال رجل آخر:

«ألا يمكن يا أبي أن.. أن تمضي شمالاً.. نحو قرية بوبليتو؟».

«لقد ظللنا نسير، بغير استراحة، نحو اثنتي عشر ساعة.. أنا

والبغلة».

وفجأة قالت المرأة بصوت غاضب من أجله:

«سوف يبيت ليلته هنا طبعًا.. هذا أقل ما يجب أن نفعله».

وقال الراهب:

«لسوف أقيم لكم قداسًا في الصباح».

وكان ينطق بهذه العبارات في لهجة الذي يقدم إليهم رشوة كبيرة ليسمحوا له بالمبيت، ولكنهم كانوا ينصتون إليه في ضجر ونفور كأنما هو يقدم إليهم هذه «الرشوة» من مال مسروق!

وقال أحدهم:

«إذا لم يكن مندوحة من إقامة القداس، فترجو يا أبي أن تقيمه في ساعة مبكرة جدًّا، في سكون الليل إذا أمكن...».

فقال مدهوشًا متسائلًا:

«ماذا دهاكم جميعًا.. مالكم هكذا وجلون؟!».

«ألم تبلغك الأنباء؟!».

«أية أنباء؟».

«إنهم يحتفظون برهائن من كل قرية يعتقدون أنك مررت أو سوف تمر بها، وإذا لم يبلغ أحدهم عنك، فسوف يقتل بعض الرهائن رميًا بالرصاص.. ثم يأخذون غيرهم.. وقد حدث هذا في أبراشية كونسبكيون».

«كونسبكيون؟».

وأخذ جفن عينه اليمنى يرتعد صعودًا وهبوطًا بهذه الحركة التي
يعبر بها الجسم أحيانًا عن القلق واليأس.. وأخيرًا قال:
«من؟!».

فلما نظروا إليه في بلاهة، أردف قائلاً في غضب وتوتر:
«من الذي قتلوه أخيرًا هناك؟!».
«بدر و مونتيز».

وندت عنه صيحة توجع كالتى تنبعث من كلب يُضرب.. لشد
ما شعر بالفزع، وبالحزن..! وأرسلت الطفلة- العجوز- الصغيرة
ضحكة ساخرة من صيحته..

وعاد وهو يقول في توجع شديد:
«لماذا لم يقبضوا عليّ.. هؤلاء الحمقى.. لماذا لم يقبضوا عليّ؟»
وضحكت الطفلة النحيلة مرة أخرى.. فوجه إليها نظرات جوفاء
كأنما هو يسمع صوتها دون أن يرى وجهها.. لقد ذوت زهور السعادة
في قلبه قبل أن تجد الفرصة للازدهار.. لقد شعر كأنه امرأة وضعت
جنيًا ميتًا.. إنها تريد أن تواريه الثرى بسرعة.. أن تنساه.. ثم تبدأ من
جديد.. فلعل الطفل التالي يولد حيًا..

وقال أحد الرجال:

«أرأيت يا أبي.. لماذا!».

وخامره شعور الرجل المذنب الواقف أما القضاة.. ثم قال:

«هل.. هل كنتم تفضلون أن.. أن أحذو حذو زميلي بادر جوزيه المقيم بعاصمة الولاية، هل تعرفونه أو تسمعون عنه؟».

فقال بعضهم بلهجة فيها رنين الاقتناع:

«طبعاً لا.. يا أبي.. لا نريد أن تكون مثله».

«أوه.. ماذا أقول الآن؟ إن الأمر ليس كما أريد أنا أو كما تريدون أنتم...».

ثم أردف يقول في حدة وبلهجة آمرة:

«لسوف أناام الآن.. ويمكنكم أن توقظوني قبل الفجر بساعة.. نصف ساعة لسماع اعترافاتكم.. والنصف الآخر للقداس.. ثم أمضي».

ولكن.. إلى أين يمضي!؟

فليس ثمة قرية في تلك النواحي يمكن أن يرحب أهلها به.. لقد أصبح الآن مجرد خطر شديد يسير على قدميه أو راكباً بغلة..

وقالت المرأة:

«هلم يا أبي إلى هذه الجهة...».

وتبعها إلى غرفة صغيرة كانت أثاثاتها مصنوعة من خشب الصناديق، مقعد وسرير، عبارة عن مجموعة من الألواح الخشبية فوقها حصيرة من القش، وسقط عليه بعض الملابس، ومصباح بترولي. وقال الراهب للمرأة:

«إنني لا أريد أن أحرم أحدًا من المبيت في غرفته هذه!».

«إنها غرفتي».

فنظر إليها في ريبة وقال:

«إذن أين ستنامين أنت؟».

وكان يلقي هذا السؤال وهو يرتعد في أعماق نفسه من الإجابة، وراح يراقبها ويختلس النظر إليها ويتساءل في نفسه: أهذا كل ما في الزواج.. نظرات مختلسة، ومراوغة في الحديث، وشك متبادل، وعدم الشعور بالراحة النفسية! هل هذا هو كل ما كان يشعر به أولئك الذين كانوا يعترفون له بذنوبهم العاطفية! مجرد فراش خشن، وامرأة مشغولة بالأعباء، وتجنب الحديث عن الماضي.

وأجابت المرأة بهدوء:

«في كوخ آخر».

وغابت الشمس تمامًا وراء أشجار الغابة، وامتدت الظلال حتى أبواب الكوخ، ورقد هو على الفراش، وأخذت المرأة تشغل نفسها بالبحث عن شيء، فكان يسمعها - دون أن يراها - وهي تنبش أرضية الكوخ، ولم يستطيع أن ينام بسبب الأفكار التي ظلت تعصف برأسه.. هل حان الوقت أخيرًا لأن يهرب! لقد حاول أن يهرب قبل الآن بضع مرات، ولكن الأهالي كانوا في كل مرة يمنعونهم من الهرب.. كانوا يعتبرونه رمز المقاومة للقوانين الإلحادية، فهل يريدون الآن أن يتركوه يهرب! إن أحدًا منهم لا يحاول أن يمنعه من الهرب فيزعم له - كما

حدث كثيرًا من قبل - بأن امرأة مريضة تحتاج إلى بركاته، أو رجلًا
يحتضر ويحتاج إلى صلواته..

هل أصبح الآن رمزًا للمرض.. والموت!

وقال أخيرًا للمرأة:

«ماريا..! ماذا تفعلين؟».

«لقد احتفظت لك ببعض الخمر».

وعاد يفكر.. وإذا هربت الآن من هذه الولاية، فسوف ألتقي
بقساوسة ورهبان آخرين، ولسوف تتاح لي فرصة الاعتراف بين
أيديهم، فأظفر بالمغفرة، واستأنف من جديد حياة الورع
والتقوى، فإنه من أهم تعاليم الأديان هي أن يبدأ كل إنسان بإنقاذ
روحه - أولاً - من الضلال. وأخذت فكرة العقاب والثواب، والجنة
والنار تتحرك في ذهنه. فإن سنوات حياته الأخيرة الخالية من الكتب
ومن الاتصال بالرجال المثقفين قد كادت تنسيه كل تعاليم الدين فيما
عدا مبادئه الأولية البسيطة.

وقالت المرأة فجأة وهي تحمل في يدها زجاجة دواء مملوءة
بالخمر:

«هذه هي».

وكأنما لم يسمع عبارتها، وإنما استمر في أفكاره: إنه إذا تركهم
الآن، فسوف ينقذهم من بطش القوة الغاشمة، ولكنه في ذات الوقت
سيحرّمهم من رمز المقاومة، فقد كان هو الراهب - أو القس - الوحيد

الذي يتذكره الأطفال.. وهو أيضًا الوحيد الذي يلقن هؤلاء الأطفال تعاليم الدين، فإذا هو تركهم، فكأنما يترك هذه المنطقة الواقعة بين الجبال والبحر فريسة سهلة لقوانين الإلحاد. ولهذا، أليس من الواجب أن يبقى حتى لو كان عرضة لاحتقارهم! أليس من الواجب أن يبقى، رغم أنه ليس بالمثل الطيب الذي يحتذى! إنها مشكلة ضخمة تهز كيانه وتعصف به، وإنه ليظل راقداً في الفراش وقد وضع يديه على عينيه. إنه لا يجد في كل هذه المنطقة الواسعة شخصاً واحداً يستطيع أن يستشير.

ورفع زجاجة الخمر إلى شفثيه وقال للمرأة بصوت خجول:

«وبريجيتا.. هل هي في حالة طيبة؟!».

«لقد رأيته بنفسك منذ لحظات».

«أحقاً؟!».

أنه لا يريد أن يصدق أنه رأى بريجيتا.. ابنته.. دون أن يتعرف عليها.. فهل هذا معقول! أيعقل أن يرى ثمرة خطيئته دون أن يعرفها؟!!

وقالت المرأة بلهجة تأكيد:

«نعم كانت بين الأطفال الذين قبلوا يدك».

ثم تقدمت نحو باب الكوخ ونادت على ابنتها:

«بريجيتا.. بريجيتا».

واستدار هو بوجهه نحو الباب ليراها وهي مقبلة.. وراح يراقبها وهي تترك ما وراء الكوخ من عالم الفزع والغرائر، وتدخل إليه.. إنها

نفس الطفلة الصغيرة- العجوز- العجفاء التي ضحكت منه ساخرة
مرتين؟!

وقالت ماريا للطفلة:

«هلم تقدمي وتحدثي مع أبيك.. تقدمي!».

وحاول أن يخفي زجاجة البراندي، ولكنه لم يجد ثمة مكاناً
لإخفائها، فلم يسعه إلا أن يغطيها بكفيه وهو يمعن النظر إلى ابنته
وكأنما هو مذهول بصدمة الحب الأبوي المفاجئ.

وعادت ماريا تقول:

«إنها تحفظ حوار أصول الدين.. ولكنها لا تردده».

وظلت الطفلة واقفة ترقب الراهب بإمعان واحتقار.. ولم يعجب
هو كثيراً لموقفها هذا منه.. فإنه- وأمها- لم ينثرا في دمائها بذور
الحب.. وإنما هي مجرد نتيجة- أو نتاج- للحظة خوف ويأس ونصف
زجاجة براندي وشعور عميق بالوحدة جعله يرتكب هذه الخطيئة التي
أثارت- بعد ارتكابها- أبشع ألوان الفزع في قلبه.. ومع هذا كله فقد
كان يشعر نحوها بحب فياض يزيد عن شعوره بالفزع والخجل.

وراح يختلس إليها نظرات سريعة مراوغة حتى لا تلتقي بنظراتها
وهو يشعر بقلبه يخفق في عنف رهيب- كالآلة البخارية- ويزخر
بالرغبة العنيفة في أن يحميها وينقذها من كل شيء.. وفجأة راح يسأل
نفسه ثم يجيب عليها:

«ولماذا أفعل؟».

«هذه إرادة الله».

«ومن أين تدري؟».

وأحس فجأة بعبء ثقيل من المسؤولية يجثم على كاهله.. إنه شعور مختلط بالحب. وخطر له أن هذا ولا شك هو ما يشعر به كل الآباء.. وهذا هو الشعور الذي يدفع الرجال العاديين إلى المضي في الحياة وهم يتהלون ضد الألم والخوف.. هذا هو الشعور الذي نجا منه - أو على الأصح - الذي ينجو منه زملاؤه الرهبان دون أن يضحوا بشيء إلا بشهوة جسدية لا أهمية لها.. ووجد نفسه يتمتم بصوت خافت وهو يضغط بيديه على زجاجة البراندي:

«يا عزيزتي الحبيبة».

لقد عمّدها في آخر زيارة له للقرية، ولم تكن يومذاك غير مخلوقة صغيرة مكمشة الوجه كأنها «عروسة» من القطن مما يلعب به الأطفال وكان يبدو أنها لن تعيش طويلاً، ولهذا لم يشعر نحوها يومذاك بأكثر من الندم.. وكان من الصعب أن يشعر بالخجل لأن أحداً من أهل القرية لم يعتبر فعلته خطيئة.. فقد كان هو الراهب الوحيد، ولم يكن ثمة راهب أو قس آخر يمكن أن يقوم بمراسم الزواج بينه وبين ماري..

وفجأة سمع الطفلة تقول له:

«هل أنت المجرم الهارب؟».

«المجرم الهارب!!».

وقالت ماري بسرعة:

«إن هذه الطفلة الحمقاء تعني الرجل الآخر الذي يبحث البوليس عنه...».

وعجب الراهب وهو يسمع لأول مرة أن البوليس يبحث عن رجل آخر غيره، فقال:

«أي رجل آخر؟».

«رجل أمريكي الجنسية».

«وماذا فعل؟!».

«يقال إنه قتل بعض الرجال هناك».

«ولماذا يظن البوليس أنه في هذه المناطق؟».

«يظنون أنه في الطريق إلى كويتارو.. حيث الأحرار الكثيفة».

وكانت منطقة كويتارو هي المهرب الأخير للمجرمين في المكسيك. ففيها يستطيع أي إنسان أن يعمل بالمزارع دون أن يسأله أحد عن ماضيه.

وعادت الطفلة تقول:

«هل أنت المجرم الهارب؟».

«هل أبدو في هيئة القتلة المجرمين؟؟».

«إنني لا أعرف!».

وعاد يفكر: إذا هو غادر هذه الولاية، فسوف يترك هذه الطفلة وراءه.. بغير معين.

وقال للمرأة في ذلة ومسكنة:

«ألا يمكن أن أقضي هنا بضعة أيام؟».

«من الخطر الشديد أن تفعل يا أبي».

ومرة أخرى شاهد في عيني الطفلة تلك النظرة التي أخافته.. نظرة الأنثى الكامنة في أعماق طفلة تبدو - نفسياً - أكبر من عمرها. إنها نظرة امرأة تفكر، وتدبر وتدرّك ما هي الحياة قبل الأوان. إن الأمر يبدو له كأنما يرى خطيئته الكبرى تحديق فيه بكبرياء وتحد، وحاول هو أن يخاطب الطفلة - لا الأنثى - في أعماق نفسها، فقال:

«أخبريني يا عزيزتي عن الألعاب التي تحبينها».

وضحكت الطفلة بسخرية وازدراء، ورفع عينيه فجأة نحو السقف حيث رأى عنكبوتاً يتحرك.. وخطر بباله مثل انبثق من أعماق طفولته.. وكان والده يتمثل به ويردده كثيراً «أفضل رائحة هي رائحة الخبز، وأفضل مذاق هو مذاق الملح، وأفضل حب هو حب الأطفال».

لقد كانت طفولته مرحلة سعيدة لم يكن يشوبه إلا خوفه من أشياء كثيرة، وإلا أنه كان يكره الفقر كراهية الإنسان الفاضل للجريمة. وقد كان - وهو طفل - يعتقد أنه حين يصبح قساً أو راهباً فسوف تمتلئ يده بالمال. ولهذا قرر أن يقع اختياره على هذه المهنة، وأنه ليذكر هذه المرحلة الطويلة، بين مرح الطفولة، وبين هذا الفراش الذي يرقد عليه الآن ممسكاً بزجاجة البراندي، ولكن هذه المرحلة في علم الله لا تزيد عن لحظة، وأنه ليرى - على هذا الأساس - أن الفترة الواقعة

بين خطيئة البشرية الأولى وبين ضحكة هذه الطفلة الساخرة لا تزيد عن طرفة عين وانتباهتها. وبسط يده إليها.. إلى الطفلة؟ كأنما يريد أن يجذبها- بالقوة- بعيداً عن.. شيء.. ولكنه شعر بالعجز.. فلعل الرجل- أو المرأة- الذي سيتم إفسادها لم يولد بعد، فكيف يستطيع هو أن يحميها من شيء غير موجود؟!

وتراجعت الطفلة عن تناول يده وهي تخرج له لسانها. وقالت الأم لها وهي ترفع يدها لتضربها:
«أيتها الشيطانة الصغيرة».

ولكن الراهب هتف قائلاً وهو ينتصب جالساً على الفراش:
«لا.. كيف تجرؤين؟!».
«إنني أمها!».

«ليس لنا عليها أية حقوق».

ثم أردف قائلاً للطفلة:

«لو أن لديك مجموعة من أوراق اللعب لعلمتك لعبة أو لعبتين من ألعاب التسلية التي تدهشين بها أترابك».

ولم يكن يعرف من قبل كيف يتحدث الأطفال إلا من فوق المنبر.
ونظرت الطفلة إليه في وقاحة بينما أردف هو قائلاً:

«هل تعرفين كيف ترسلين الرسائل عن طريق الإشارة والنقر؟!
نقرة طويلة.. ثم قصيرة ثم طويلة».

فتساءلت الأم في دهشة:

«ما معنى هذا يا أبي؟!».

«إنها لعبة يمارسها الأطفال.. وأعرفها».

ثم عاد يقول للطفلة:

«ألديك أصدقاء؟».

ومرة أخرى ضحكت الطفلة ساخرة عن عمد.. وبدأ جسمها الذي لا يزيد في العمر عن سبعة أعوام كأنه جسم قزم يخفي نوعاً من النضوج البشع..

وقالت المرأة لها أمره:

«اخرجي من هنا».

وقامت الطفلة بحركة أخيرة تنم عن الوقاحة والشر. ثم خرجت من الغرفة: ربما إلى الأبد بالنسبة للراهب. وخطر له في تلك اللحظة أن الإنسان عادة لا يقول «وداعاً» للأعزاء الأحباب وهم على فراش الموت وقد شملهم جو مفعم بعطر البخور والفراغ..!

وقال للمرأة:

«إنني أتساءل.. هل يمكننا أن نعلمها؟».

ثم راح يفكر في موته هو، وفي حياتها من بعده، ولعله قد يشعر بعذاب الجحيم وهو يراها تلحق به تدريجياً وتمر مثله في مرحلة كلها الذل والخطر.. وذلك بعد أن ترث عنه الضعف كما يرث الابن مرض

الصدر عن أمه.

وعاد يرقد على الفراش ويستدير بوجهه بعيداً عن بقايا ضوء الشمس الغاربة، وبدأ عليه كأنه استغرق في النوم مع أنه كان في تمام اليقظة وشغلت المرأة نفسها ببعض الأعمال الخفيفة، حتى إذا غربت الشمس انطلقت أسراب البعوض إلى أهدافها الآدمية كأنها السهام المرسلة بأحكام.

وقالت المرأة له:

«هل أحيط الفراش يا أبي بكلة؟!».

«لا.. لا لزوم لها».

وما جدوى الكلة وهو الذي عانى من الحميات خلال السنوات العشر الأخيرة ما لا يُحصَى من المرات.. إنه بعد هذا كله لم يعد يهتم.. فليأت البعوض أو ليرحل.. لقد أصبح جزءاً من حياته.

وغادرت المرأة بعد قليل الكوخ، وراح يسمع صوتها وهي تتبادل الحديث مع النسوة في الخارج. وشعر بالدهشة، وبشيء من الراحة، لنكوصها عن مجرد الحديث - أو الإشارة - عما كان بينهما في الماضي. فقد حدث منذ سبع سنوات، ولمدة لا تزيد عن خمس دقائق، أن كانا عشيقين، إذا صح أن تطلق هذه الكلمة على علاقة بين امرأة ورجل لم تذكر هي اسمه ذات مرة مجرداً. لقد كانت هذه الدقائق بالنسبة لها مجرد حادث عابر كأنه جرح بسيط لم يلبث أن التأم. بل لعلها كانت - ولم تزل - تشعر بالفخر لأنها تزوجت راهباً ولو لمدة

خمس دقائق. أما هو، فإنه يمضي في الحياة بجراح دامية ليس لها التئام، وكأنما أصبح العالم - بالنسبة إليه - هباء وفناء.

كان الظلام لم يزل ناشراً ظلاله السوداء الكثيفة على الوجود، ولم يكن في الجو ما يبشر بقرب انبلاج الفجر. وكان هو «الراهب» واقفاً في أكبر الأكواخ يلقي مواعظه على مجموعة من الرجال لا يتجاوز عددهم أربعة وعشرين. ولم يكن في مقدوره أن يراهم بوضوح، فقد كان القنديل الموضوع على صندوق فارغ يرسل من ذباته ضوءاً خافتاً ممتزجاً بالدخان، ولم يكن ثمة تيار هوائي في الكوخ بسبب إغلاق الباب، وكان هو يتحدث إليهم عن السماء وهو واقف بينهم وبين القنديل بملابسه الممزقة، وكانوا هم يغمغمون في ضيق، ويتململون في قلق.. إنه يعرف مبلغ لهفتهم على الفراغ من هذا القداس، ولهذا السبب أيقظوه في بهيم الليل ليقوم به حين تواترت الأنباء عن اقتراب رجال البوليس من القرية..

وقال لهم:

«لقد ذكر واحد من آبائنا أن اللذة تعتمد على الألم.. لأن الألم جزء منها، إننا نشعر بألم الجوع، ولكن هذا الألم هو الذي يجعلنا نشعر بلذة الطعام حين نقبل عليه أخيراً، ونحن نشعر بالظماً».

وتوقف فجأة وهو يرسل نظراته إلى الرجال القابعين في الكوخ كالظلال، وتوقع أن يسمع ضحكة ساخرة، ولكن أحداً لم يضحك،

فاستطرد يقول:

«ولهذا فنحن نحرم أنفسنا لكي تتمتع في النهاية باللذة الأبدية.. ولعلكم قد سمعتم أن الرجال الأغنياء في أمريكا يأكلون الطعام الزاخر بالملح حتى يشعروا دائماً بالظماً، وبذلك يشربون أكبر كمية من الكوكتيل، وكذلك قبل الزواج، يمر الإنسان بمرحلة الخطبة».

وتوقف مرة أخرى عن الحديث وهو يشعر كأن تفاهة شأنه شيء ثقيل فوق لسانه، وكان في جو الغرفة رائحة شمعة في نهاية الاحتراق، وتحرك الرجال متململين مرة أخرى بين الظلال، وطغت على رائحة الشمعة المحترقة، رائحة أخرى أشد وأنفذ.. رائحة الأجسام البشرية التي لم تغتسل في الصباح.. ولكنه لم يلبث أن صاح بعناد وفي لهجة آمرة حازمة:

«وهذا هو السبب في قلبي لكم إن السماء هنا.. معكم.. هذا المكان الذي تعيشون فيه هو جزء من الجنة كما أن الألم جزء من اللذة!».

ثم أردف قائلاً:

«ابتهلوا إلى الله أن تشعروا بمزيد من الألم والعذاب في هذه الدنيا.. لاتملوا أبداً هذه الشعور بالألم.. إن رقابة البوليس لكم.. واغتصاب الجنود لأرزاقكم تحت اسم الضرائب، وضرب المدير لكم كلما عجزتم عن الدفع، والحميات، والجذري، والجوع، كل هذا جزء من الجنة.. تمهيد لها.. فمن يدري.. فلعلكم بدون هذه

الآلام لا تظفرون بالنعيم الكامل.. لا تستمتعون بالجنة على أتم وجه..
والجنة.. ما هي الجنة!..

وراح يحاول أن يصفها لهم بعبارات بسيطة.. ولكن الأمر اختلط
عليه وهو يحاول أن يصف لهم صورة منها.. ولم يدر ماذا يقول.. هل
يقول بأنها من الأحجار الكريمة والذهب، ولكن هؤلاء الناس لم يروا
الذهب في حياتهم، فضلاً عن الأحجار الكريمة!

وأخيراً راح يقول: «إن الجنة هي المكان الذي ليس فيه حكام
ظالمون.. ولا قوانين استبدادية.. ولا ضرائب باهظة، ولا جنود.. ولا
جوع.. وأولادكم لن يموتوا فيها».

وفتح باب الكوخ، وتسلسل من الخارج رجل راح يتبادل الهمس مع
بعض الجالسين في الظلام.

واستمر الراهب في موعظته قائلاً:

«إنكم.. هناك، لن تشعروا بالخوف أبداً.. ولن تشعروا بالخطر..
فليس هناك قمصان حمراء.. ولن يعرف أحدكم معنى الشيشوخة
والعجز.. ولن تخذلكم محصولاتكم.. أوه.. وما أكثر الأشياء التي
يمكن أن نحصيها ونقول إنها غير موجودة بالجنة.. المهم أن الله
هناك.. والمشكلة هي أنني لا أجد الألفاظ التي أستطيع أن أعبر بها عن
أشياء بعيدة عن متناول حواسنا.. إننا نقول: «الضوء» ونحن نفكر في
الشمس ونقول: «الحب».

وتوقف عن الحديث وهو يعاني أشد الصعوبة في تركيز أفكاره:

فقد كان رجال البوليس يقتربون حثيثاً.. ويبدو أن الرجل الذي تسلل داخلاً كان يحمل آخر أنباء تحركاتهم.. ولكنه استمر في حديثه قائلاً:

«ونقول الحب.. ونحن ربما نعني.. الأبناء».

وفتح الباب مرة أخرى، ومن فرجته رأى فجر يوم آخر وهو يتسلل على صفحة المكان، ثم سمع صوتاً يهمس له في لهفة!

«أبي».

«نعم..!»

«إن رجال البوليس في طريقهم إلينا.. أصبحوا على مسيرة ميل.. إنهم آتون عن طريق الغابة».

ولم يكن ذلك بالشيء الجديد عليه.. فقد كان يتوقع دائماً أن يدخل رجال البوليس كالأشباح فيما بينه وبين عقيدته، ومن ثم استطرد يقول بعناد:

«وفوق كل شيء يجب أن تذكروا أن الجنة هنا...».

ترى هل جاء رجال البوليس راجلين أم راكبين؟! إذا كانوا راجلين فلن يصلوا قبل عشرين دقيقة، وهي مدة كافية لأن يفرغ من القداس ويختفي..

«نعم هنا.. الآن.. إن مخاوفكم.. ومخاوفي جزء من الجنة التي لن نشعر فيها بالخوف أبداً...».

واستدار بظهره إليهم وراح يقرأ بسرعة ورد الإيمان. وقد سبق له من قبل أن قرأ مثل هذا القداس وهو في أشد حالات الفزع، وذلك

عندما قرأه عقب ارتكاب الخطيئة الكبرى.. ولكن الحياة لم تلبث أن زودته بالأعذار حتى لم يعد يحفل كثيرًا بذكرى هذه الخطيئة وما سوف يلقيه من عذاب بسببها أو مغفرة، ما دام يواصل كفاحه لإنقاذ هؤلاء من هاوية اليأس..

واستدار أخيرًا نحو المجتمعين، واستطاع أن يرى في الضوء الشاحب اثنين منهم راكعين وقد بسطا أذرعتهما على هيئة صليب، وكان عليهما أن يبقيا هكذا حتى تنتهي مراسم القداس... وكان هذا يعني مزيدًا من الألم الذي يعتصر حياتهم الأليمة الجافة، وخامره شعور بالذلة والخضوع وهو يرى رجالًا عاديين يحتملون - طائعين - هذه الآلام التي يحتملها هو مرغمًا..!

«يا إلهي.. إنني أحب جمال جنتك».

وتصاعد الدخان من ذبالة القنديل، وتململ الجالسون والراكعون وشعر فجأة بلون عجيب من السعادة يطفو على نفسه قبل أن يعاود الشعور بالقلق، وخيل إليه أنه قد سمح له أن يرى من الخارج بعض مكان الجنة.. فلا شك أن الجنة تضم رجالًا كهؤلاء جائعين يمنعهم الخوف والفرع من الشعور بأداء الواجب، وفي تلك اللحظة، شعر بالرضى العميق لأنه استطاع أن يتحدث إلى هؤلاء المعذبين في غير نفاق أو رياء.. ذلك أنه كان من العسير على رجل الدين البدين المرفه أن يصور للناس جمال الفقر.

وبدأ صلاته من أجل القديسين.. قائمة طويلة من الشهداء الأحياء في السماء.. وكانت أسماؤهم ترن في الكوخ كوقع خطوات منتظمة:

كورنيلي كيرباني.. أورتني.. كريسوني، وحالاً سوف يصل رجال البوليس إلى الساحة المعشبة في الغابة، حيث حطت بغلته فجأة، وحيث غسل وجهه في مياه الجدول العكر.. وانطلقت من طرف لسانه بسرعة، الأسماء اللاتينية، الواحد في إثر الآخر، وهو يشعر بموجة القلق تطغي على المجتمعين معه.

ثم بدأ في تدشين القربان «وكان مجرد قطعة خبز من فرن ماريا، كان مثل هذا القربان في العهد الأول رقاقاً» وفجأة خيمت السكينة على قلوب الجميع، وأخذ كل شيء يجري في رتابة وانتظام كقوله: «إن الذي عانى العذاب في اليوم السابق؛ أخذ الخبز المقدس بين يديه الطاهرتين»، وأياً كانت تحركات أولئك الذين في خارج الكوخ، فقد ظلت السكينة منتشرة في داخله، وشعر الراهب أن الله معه، في هذا الكوخ، لأول مرة منذ ست سنوات.. وعندما رفع في يده القربان، تخيل وجوه المجتمعين وهي ترفع إليه كأنها نظرات كلاب جائعة.. ثم بدأ في تدشين الخمر، في قدح مشقوق، وكان هذا التدشين نوعاً آخر من سلسلة الاستسلامات التي اضطر إليها... ذلك أنه ظل يحمل هذا القدح المشقوق أكثر من عامين. فقد كاد بسببه أن يفقد حياته، لولا أن ضابط البوليس الذي عثر عليه في حقييته كان يدين بالمذهب الكاثوليكي سرّاً. وقد كان من الممكن أن يفقد ضابط البوليس حياته لو أن أحداً رآه وهو يعيد القدح إلى الحقيبة بسرعة...

وكانت هذه المراسم كلها تجري في هدوء.. فلا أجراس ترن، ولا أناشيد تلقى، وأخيراً ركع الراهب بجانب الصندوق الفارغ، متعباً،

متهاكًا.. وفُتح الباب من الخارج، وهمس رجل في صوت كله اللهفة والقلق:

«لقد وصل رجال البوليس».

إذن لم يكونوا راجلين، وإنما على صهوات الجياد.. هكذا راح يفكر في ذهول.. وسمع الجميع، من مكان ما، في سكون الفجر، صهيل جواد.. على مسافة لا تقل عن ربع ميل.

ونهض واقفًا.. ووقفت ماريا بالقرب منه تقول:

«قطعة الجوخ يا أبي.. هات قطعة الجوخ!».

ووضع قربان الخبز بسرعة في فمه، ثم شرب قطرات الخمر في القدح، بينما انتزع أحدهم قطعة الجوخ المفروشة على الصندوق الفارغ، ودسها في حافظة الأوراق، ثم أطفأ بعضهم القنديل والشموع وقصوا ذبالاتها حتى لا تترك وراءها دخانًا يتصاعد، وأخلت الغرفة بسرعة. ولم يبق إلا صاحب الكوخ واقفًا أمام بابه في انتظار تقبيل يد الراهب وهو يخرج. وكان العالم خارج الكوخ يبدو في شحوب الفجر غامضًا.. وصاح ديك في مكان ما بالقرية.. وقالت ماريا:

«هلم يا أبي إلى كوشي بسرعة».

ولكنه قال دون أن تكون في ذهنه فكرة معينة:

«بل يحسن أن أمضي حتى لا يقبض عليّ هنا».

«إنهم قد ضربوا الحصار على القرية كلها».

وراح يتساءل في نفسه: أهذه النهاية؟ إنه يعرف أن شبح الخوف

يتربص به لينقض عليه، ولكنه لم يكن في تلك اللحظة خائفاً، وتبع المرأة- مهرولاً- عبر الساحة، إلى كوخها وهو يردد- آلياً- بعض الدعوات، إنه لا يدري متى سينقض عليه شبح الخوف، فقد شعر بالفرع مرة حين فتح رجال البوليس حافظة أوراقه لتفتيشها.. ولكن هذا حدث منذ سنوات، وقد شعر مرة أخرى بالفرع حين اختبأ بين سباطات الموز في مخزن الكابتن «فيلوز» وهو يسمع الصبية «كورال» تراوغ ضابط البوليس، وكان هذا منذ أسابيع قليلة. وليس من شك في أنه سوف يشعر بالخوف سريعاً. ولم يكن ثمة أثر لرجال البوليس في الساحة.. وانما ضوء الفجر الباهت وبعض الدجاج والديكة الرومية التي راحت تهبط من غصون الأشجار حيث أمضت ليلتها. ومرة أخرى سمع صياح الديك. فلو أن رجال البوليس عرفوا كيف يحسنون التفتيش، لأمكنهم العثور عليه هنا.. فتكون النهاية..

وجذبتة ماريا قائلة:

«أسرع بالرقاد على هذا الفراش».

وكان الواضح أن لديها خطة تريد تنفيذها.. فالمعروف أن النساء في مثل هذه المواقف، يكن عمليات، فهن ينشئن خطأ وأفكاراً جديدة على أنقاض الخطط والأفكار القديمة غير الصالحة، ولكن.. ما الفائدة في حالة ميئوس منها كهذه!

وعادت تقول:

«دعني أشم أنفاسك.. يا إلهي.. إن رائحة الخمر واضحة فيها..

لسوف يسألوننا عن سبب شربك الخمر في مثل هذه الساعة».

ثم غابت داخل الكوخ برهة كأنما تبحث عن شيء. وفجأة سمعت حوافر جواد وهو يبرز من الغابة التي لا تبعد مائة ياردة، وكان سكون الفجر مخيمًا حتى ليكاد الإنسان أن يسمع الصرير الجلدي لجراب المسدس في حزام الضابط.

وأحاط رجال البوليس بالأكواخ والساحة.. ويبدو أنهم كانوا يجدون السير في الغابة على أقدامهم، ذلك أن ضابطهم وحده هو الممتطي صهوة الجواد، وشرعوا يقتربون من الأكواخ حاملين البنادق. وكانوا شرذمة قليلة العدد ترمز للقوة في إسفافها وانحطاطها.. فقد كان قلشين أحدهم يجرجر وراءه ويبدو أنه اشتبك في شيء داخل الغابة، وقد تعثر الجندي فيه مرتين وسقط على الأرض، وكان الضابط الراكب يتلفت حوله قبل أن يركز - أخيرًا - نظراته المفعمة بالغضب والمرارة على الأكواخ الساكنة..

وكانت المرأة في داخل الكوخ تجذبه وتهمس له:

«اقضم هذه بأسنانك.. بسرعة.. فلم يعد لدينا وقت».

وأشاح بوجهه عن رجال البوليس المتقدمين نحو الساحة، واستدار إلى ظلال الكوخ حيث رأى المرأة ممسكة ببصلة وهي تردد:

«اقضم هذه.. فإن رائحتها تغلب رائحة الخمر».

وراح يعض البصلة وقد أخذت دموعه تنحدر، وقالت المرأة:

«أليس هذا أحسن؟».

وكان يسمع دققة حوافر الجواد وهو يتقدم بحذر فيما بين
الأكواخ، ثم قال وهو يرسل ضحكة خفيفة بلهاء:

«بل هذا فظيع».

«حسنًا.. أعدّها إليّ».

وأخذتها منه وأخفتها بين طيات ملابسها بينما قال هو:

«أين حافظة أوراقي؟».

«لا تهتم بها الآن.. ارقد على هذا الفراش».

وقبل أن يتحرك من مكانه، كان جواد الضابط يسد الباب، وكان
في مقدوره أن يرى ساق الضابط بحذاء الركوب ذي الخطوط الحمراء
والمهماز النحاسي اللامع، ويده المستترة بالقفاز معتمدة على عجرة
السرّج. ووضعت «ماريا» يدها على ذراع الراهب، وكانت تلك أول
حركة تحمل في طياتها معنى العاطفة بينهما.. ولم تكن العاطفة في
حياتهما غير وهم باطل. وفجأة سمع الجميع صوتًا أمرًا يقول:

«اخرجوا من الأكواخ.. جميعًا».

وضرب الجواد الأرض بحافره حيث أرسل في الجو خيطًا من
الغبار، بينما تكرر الصوت الأمر قائلاً:

«قلت لكم.. اخرجوا جميعًا».

ودوت في مكان ما، طلقة نارية.. وغادر الراهب الكوخ إلى
الساحة. وكان الفجر قد أسفر تمامًا، وشاعت في الجو تباشير الصباح،
وكان ثمة رجل قد رفع فوهة مسدسه إلى أعلى حيث كانت سحابة من

دخان البارود لا تزال منعقدة في الجو. تُرى.. أهذه هي اللحظة التي سينقض فيها شبح الفرع عليه ويمزق نفسه!

وكان أهل القرية جميعًا قد بدأوا يخرجون من أكوأخهم في تكاسل.. الأطفال أولاً، وكان الفضول يملكهم دون أن يشعروا بالخوف، أما الرجال والنساء فقد كان يبدو عليهم سمت الاستسلام المطلق للقوة.. القوة التي لا تعترف بالخطأ.

ولم يحاول أحدهم أن ينظر إلى الراهب، وإنما أطرقوا برءوسهم إلى الأرض وراحوا ينتظرون.. أما الأطفال، فقد أخذوا يتفرجون على الجواد كأنه أهم شيء في الأمر كله..

وقال الضابط:

«فتشوا الأكوأخ».

ومضت الدقائق بطيئة.. حتى دخان البارود المنعقد في الجو، ظل على أجنحة الهواء لا يريم، وخرجت بضعة خنازير من أحد الأكوأخ، ورفرف الديك الرومي إلى منتصف الساحة بكبريائه الوقحة، وأخيراً جاء أحد الجنود إلى الضابط وحياه قائلاً:

«جميع سكان القرية مجتمعون هنا».

«ألم تجد شيئاً يشير الاشتباه؟».

«لا».

«إذن أعد الكرة».

ومرة أخرى توقف مرور الزمن كأنه ساعة معطلة.. وتناول الضابط

علبة السجائر، وبدأ عليه التردد برهة، ثم أعادها إلى مكانها. واقترب
الجندي مرة أخرى وقال للضابط:

«لا شيء يا سيدي».

وصاح الضابط بصوت كالغواء:

«انتباه.. كلكم.. هلم أنصتوا إليّ».

وأخذت حلقة رجال البوليس المحيطة بالساحة تضيق وتحصر
بينها سكان القرية وتضغطهم في مجموعة صغيرة أمام الضابط. أما
الأطفال، فقد تركوا أحراراً. ورأى الراهب طفله بريجيتا واقفة بجانب
جواد الضابط، ولم تكن رأسها تبلغ حذائه في الركاب، ورفعت يدها
ولمست جلدة العنان المدلاة، بينما قال الضابط:

«إنني أبحث عن رجلين: أحدهما مجرم هارب.. أمريكي..
قاتل.. ويبدو لي بوضوح أنه ليس بينكم.. وهناك جائزة مقدارها
خمسمائة بيزة لمن يقبض عليه، فافتحوا عيونكم جيداً».

ثم توقف برهة وراح يحدق بنظراته في وجوههم.. وشعر الراهب
أن نظرات الضابط توقفت على وجهه، فأطرق برأسه إلى الأرض كبقية
زملائه.

واستطرد الضابط في الحديث قائلاً وهو يرفع طبقة صوته بضع
درجات:

«أما الآخر.. فهو قسيس.. راهب.. وأنتم تعرفون معنى هذا.. إنه
خائن للجمهورية.. وكل واحد يتستر عليه سيكون خائناً مثله».

ويبدو أن جمودهم أثار الغضب في نفسه إذ قال:

«إذا كنتم لا تزالون تصدقون ما يقول القساوسة والرهبان لكم فأنتم بلهاء وحمقى، إن كل ما يريدونه منكم هي أموالكم.. ماذا فعلت السماء التي يحدثونكم عنها لكم؟ هل أرسلت عليكم ما يكفي لإطعامكم..؟ هل منحتكم ما يكفي لإطعام أولادكم..! إنهم يزعمون لكم أن كل شيء سيصبح رائعاً بعد وفاتكم.. أما أنا فأقول لكم إن كل شيء سيصبح رائعاً بعد وفاتهم هم.. ويجب أن تساعدوني للقضاء عليهم».

ووضعت الطفلة بريجيتا يدها على حذائه، فنظر إليها بمزيج من العطف والرتاء، ثم قال بلهجة تأكيد:

«هذه الطفلة البائسة في نظري خير من البابا الجالس على عرشه في روما».

ومال رجال البوليس معتمدين على بنادقهم كأنما سيغلبهم النوم على أمرهم، وتشاءب أحدهم، وانطلق الديك الرومي عائداً إلى الكوخ، واستطرد الضابط يقول:

«إذا كان أحدكم قد رأى هذا الراهب المختفي، فليبلغني أمره.. فإننا قد رصدنا جائزة مقدارها سبعمائة بيزة لمن يخبرنا عن مكانه».

ولم ينطق أحد بكلمة..

وحول الضابط رأس جواده نحوهم ثم قال:

«إننا واثقون أنه في هذه المنطقة.. ولعلكم لا تعرفون ماذا حدث

لرجل في مدينة كونسبكيون!«.

وشرعت إحدى النساء تبكي بينما استطرد الضابط يقول:

«هلم تقدموا إليّ.. واحدًا بعد الآخر.. وليذكر كل منكم اسمه لي.. لا.. لا تتقدم النساء.. أريد الرجال فقط».

وشرع الرجال يتقدمون فرادى في عبوس واكتئاب، وأخذ الضابط يسألهم الواحد بعد الآخر قائلاً:

«ما اسمك؟ بماذا تشتغل..؟ أمتزوج؟ ومن هي زوجتك..؟ هل سمعت شيئاً عن مكان الراهب؟».

ولم يبق غير رجل واحد بين الضابط والراهب، فأخذ هذا يتمتم بصلاة خافتة في شيء من الشرود والذهول، فكان يقول: «إن خطايي، لا لأنها أدت إلى صلب مخلصي المحبوب ولكن الأهم لأنها أغضبت».

ووجد نفسه فجأة وجهًا لوجه مع الضابط.. ولكنه استمر في صلاته الصامتة فقال:

«وإني أتوب إليك يا رباه وأتعهد بألا أفعل أبداً ما يغضبك».

وكان يشعر أن الواجب يحتم عليه ترديد هذه الصلاة في تلك اللحظة، وكأنها الوصية الأخيرة ينطق بها الرجل وهو على فراش الموت.

«ما اسمك؟».

وانبثق في ذهنه اسم الرجل الذي قتل في كونسبكيون، فقال:

«مونتيز».

«هل رأيت الراهب ذات مرة؟».

«لا».

«بماذا تشتغل؟».

«في قطعة أرض صغيرة».

«هل أنت متزوج؟».

«نعم».

«أين زوجتك؟».

وتقدمت «ماريا» بسرعة وقالت:

«أنا زوجته.. ولماذا توجه إليه كل هذه الأسئلة.. أترأه أمامك يشبه من بعيد أو من قريب أي راهب أو قسيس؟».

وكان الضابط في تلك اللحظة يتأمل شيئاً في يده، صورة قديمة، وأخيراً قال:

«أرني يديك».

ورفع الراهب إلى الضابط يدين خشتين كأيدي العمال. وفجأة مال الضابط من فوق السرج وراح يشم أنفاسه، وخيم الصمت العميق على القرويين.. الصمت الرهيب الخطير الذي قد يوحى للضابط بأنهم خائفون يترقبون. وشرع يحرق في الوجه الشاحب الغائر الوجنتين النابت الشعر، ثم يعيد النظر إلى الصورة، وأخيراً قال:

«حسنًا.. ليأتي من بعده».

وقبل أن يتراجع الراهب إلى مكانه، هتف الضابط آمرًا:
«انتظر!».

ثم وضع يده على رأس الطفلة بريجيتا، وراح يشد في رفق شعرها
الأسود الخشن وهو يقول:

«اسمعي يا طفلتي.. إنك تعرفين كل سكان هذه القرية. أليس
كذلك؟!».

«نعم».

فأشار إلى الراهب وقال:

«من هو هذا الرجل؟ ما هو اسمه؟».

«لا أعرف».

وأمسك الضابط أنفاسه برهة ثم قال:

«ألا تعرفين اسمه؟! هل هو غريب إذن؟».

وعندئذ أسرعَت أمها «ماريا» تقول بصوت مرتفع:

«إن هذه الطفلة حمقاء.. لا تكاد تعرف اسمها.. اسألها من هو
أبوها!..».

فنظر الضابط إلى الطفلة ثم قال:

«من هو أبوك؟».

ورفعت الطفلة عينيها إلى الضابط، ثم تحولت بنظراتها الماكرة

إلى الراهب الذي راح يردد لنفسه في لهفة وإخلاص «اغفر لي يا إلهي.. فما أشد ندمي وأسفي على ما ارتكبت من خطايا وذنوب».

وقالت الطفلة بهدوء وهي تشير إلى الراهب:

«هذا هو أبي».

فقال الضابط:

«حسنًا.. ليأتي من بعده».

وراح يردد أسئلته واستجواباته: الاسم.. العمل.. الزواج.. وأطلت الشمس المشرقة من وراء الغابة، ووقف الراهب في موضعه وقد شبك يديه أمامه.. مرة أخرى تأجلت ساعة موته.. لشد ما يحس بإغراء عجيب يدفعه لأن يلقي بنفسه أمام الضابط ويكشف عن حقيقته قائلاً: «إنني الشخص الذي تبحث عنه».

هل سيعدمونه رمياً بالرصاص فوراً؟. إن رغبة جامحة تستبد به لكي يستسلم ويضع نهاية لمخاوفه وقلقه وتشرده.. ورأى، في السماء، عقاباً يحلق كأنه نقطة سوداء - لا يريم.. كأنما هو ينتظر جثة أو رمة ينقض عليها وينهشها.. وخيل للراهب أن هذا العقاب المحلق في الجو يقول له ساخراً: «ليس الموت هو نهاية الألم.. والإيمان بالسلام والراحة الأبدية نوع من التخريف والبدع».

ولما فرغ الضابط من سؤال آخر رجل، قال للجميع:

«ألا يريد أحدكم أن يساعدني؟».

وظل الجميع واقفين في صمت.. فعاد الضابط يقول:

«لقد سمعتم بما حدث في كونسبكيون؟ لقد أخذت رهينة من أهلها.. فلما أيقنت فيما بعد أن الراهب قد مر بهذه القرية، شنت الرهينة في أقرب شجرة.. نعم.. إنني لن أعدم رجلاً يغير رأيه لسبب ما ويفشي السر.. وهذا ما حدث في كونسبكيون.. فقد جائي بلاغ من أحد أهلها يؤكد لي أن الراهب مر بها.. وهكذا قتلت الرهينة.. ولعل الرجل الذي أرسل البلاغ كان يحب زوجة الرجل الذي أخذته رهينة ويريد أن يتخلص منه ليظفر بها.. وليس هذا شأني.. ليس لي أن أتحرى عن حقيقة الأغراض التي تدفع الناس إلى الغدر ببعض.. ولكنني أعرف أننا عثرنا على مخزن صغير للخمر كان الراهب يملكه في كونسبكيون.. ومن يدري.. فلعل أن يكون هنا في هذه القرية رجل يريد أن يظفر بزوجة رجل آخر، أو بقطعة أرضه، أو ببقرته، فيغدر به ويرسل إليّ بلاغاً يخبرني فيه أنه شاهد الراهب في هذه القرية، فلا يسعني حينئذ إلا أن أقتل الرهينة التي سيقع اختياري عليها.. الأفضل لكم أن يتقدم أحدكم ويذكر الحقيقة الآن فينجو من القتل؛ لأنه قد يكون هو الرهينة، ويظفر بثروة لم يكن يحلم بها».

وبعد أن صمت برهة ليلتقط أنفاسه، أضاف قائلاً:

«ليس بكم حاجة إلى مجرد الكلام.. إذا كان الراهب بينكم الآن، فما على أحدكم إلا أن ينظر إليه.. ولن يعرف أحد مطلقاً من هو الذي نظر إلى الراهب وأفشى سره، بل إن الراهب لن يعرف بهذه الطريقة من الذي نظر إليه وبذلك لن يستطيع أن يستنزل عليه لعاناته إن كنتم خائفين من هذا.. هذه هي فرصتكم الأخيرة».

ونظر الراهب إلى الأرض حتى لا يشير الحرج في نفس الذي سوف
ينظر إليه ويفشي سره..

ولكن أحدًا لم ينظر إليه، ولم يفش سره..

وقال الضابط أخيرًا:

«حسنًا.. لسوف أختار الآن رجلًا من بينكم ليكون رهينة بين
يدي.. فإذا علمت فيما بعد أن الراهب مر بقريتكم.. مجرد مرور..
فسوف أقتل الرهينة بدون محاكمة.. وأنتم المسؤولون عن هذا..».

وشرع يتأملهم بإمعان من فوق جواده.. وكان أحد الجنود قد أسند
بندقيته على المقعد القديم بالساحة، وراح يربط قلشينه، وظل أهل
القرية واقفين، في صمت مطرقي الرءوس إلى الأرض.. كان كل منهم
يخشى أن يرفع عينيه حتى لا يلتفت رغمًا عنه إلى الراهب، وانفجر
الضابط قائلًا:

«لماذا لا تريدون أن تثقوا بي؟ إني لا أريد الموت لأحدكم.. ألا
ترون أن أقل واحد منكم هو في نظري أفضل من ذلك الراهب.. إني
أريد أن أمنحكم».

ثم رفع يديه بإشارة لم يكن لها من أثر، لأن أحدًا لم يرها، قبل أن
يضيف قائلًا:

«كل شيء».

ثم أشار إلى شاب بين الواقفين وقال في صوت غليظ جاف:

«أنت يا هذا.. ستكون رهينة عندي».

وصاحت إحدى النساء بصوتٍ باكٍ:

«هذا ابني «ميجويل».. إنك لا تستطيع أن تأخذ ابني!».

فقال بنفس اللهجة الغليظة الجافة:

«كل واحد هنا ابن امرأة أو زوج لامرأة.. إنني أعرف هذا».

وظل الراهب واقفًا في صمت، عاقدًا يديه، شاعرًا بأن جميع الذين حوله قد بدأوا يكرهونه لأنه ليس ابنًا أو زوجًا لامرأة منهم..

وفجأة قال:

«أيها الضابط».

«ماذا تريد؟».

«أريد أن تأخذني رهينة بدلًا من الشاب «ميجويل».. فأنا رجل عجوز ولم أعد صالحًا للعمل في الحقل».

واندفع قطع من الخنازير من ركن وراء أحد الأكواخ، دون أن تحفل بما يجري في الساحة.. وفرغ الجندي من ربط قلشينه وانتصب واقفًا.. وارتفعت الشمس قليلًا فوق أشجار الغابة، وراحت أشعتها تنعكس على زجاجات المياه الغازية في الجوسق.

وقال الضابط:

«إنني أختار رهينة للإعدام- لا لتقديم الطعام والمأوى مجانًا لرجل عجوز كسول، فإذا كنت لا تصلح للعمل في الحقول، فأنت لا تصلح لأن تكون رهينة».

ثم أصدر أمره قائلاً:

«قيدوا يدي الشاب واقتادوه».

وسرعان ما نفذ الجنود الأمر، ولم ينسوا أن يحملوا معهم ثلاث أو أربع دجاجات وديكاً رومياً، فضلاً عن الشاب «ميجويل» الرهينة، حتى إذا غابوا عن الأبصار، هتف الراهب لأهل القرية قائلاً:

«لقد بذلت كل ما أستطيع من جهد.. فلماذا لم تؤدوا واجبكم وتسلموني! ماذا كنتم تنتظروني أن أفعل؟ فليس من واجبي أن أستسلم لليأس وأسلم نفسي بنفسي».

فقال أحد الرجال:

«حسنا يا أبي.. إننا غير نادمين.. ولكن نرجو منك أن تكون أكثر حذراً فلا تترك وراءك خمراً كما فعلت في كونسبكيون».

وقال آخر:

«لا فائدة من بقائك في هذه الولاية يا أبي.. لسوف يقبضون عليك في النهاية بعد أن رأوا وجهك هنا.. إنهم لن ينسوا هذا الوجه إذا عثروا عليك في مكان آخر.. ويحسن أن تمضي إلى الشمال.. إلى الجبال- عبر الحدود».

وقالت امرأة:

«إن الولاية المجاورة، عبر الحدود، مكان جميل رائع.. فلا تزال الكنائس باقية فيها وإن كان محرماً على الأهالي أن يذهبوا إليها ولكن.. يكفي أن يتمتع الإنسان عينيه بمنظر دار العبادة والصلاة، وهناك

أيضاً قساوسة ورهبان.. لقد ذهب ابن عم لي عبر الجبال إلى مدينة لاس كازاس وحضر قدّاساً في منزل.. بالمراسيم والتقاليد المتبعة.. فقد كان هناك منبر.. ومحراب.. وكان الراهب يرتدي ملابس رجال الدين التقليدية كما كان الحال في الأيام الأولى.. وليس من شك في أنك ستشعر بالسعادة هناك يا أبي».

وتبع الراهب المرأة «ماريا» إلى كوخها.. وهناك كانت زجاجة الخمر موضوعة على الخوان، فلمسها بأصابعه، وكانت بها كمية ضئيلة، فقال للمرأة:

«أين حافظة أوراقي يا ماريا؟».

«من الخطر الشديد أن تحمل حافظة أوراقك بعد اليوم».

«إذن كيف أخفي الخمر؟».

«لن يكون هناك خمر بعد اليوم».

«ماذا تعنين».

«إنني لا أريد أن تعرض نفسك - أو غيرك - للخطر.. لقد حطمت الزجاجاة التي تحملها في حافظة أوراقك لتخفي الخمر فيها ويمكنك أن تلعنني إذا شئت».

فقال في صوت رقيق حزين:

«لا تكوني من المؤمنين بالخرافات.. إن الزجاجاة التي حطمتها لم تكن تحوي غير خمر عادية.. فليست هناك خمر مقدسة أو شبه مقدسة.. وقد كنت أحفظ بزجاجة الخمر في حافظة الأوراق لأنني

لا أستطيع أن أحصل على الخمر بسهولة في هذه النواحي.. أما في كونسبكيون فقد كان لي مخزن صغير منها.. وهو المخزن الذي عثروا عليه».

فقالت المرأة في لهجة حادة قاطعة:

«يمكنك الآن أن تذهب.. أن تمضي إلى غير رجعة.. فإنك لم تعد تصلح لأي شيء أو لأي إنسان.. ألا تفهم يا أبي.. إننا لا نريدك بيننا».

«نعم.. إنني أفهم.. ولكن المسألة ليست ما تريدن أنت أو ما أريد أنا».

فقالت بوحشية:

«إنني لست جاهلة حمقاء.. إنني أعرف كل شيء.. فقد ذهبت في صباي إلى المدارس.. إنني لست - كهؤلاء القرويين - أمية.. إنني أعرف إنك راهب شرير.. ولم يقتصر شرك على ما حدث بيننا في ذلك اليوم.. فأنا أراهن أن هذه ليست خطيئتك الأخيرة.. فقد سمعت عنك مساوئ كثيرة.. هل تريد أن أقولها.. هل تظن أن الله راضٍ عنك.. عن راهب سكير مثلك؟».

وظل واقفاً أمامها في خضوع كما وقف أمام الضابط، ينصت ويعجب.. ذلك أنه لم يكن يعرف أن في مقدورها أن تفكر هكذا..!

وعادت المرأة تقول:

«أعتقد أن الله يرضى لك أن تبقى هنا وتموت؟ ولنفرض أن هذا حدث.. أي أنك مت.. إذن ستكون في نظر الجميع قديساً شهيداً..

أليس كذلك..؟ إذن أي نوع من القديسين الشهداء تعتقد أنك ستكون؟
إنك في هذه الحالة ستكون السبب في أن يسخر الناس ويهزأوا من
القديسين والشهداء».

ولم يكن يدور بباله من قبل مثل هذا الاحتمال.. أن يصبح في يوم
ما قديسًا شهيدًا، ومن ثم قال:

«نعم.. هذه مشكلة.. مشكلة سأفكر فيها.. إنني لا أريد أن تتعرض
الكنيسة للسخرية والتحقير».

«إذن فكر فيها عبر الحدود».

«حسنًا».

«لقد كنت أشعر بالفخر لما حدث بيني وبينك.. كنت أظن أن
محنة الدين ستنجلي بسرعة ونصبح زوجين.. فليس في مقدور كل
امرأة أن تتشرف بزواج رجل من رجال الدين.. والطفلة... كنت أعتقد
أنك ستكون لها نعم الأب والمهذب.. أما الآن.. فإنك لا تفرق عن
أي.. أي لص».

فقال في شيء من الدهول:

«هناك كثير من اللصوص.. الطيبين».

«أرجوك، بحق الله، أن تحمل هذه البقية من الخمر وتمضي».

«هناك شيء واحد.. في حافظة أوراقتي.. أرجو ألا...».

«أذهب وابحث عنه بنفسك.. هناك.. في مباءة القمامة حيث

ألقيت بالحافظة».

«والطفلة؟! إنك يا ماريا امرأة طيبة.. أعني أن في مقدورك أن تعني بها وتنشئها مهذبة.. متدينة».

«إنها لن تصلح لشيء إطلاقاً.. ولعلك رأيت هذا بنفسك».

فقال في رجاء ولهفة:

«لا يمكن أن تكون شريرة إلى هذا الحد في مثل سنها هذا؟».

«لسوف تنمو وتشب كما هي».

«لسوف أجعل القداس التالي من أجلها».

فقال وكأنها لم تسمع عباراته:

«بل إنها ستزداد سوءاً كلما كبرت».

وخيل إليه أن العقيدة توشك أن ترفع من النفوس.. وأن إقامة القداس لن يصبح بعد فترة أخرى إلا مجرد تميمة للحظ.. كمرور قطرة سوداء في الطريق. إنه يخاطر بحياته من أجل أناس لن يلبثوا أن يفقدوا كل شعور حقيقي بالإيمان.

وقال أخيراً:

«أين بغلتي؟».

«إنهم يقدمون لها حطام الذرة».

ثم أردفت قائلة:

«يحسن بك أن تمضي نحو الشمال.. فإنك لن تجد فرصة الإفلات من المناطق الجنوبية».

«ظننت أن مدينة كارمن قد تكون...».

«لا شك أن المراقبة هناك محكمة».

فقال في صوت محزون:

«أوه.. حسنًا.. ربما.. في يوم ما.. عندما تتحسن الأحوال».

ولم يكن في حاجة لأن يتم حديثه.. وإنما شرع يباركها وهي واقفة أمامه في صبر نافذ إذ كانت تريده أن يمضي.. إلى غير عودة.

«حسنًا.. يا ماريًا.. وداعًا».

«وداعًا».

وسار عبر الساحة مطرق الرأس، منحنى الكتفين، شاعرًا بأن جميع السكان ينظرون إلى انصرافه في رضى وسرور.. إنه رجل مثير للمتاعب في نظرهم، ولكنهم لسبب ما في أعماق نفوسهم، يرفضون أن يسلموه للبوليس. إنه يشعر بالحسد لذلك المجرم الهارب المجهول الذي لا يترددون في الإيقاع به عند سنوح أول فرصة؛ فإن هذا المجرم - على الأقل - لا يحمل على كاهله عبء الاعتراف بجميلهم وأفضالهم عليه.

وسار في الطريق المنحدر نحو النهر.. الطريق الذي مهدته حوافر البغال مع بقايا جذور الشجر.. وهناك.. على جانب من هذا الطريق الضيق، كانت مختلف أنواع القمامة ملقاة تحت لافتة مكتوب عليها «ممنوع إلقاء القاذورات» وكانت جميع مهملات القرية وقاذوراتها متناثرة بالقرب من شاطئ النهر، بحيث إذا هطلت الأمطار في الموسم، حملتها وألقت بها إلى مياه النهر نفسه. ووضع قدمه بين

العلب والصفائح الفارغة، وبقايا الخضر المتعطنة، وانتشل حافظه أوراقه وهو يتنهد.. لقد كانت دائماً حافظة نافعة له.. إنها إحدى ذكريات الماضي السعيد.. ولن يبعد الوقت الذي ينحدر فيه هو إلى مباءة الحياة كما حدث لهذه الحافظة... لقد انتزع القفل منها... وما إن وضع يده في داخل كيسها المبطن بالحرير، حتى عثر على الأوراق..

وترك الحافظة تسقط من يده إلى القاذورات، واحتفظ بالأوراق التي عثر عليها في قبضة يده.. وشعر، وهو يرى الحافظة تسقط كأنما سقطت معها مرحلة كاملة من شباب حياته الموسومة بالتقدير والرضى والاحترام.. نعم.. فقد كانت - أي الحافظة - هدية تقدير وإعجاب قدمها إليه رعايا أبراشيته بمدينة كونسبكيون بمناسبة مرور العام الخامس على توليه منصبه الديني.

وأحس كأن شخصا مجهولاً يتحرك وراء شجرة على جانب الطريق، فرفع قدمه من مباءة القمامة وقد شالت أسراب الذباب حولها، ثم استدار نحو الشجرة، والأوراق في قبضته ليرى هذا المجهول الذي يتجسس عليه..

ورآها.. إنها طفلة بريجيتا.. كانت جالسة على جذع شجرة تحرك ساقيها وتضرب اللحاء بكعبيها، وتغمض عينيها بقوة.. فقال لها:

«ما الذي يشقك يا عزيزتي؟!».

ففتحت بسرعة عينيها الحمراءوي الأهداف، الممملتين بالشر

والواقحة، ثم قالت:

«إنه أنت.. أنت».

«أنا؟».

«نعم.. أنت سبب شقائي».

فتقدم نحوها بحذر شديد، وكأنها حيوان نفور لم يألفه بعد. وكان يشعر برعدة تسري في جسمه من فرط الלהفة والشوق، ثم قال:

«لماذا يا عزيزتي؟!».

فقالت بغضب شديد:

«لأنهم يسخرون مني».

«بسببي؟».

«إن لكل طفل في القرية والدًا يشتغل».

«وأنا أيضًا أشتغل».

«إنك راهب.. أليس كذلك؟!».

«نعم».

«إن بدرو يقول إنك لست رجلًا.. لا تصلح لمعاشرة النساء..

ولست أفهم ما يعني».

«وأكبر الظن أنه هو أيضًا لا يفهم».

«إنه يفهم بالتأكيد.. فهو في العاشرة من عمره.. وأنا أريد أن أفهم

أيضًا، إنك ستصرف عنا.. أليس كذلك؟!».

«أجل».

وفزع مرة أخرى من أمارات الأنوثة الكامنة في أعماقها حين
ارتسمت على شفتيها ابتسامة عجيبة غامضة. وفجأة قالت في صوت
لا يخلو من دلال المرأة.

«أخبرني».

وكانت تجلس في استهتار على جذع الشجرة بجانب مجموعة
من العلب الفارغة والخضر المتعطنة. وخيل إليه أنه يرى الحياة بكل ما
فيها من فساد مركزة في قلبها، كأنها نقطة عطن سوداء في ثمرة فاكهة.
إنها تعيش دون راعٍ أو حامٍ.. إنها محرومة من نعمة الجمال البريء،
والرقة التي قد تكون سياجاً لها ضد الشرور والآثام.. وأحس بقلبه
يرتعد إشفاقاً عليها وعلى ضياعها في الحياة فقال لها:

«يا عزيزتي.. يجب أن تكوني على حذر».

«على حذر من أي شيء؟ لماذا أنت منصرف عنا؟؟».

واقترب منها قليلاً وهو يقول لنفسه: «إن من حق الوالد أن يقبل
ابنته» ولكنها كانت تتراجع وهي تصيح ضاحكة في صوت أعجف
قبيح:

«لا تلمسني».

وخطر له أن كل طفل يولد وهو يعرف بغريزته الحب.. إنه
يسترضعه من ثدي أمه. ولكن نوع الحب يتوقف بعد ذلك على نوع
الآباء والأصدقاء الذين يشب الطفل بينهم، فقد يكون النوع الذي

يضيء وينجي، أو النوع الذي يحرق ويدمر.. والشهوة أيضًا لون من الحب.. وأنه ليراها ملتصقة بنفسية هذه الطفلة كما تلتصق الذبابة بالورق اللصاق.. إنه يتخيل يد أمها ماريا وهي ترتفع في الهواء لتضربها.. وأحاديث هذا الصبي غير المهذب في شفق الغروب، ورجال البوليس يفتشون القرى. إنه الشر والعنف في كل مكان..

وراح يتمتم بصلاة خافتة:

«يا إلهي.. افعل بي ما تشاء.. واجعلني أمت مثقلًا بالخطايا والذنوب. ولكن أسألك فقط أن تنقذ هذه الطفلة».

لقد كان رجلًا من منقذي الأرواح، أو هذا هو المفروض، ولشد ما كانت عملية إنقاذ الأرواح تبدو يومذاك سهلة ميسورة وهو يؤديها بالوعظ. وإقامة القداسات وإعداد الحفلات الدينية والاجتماعات. وشرب القهوة مع سيدات في سن الكهولة وراء نوافذ محصنة بالقضبان. وتدشين المنازل الجديدة بالعطور، وارتداء القفازات السوداء.. كل هذا كان سهلاً.. في سهولة ادخار المال.. أما الآن فإن الأمر قد التبس عليه.. إنه غامض.. خفي وأنه ليشعر بالعجز والقصور إلى حد اليأس..

وركع على ركبتيه وجذبها إليه وهي تحاول التملص منه ضاحكة ثم قال:

«إنني أحبك لأنني أبوك.. حاولي أن تفهمي الحقيقة».

ثم أمسك بمعصمها في قوة جعلتها تقف أمامه ساكنة وتنظر إليه،

بينما أردف قائلاً: «إنني على استعداد لأن أضحي من أجلك بحياتي.
بروحي... يا عزيزتي. يا عزيزتي حاولي أن تفهمي وأن تدركي أهميتك
العظيمة لي».

وأدرك في تلك اللحظة وجه الخلاف بينه وبين خصومه من
زعماء السياسة.. إنهم لا يحفلون بشيء إلا بنظم الحكم والسلطان
في الجمهورية. أما هذه الطفلة فهي في نظره أهم من قارة بأكملها..
وعاد يقول لها:

«يجب يا عزيزتي أن تهتمي بنفسك كل الاهتمام؛ لأنك مهمة
جداً.. إن الرئيس في العاصمة له حراس يحرسونه بالبنادق والمدافع.
أما أنت، فإن الملائكة تحرسك».

ولما رآها ترسل إليه من عينيها السوداوين الشريرتين نظرات
الإنسان الذي لا يفهم ما يقال له أدرك أن محاولة إنقاذها جاءت متأخرة
ومن ثم قال:

«وداعاً يا طفلي».

ثم قبلها ببلاهة وهو يشعر أنه رجل عجوز أحرق وأنه بمجرد أن
يترك يدها ويمضي نحو الساحة بالقرية سيترك وراء ظهره عالماً غليظاً
لن يلبث أن يطبق على الطفلة ويدمرها..

ورأى بغلته هناك في الساحة مسرحية، ومربوطة في جوسق المياه
الغازية، وسمع رجلاً يقول له وهو واقف يلوح بيده مودعاً.

«يحسن بك يا أبي أن تمضي نحو الشمال».

وكان الراهب يعلم أن على الإنسان المؤمن أن يحمل الحب لكل إنسان غيره كأنه ابنه الوحيد. وأن الرغبة في حماية الغير يجب أن تنتشر من قلبه حتى تعم العالم كله. ولكنه أحس في تلك اللحظة أن هذه العاطفة النبيلة كحيوان مقيد القدمين مربوط في شجرة داخل قلبه ولهذا لم يتجه إلى الشمال وإنما مضى نحو الجنوب..

كان يسير في نفس الطريق الذي سار فيه رجال البوليس بعد مغادرتهم القرية، وكان يدرك أنه سيظل بمأمن طالما هو يمضي في ببطء، دون أن يلتقي بعابر طريق.. إن كل ما يريده الآن.. هي الخمر.. وهو يدرك أنه بدونها لا يصلح لشيء.. وقد كان في مقدوره أن يمضي نحو الشمال ويعبر الجبال إلى الولاية التالية حيث تكون أقسى عقوبة يمكن أن توقع على راهب يضبط وهو يؤدي الطقوس الدينية مجرد غرامة بسيطة، أو بضعة أيام في السجن إذا عجز عن دفع الغرامة، ولكنه لم يكن مستعدًا بعد للهرب نهائيًا، وهو - أي الهرب - نوع من الاستسلام السلبي. وهو لا يريد أن يستسلم بل سيقى، شهرًا، أو أكثر، طريدًا، مشردًا، ينتظره الموت في كل خطوة.. كل هذا في سبيل ابنته.. في سبيل أن يرضى الله عنه، وينقذ ابنته من أجله.. وفجأة ثبتت البغلة حوافرها في الأرض وتسمرت في مكانها.. فقد رأت أمامها حية خضراء ترفع رأسها في وسط الطريق وهي ترسل فحيحها ثم تختفي في الأعشاب النامية على جانب الطريق.

واستأنفت البغلة سيرها..

وعندما اقتربت من إحدى القرى قرر أن يتوقف خارجها، ويترك

البغلة، ثم يمضي سائرًا حتى يتأكد أنها خالية من رجال البوليس الباحثين عنه، ثم يعود فيركبها ويخترق القرية بسرعة دون أن يتبادل الحديث مع أحد فيما عدا التحية العابرة، فإذا غادر القرية إلى طريق الغابة من الناحية الأخرى، استطاع أن يلتقط آثار جواد الضابط، فيسير في طريقها.. ومع هذا فلم تكن في ذهنه خطة معينة أو مكان خاص ينبغي الوصول إليه.. كل ما كان يريده، هو أن يتعد بقدر الإمكان عن هذه القرية التي أمضى فيها ليلته.. وكان لم يزل محتفظًا بالورقة التي أخذها من الحافظة، في قبضة يده.

وكان بعضهم قد ربط سباطة موز بها نحو خمسين ثمرة في سرج البغلة، بجانب الحقيبة الصغيرة التي يحتفظ فيها بالشموع. وكان بين الحين والآخر يأكل ثمرة موز شديدة النضوج، سوداء رطبة لها مذاق الصابون.. وكانت تترك على شفته العليا أثرًا واضحًا كأنه شارب.

وبعد ست ساعات من المسير المتواصل، وصل إلى قرية لاكانديلوريا، وكانت قرية مستطيلة ذات أكواخ لها أسقف من الصفيح وتقع على فرع من فروع نهر كريجالا.. وتقدم في حذر إلى الشارع المغبر.. وكان الوقت في سمت الأصيل وكانت العقبان جاثمة على أسطح الأكواخ، تحمي رءوسها الصغيرة من حرارة الشمس تحت أجنحتها، وكان ثمة عدد قليل من الرجال راقيدين داخل السرر المعلقة في هذه الظلال الضيقة التي تلقيها المساكن. وراحت البغلة تخب في السرير في الجو الحار بينما كان الراهب يميل معتمدًا على عجرة السرج «رأس السرج».

وتوقفت البغلة من تلقاء نفسها بجانب سرير معلق كان يرقد فيه رجل أخرج ساقه منه ليدفعه بها إلى الحركة والتأرجح حتى يظفر - عن طريق هذه الحركة - بتيار هوائي يستروح به.. وقال الراهب له: «طاب مساؤك».

وفتح الرجل عينيه وراح يرقب الراهب دون أن يجيب. فعاد ذاك يقول:

«كم تبعد المسافة إلى مدينة كارمن؟».

«ثلاثة فراسخ».

«هل أستطيع أن أستأجر قاربًا؟».

«نعم»..

«أين؟»..

ولوح الرجل بيد عجباء كأنما يريد أن يقول: في أي مكان إلا في هذا المكان، وكان أدرد فيما عدا نابين كانا بيرزان من فمه إلى خارج شفتيه، كأنهما بقايا أسنان حيوان تاريخي قديم.. وعاد الراهب يسأل:

«ماذا كان رجال البوليس يفعلون هنا؟».

وهبطت أسراب من الذباب فجأة وحطت على عنق البغلة، فراح الراهب يذبها بطرف عصاه، فطارت في بطاء تاركة وراءها، على عنق البغلة، خيطًا من الدماء، ثم عادت وحطت مرة أخرى على موضع آخر

من جسم البغلة التي بدت كأن الأمر لا يهمها في قليل أو كثير، ومن ثم ظلت واقفة في الشمس برأسها المرتخي لا تريم.

وقال الرجل:

«إنهم يبحثون عن شخص هارب».

«لقد سمعت أن ثمة جائزة مرصودة لمن يقبض على مجرم أمريكي هارب».

وراح الرجل يؤرجح سريره المعلق وهو يقول:

«خير للإنسان أن يكون فقيرًا حيًّا.. على أن يكون غنيًّا ميتًا».

«هل أستطيع أن ألحق بهم إذا واصلت المسير نحو مدينة كارمن؟».

«إنهم لن يذهبوا إلى كارمن».

«لن يذهبوا؟!»

«إنهم ذاهبون إلى المدينة.. أعني العاصمة».

وسار الراهب في طريقه.. وبعد عشرين ياردة تقريبًا، توقف بجانب جوسق مياه غازية وسأل الغلام العامل به قائلاً:

«هل أستطيع أن أستأجر قاربًا أعبّر النهر فيه؟».

«لا يوجد هنا قارب».

«لا يوجد!!».

«لقد سرقه شخص مجهول».

«حسنًا.. أعطني زجاجة سيدرال».

وشرب السائل الغازي الأصفر الفوار الذي تركه أشد مما كان
ظماً، ثم قال للغلام:

«كيف يتسنى لي عبور النهر؟».

«ولماذا تريد أن تعبره؟».

«لأنني في الطريق إلى كارمن.. كيف عبره رجال البوليس؟».

«عبروه سباحة».

فانطلق الراهب ببغلته وهو يهتف بها ليحثها على الإسراع، حتى
إذا تجاوز كشك الموسيقى العتيق والتمثال البدائي الذي يرمز لامرأة
في غلالة رومانية تحمل إكليلاً من الزهور- وكان جزء من القاعدة
محطماً وملقى في عرض الطريق- مضت البغلة في الطريق نحو
الشاطئ.. والتفت الراهب وراءه، فرأى، هناك في أول الطريق ذلك
الرجل ذا النابین جالساً في سريره المعلق يرقبه من بعيد... وانحرفت
البغلة نحو ممر شديد الانحدار يؤدي إلى النهر مباشرة، وعاد الراهب
يلتفت وراءه حيث رأى ذلك الرجل المولد ذا النابین لا يزال في سريره
المعلق، ولكنه كان قد أخرج ساقيه ليهم بالخروج منه.

وشعر الراهب بهذا القلق المألوف الذي يجعله يضرب البغلة
ليحثها على السرعة في السير.. ولكن البغلة ظلت تسير كما تهوى،
منحدرة نحو ماء النهر..

وعندما بلغت حافة الماء على الشاطئ رفضت أن تهبط فيه،

وشق الراهب طرف عصاه بأسنانه ثم غرز الجزء المدبب منها في ردف البغلة، فإذا هي تقتحم الماء في تكاسل. وصعد الماء أولاً إلى الركاب، ثم الركبتين، وشرعت البغلة تسبح دون أن يبدو منها على سطح النهر غير عينيها وفمها.. وكأنما هي تمساح أمريكي..
وصاح رجل على الشاطئ..

والتفت الراهب ورائه، فإذا هو يرى المولد ذا النابين واقفاً عند حافة الماء يهتف له بصوت خافت كأنما يريد أن يبين له أن ثمة سرّاً بينهما لا يجوز لغير الراهب أن يعرفه.. وراح يلوح بذراعيه ويطلب من الراهب أن يقفل عائداً، ولكن البغلة استمرت في السباحة حتى بلغت الضفة الأخرى، وراحت تصعد إلى الشاطئ دون أن يحفل الراهب بأمر ذلك المولد.. فقد كان القلق يستبد به، ومن ثم أخذ يدفع البغلة للانطلاق داخل مزرعة للموز دون أن يلتفت ورائه... وقد كان يعلم في خلال تلك السنوات السوداء أنه لا يستطيع أن يشعر بالراحة والأمن إلا في مكانين: في مدينة كونسبكيون، حيث تقع أبراشيته، وقد أغلقت هذه في وجهه تماماً الآن، والمكان الثاني هو مدينة كارمن حيث ولد، وحيث دفن والده.. وقد ظن، ذات يوم أن هناك مكاناً ثالثاً.. ولكنه قرر ألا يعود إليه مرة أخرى...

ووجه خطام البغلة في الطريق إلى كارمن، ولم يلبثا أن مضيا في ظلال إحدى الغابات.. فإذا استمرا على هذا المعدل في السير، فسوف يبلغان مدينة كارمن مع الليل، وهذا ما يريده، وسارت البغلة دون ضرب، بخطوات سريعة نشطة وقد أرخت رأسها وانسابت منها رائحة

خفيفة من الدماء، ومال الراهب إلى الأمام معتمدًا على عجرة السرج،
واستغرق في النوم..

وحلم أثناء نومه أنه يرى فتاة صغيرة في ثوب حريري أبيض،
تقرأ دعاء المغفرة، وفي مكان ما وراءها وقف الأسقف مع ليف
من راهبات في منتصف العمر، شاحبات الوجوه، متدينات السمات
متزينات بشرائط مزركشة زرقاء. وقال الأسقف وهو يصفق بيديه
مشجعًا:

«عظيم.. عظيم جدًا».

وقال رجل في ملابس الصباح:

«إننا في حاجة إلى مبلغ خمسمائة ليرة لإتمام شراء الأرغن
الجديد. ولهذا اقترحنا أن نقيم حفلة موسيقية خاصة ولعلنا نستطيع».
وتذكر الراهب - في الحلم أنه لم يكن يليق به أن يكون في هذا
المكان. فهو ليس مكان أبراشيته.. وأن عليه أن يعود أدراجه إلى
أبراشيته في كونسبكيون.. ولكنه يرى الرجل مونتي - الرهينة القليل -
يظهر وراء الفتاة ذات الثوب الأبيض ويشير إليه كأنما يريد أن يذكره
بشيء.. لقد حدث شيء لمونتي.. فإن في جبينه أثر جرح عميق،
وشعر فجأة بأن ثمة خطرًا يهدد الفتاة الصغيرة، فهتف في خوف:

«يا إلهي!».

واستيقظ على ترنح البغلة في مسيرها، وعلى وقع خطوات وراءه.
والتفت وراءه.. إنه الرجل المولد ذو النابين يقبل نحوه والمياه

تساقط من ملابسه. فلا شك أنه عبر النهر سباحة.. وكان ناباه، وهو
يبتسم، قد برزا فوق شفته السفلى.

فقال له الراهب في حدة:

«ماذا تريد؟»؟

«لماذا لم تذكر لي أنك ذاهب إلى كارمن؟».

«ولماذا أفعل؟».

«لأنني أريد أن أذهب إلى كارمن أيضًا.. وبديهي أن السفر مع الغير
أفضل من السفر على انفراد».

وكان الرجل يرتدي قميصًا وسراويل بيضاء قدرة وحذاء من
المطاط كانت أصبع قدمه تبدو منه كبيرة صفراء، مستديرة كأنها
إحدى الحشرات التي تزحف في التراب.

واقترب الرجل مصطنعًا المودة نحو الراهب وهو يحك إبطيه
ويقول:

«هل أنت غاضب أيها السيد؟».

«لماذا تناديني بلفظ السيادة؟».

«كل إنسان يستطيع أن يفطن إلى أنك رجل مثقف».

«إن الغابة مباحة للجميع.. المثقف وغير المثقف».

«هل تعرف الكثيرين في كارمن؟».

«لا... أعرف عددًا قليلًا من الأصدقاء فيها».

«أظن أنك ذاهب إليها في مهمة خاصة».

ولم يجب الراهب. وإنما شعر بيد الرجل وهي توضع على قدمه في لمسة خفيفة مسترحمة، وعاد الرجل يقول:

«توجد استراحة صغيرة في الطريق على مسيرة فرسخين من هنا..
ويحسن أن نبيت فيها الليلة».

«إنني مستعجل».

«ولكن ما جدوى وصولنا إلى كارمن في الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل؟ الأفضل أن نقضي الليلة في الاستراحة ثم نصل إلى كارمن في بكور الصباح».

«إنني أفعل ما يحلو لي».

«طبعًا أيها السيد.. طبعًا».

وأخذ الرجل يرمقه قبل أن يستأنف الحديث قائلاً:

«ليس من الحكمة أن يسافر سيد مثلك دون مسدس في بهيم الليل.. أما أنا، فلا يهم أن أسافر مسلحًا أو غير مسلح».

«إنني رجل فقير. ويمكنك أن ترى هذا بنفسك.. وليس معي ما يستحق أن يسرق».

«ولكن لا تنس ذلك المجرم الهارب. يقال إنه رجل شديد الخطر قاتل محترف وقاطع طريق لا يرحم.. إنه يأتي إليك ويقول لك بلغته: قف.. أين الطريق إلى.. أي مكان.. وأنت لا تفهم حديثه طبعًا. وربما بدرت منك حركة غير مقصودة، فيطلق الرصاص ولكن.. لعلك

تعرف اللغة الأمريكية أيها السيد؟».

«إنني لا أعرف بطبيعة الحال.. وكيف أعرفها وأنا رجل فقير، إنني على كل حال لا أحب سماع القصص الخرافية..».

«هل أنت آتٍ من بعيد؟».

وفكر الراهب برهة قبل أن يقول:

«من كونسبكيون».

وبدت على الرجل - برهة - أمارات الاقتناع، فسار بجانب البغلة ويده على الركاب وهو يبصق على الأرض بين الحين والآخر. وكان الراهب، إذا نظر إلى أسفل، يستطيع أن يرى أصبع قدم الرجل تتحرك كأنها دودة على الأرض، ومن المحتمل أن يكون مسالماً، ولكن ظروف حياته هي التي تثير في نفسه الريبة في كل إنسان.. وانتشر على الغابة شفق الغروب، ثم تبعته فوراً أستار الظلام، وظلت البغلة تسير في ببطء، وانطلقت الأصوات المبهمة، المختلفة في كل مكان حولهما، وبدأ الأمر كالمرح عندما تنزل الستار وترتفع مختلف الأصوات والأحاديث في الدهاليز وراء الكواليس، وكانت الأصوات الغامضة في الغابة تصدر من مخلوقات لا أسماء لها.. قد يكون بينها زئير النمر الأمريكي، في مكان ما بكهوف الغابة، وتحركات القردة على أغصان الشجر، وطنين البعوض في كل مكان كأنه صرير آلة خياطة...

وقال الرجل فجأة:

«إن السير يثير الظمأ.. فهل أجد لديك بمحض الصدفة قليلاً من

الشراب؟».

«لا».

«إذا أردت أن تبلغ مدينة كارمن قبل الثالثة صباحًا، فعليك أن تحت البغلة للإسراع في السير.. أعطني العصا».

فقال الراهب في صوت مسترخ ينم عن الرغبة في النوم:

«لا لا.. دعها على طبيعتها».

«إنك تتحدث كأنك قس أو راهب:».

فطار النوم من عينيه، وتلفت حوله، ولكنه لم ير شيئًا تحت الأشجار العالية، ثم قال:

«ما هذا اللغو الذي تتحدث به؟!».

فقال الرجل وهو يربت قدم الراهب:

«إنني مسيحي متدين جدًّا».

«يبدو عليك هذا.. ليتني مثلك».

فبصق الرجل وقال:

«آه.. أعتقد أنه من واجبك أن تأتمن الناس».

«ليس لدي ما أتمن الناس عليه.. فهذا هي سراويلي ممزقة.. وهذه بغلة كما ترى لا تساوي شيئًا».

وساد الصمت برهة، ثم إذا المولد يقول فجأة كأنما كان يفكر في العبارة الأخيرة: «إنها بغلة طيبة إذا عرفت كيف تعاملها.. إنني خبير في

البغال.. والواضح لكل ذي عينين أنها مرهقة مجهدة».

فنظر الراهب إلى رأس البغلة المتأرجح ببلاهة وقال:

«أعتقد هذا!».

«ما هي المسافة التي قطعتها أمس؟».

«نحو اثني عشر فرسخًا».

«حتى البغال تحتاج للراحة».

ورفع الراهب قدميه الحافيتين من الركاب، وهبط إلى الأرض وخطت البغلة فجأة خطوة واسعة، ثم عادت تسير، كما كانت يبطء. وأخذت الجذور والحصى والنباتات الجافة المتناثرة في طريق الغابة تدمي قدمي الراهب وتسيل منها الدماء بعد مسيرة خمس دقائق وقد حاول - عبثًا - ألا يعرج في مشيته وأخيرًا هتف الرجل المولد قائلاً:

«ما أرق بشرة قدميك.. كان الواجب أن ترتدي حذاءً!».

فقال الراهب في صوت ينم عن العناد:

«إنني رجل فقير».

«إنك لن تصل مطلقًا إلى كارمن على هذا المعدل من السير.. كن عمليًا يا رجل فإذا لم تكن بك رغبة في المبيت بالاستراحة الحكومية فإنني أعرف مكان كوخ صغير لا يبعد أكثر من نصف فرسخ من هنا.. وفي مقدورنا أن ننام بضع ساعات فيه ثم نصل إلى كارمن مع إسفار الصباح».

وسمع الراهب حفيظاً وصريراً بالقرب من الطريق، وفكر في
الأفاعي وفي قدميه الحافيتين.. وكان البعوض يدمي معصميه، وكأنما
لسعته كإبر حقن مملوءة بالسّم ومصوبة إلى الشرايين.. وكانت
إحدى الذبابات المضيئة تقترب بين الحين والآخر من وجه الرجل
المولد وترسل عليه شعاعاً باهتاً من الضوء الخفيف.

وقال الرجل أخيراً في لهجة اتهام:

«إنك لا تريد أن تثق بي لأنني رجل يحب أن يسدي الخير للغريب..
لأنني مسيحي متدين.. لا تريد أن تثق بي!».

وكان يبدو أنه يحاول أن يثير مشاعره إلى درجة من الغضب
المصطنع وهو يردف قائلاً: «إذا كنت أريد أن أسرقك، فماذا يمنعني..
إنك رجل عجوز..».

فقال الراهب في رفق:

«لست عجوزاً جدّاً كما تظن».

وبدأ ضميره يتحرك آلياً: كأنه جهاز آلي من النوع الذي يعمل إذا
وضعت فيه قرشاً، أو أي قطعة في حجم القرش. إن كلمات: الكبرياء،
والاشتھاء، والحسد، والجبن والجمود، كلها تحرك لواء ضميره..
فإذا كل معاني هذه الكلمات تنطبق عليه.

وعاد الرجل المولد يقول له:

«هأنذا أسير معك - كدليل ومرشد - بضع ساعات في الطريق إلى
كارمن، ولست أبغي من هذا جزاءً ولا شكوراً لأنني مسيحي طيب..

ومن المحتمل أنني قد ضيعت فرصًا للكسب خلال هذه الساعات..
ولكن.. لا عليك..».

فقال الراهب في وداعة:

«ظننت أنك قلت إن لك أعمالًا في كارمن».

«متى قلت هذا؟».

وفكر الراهب: نعم.. إنه لم يقل هذا. إذن.. فأنا أيضًا.. غير عادل..
ظالم.

واستطرد الرجل قائلاً:

«كيف يمكن أن أقول شيئًا لا يتفق مع الحقيقة: لا.. لقد ضيعت
من حياتي يومًا كاملاً لأساعدك.. ومع هذا فإنك لا تحفل بما يشعر به
دليلك من التعب...».

فقال الراهب محتجًا برفق:

«إنني في غير حاجة إلى دليل».

«إنك تقول هذا بعد أن أصبح الطريق واضحًا سهلاً.. ولكن.. لولا
معاونتي، لاتخذت طريقًا آخر وضللت.. وقد قلت بنفسك إنك لا
تعرف الطريق السوي إلى كارمن.. وهذا هو ما حفزني إلى إرشادك».
وعندئذ قال الراهب:

«ولكن، طبعًا.. إذا كنت تشعر بالتعب الشديد.. فيجب أن
تستريح».

وشعر في أعماق نفسه بأنه مخطئ مذنب بسبب شعوره الطبيعي
بعدم الثقة في الغير.. ولكن.. ماذا في وسعه أن يفعل.. إن هذا الشعور
في نفسه كالنبات الشيطاني، لا تقتلع جذوره إلا السكين..

وبعد نصف ساعة، وصلا إلى الكوخ، وكان مبنياً من الطين
وأغصان الشجر. ومقاماً في منفسح صغير بين الشجر.. وكان الواضح
أنه كان ملكاً لفلاح أرغمته الغابة على الرحيل حين امتدت أشجارها
إلى حقله الصغير وابتلعتة بعد أن عجز تماماً عن مقاومتها بوسائله
البدائية كالمناجل والنيران. وكانت بعض آثار المقاومة لا تزال على
الأرض، سوداء، محترقة، عندما حاول الفلاح أن يقضي على نباتات
الغابة الممتدة إليه ليفسح مكاناً لزراعة بعض المحاصيل البسيطة..

وقال الرجل:

«لسوف أعني بالبعلة.. ويمكنك أن تدخل أنت الكوخ وترقد
لتستريح».

«ولكنك أنت.. الذي تشعر بالتعب».

«أنا أشعر بالتعب..؟ من قال لك هذا؟ إنني لا أعرف معنى التعب
إطلاقاً».

وحمل الراهب مخللة السرج، ومضى - في شيء من الحزن
والأسى، ودفع باب الكوخ، ودخل.. وكان الظلام كثيفاً في الداخل،
فأوقد شمعة رأى على ضوءها أن الكوخ خال تماماً من الأثاث.. لم
يكن به غير نشز مستطيل من الطين فوقه حصيرة عتيقة بالية لا تستحق

مجرد رفعها من مكانها.. وبعد أن ثبت الشمعة في جانب من النشز، جلس على الحصير وراح ينتظر.. وغاب الرجل المولد فترة غير قصيرة.. وكان هو لا يزال يحتفظ في قبضة يده بالورقة التي أخذها من حافظة أوراقه، فقد كان يرى أن على الإنسان أن يحتفظ بأثر من حياته الماضية إذا أراد أن يبقى حيًا..

وتساءل في نفسه: ترى هل سرق المولد البغلة؟! ثم راح يلوم نفسه لأنه لم يحرص على الاستمرار في الشعور بالريبة نحو الرجل.. وفتح الباب، ودخل الرجل بنابيه الصفراوين البارزين، وبأظافره التي يحك بها إبطيه، وجلس على الأرض، واعتمد بظهره على الباب، بعد أن أغلقه، ثم قال:

«ارقد واستغرق في النوم، فإنك متعب، ولسوف أوقظك في الوقت المناسب لاستئناف الرحيل».

«ليست بي رغبة ملحة في النوم».

«إذا أطفئت الشمعة، فسوف تشعر بالرغبة في النوم».

فقال الراهب وقد استبد به الشعور بالخوف:

«إنني لا أحب الظلام».

«ألا تصلي يا أبي قبل أن تستسلم للنوم؟»

فقال الراهب في حدة وهو يحملق - خلال ظلام الكوخ - إلى المولد الجالس مستندًا بظهره إلى الباب:

«لماذا تدعوني هكذا؟!».

«لقد استنتجت هذا طبعاً.. ولكن.. لا حاجة بك لأن تخشاني..
فإني مسيحي طيب».

«إنك مخطئ في ظنك».

«من السهل عليّ أن أقيم الدليل على صحة استنتاجي.. يكفي أن
أعرب لك عن رغبتني في الاعتراف، ولن تستطيع عندئذ أن ترفض
الاستماع إلى اعترافات رجل مثقل بالذنوب».

وصمت الراهب في انتظار أن يبدي المولد رغبته في الاعتراف..
وارتعدت يده القابضة على الورقة.. وقال الرجل في ببطء وحذر:

«لا حاجة بك لأن تخشاني.. فلن أغدر بك.. فإني مسيحي طيب،
وأعتقد أن الصلاة نافعة لنا في هذه الظروف».

«إن الصلوات لا تقتصر على القساوسة فقط.. كل إنسان يستطيع
أن يصلي إذا شاء».

وغمغم بعبارة لاتينية، وأقبلت أسراب البعوض نحو ضوء
الشمعة، وراح هو يدفع عن نفسه الرغبة في النوم.. فلا شك أن للرجل
خطة يريد تنفيذها، نعم إنه واثق من هذا.. وأن ضميره لم يتحرك
ليتهمه هذه المرة بالقسوة والشك الذي لا موضع له.. إنه يعرف أنه
الآن جالس.. مع يهوذا.. الخائن الأبدي..

وأمال رأسه إلى الخلف، واعتمد على الجدار بكتفيه، وأغمض
عينيه قليلاً، وراح يستعيد في ذاكرته الاحتفالات بالأسبوع المقدس
في الأيام الخوالي، عندما كان الناس يصنعون من الغرائر المحشوة

بالقطن تمثالاً ليهودا الإسخريوطي ثم يعلقونه فوق نار مضرمة، بينما الأطفال يقذفونه بالحجارة والعلب الفارغة. وأنه يذكر أن بعض رجال الدين الشيوخ قد أعلنوا احتجاجهم على هذا التقليد، قائلين، إن من الخطأ الشديد أن يهتم الناس في احتفالاتهم بالخائن الأبدي الذي وشى بسيده المسيح.

ولكنه لم يحفل بالاحتجاج، وترك رعايا أبراشيته يحتفلون كما يحلو لهم، فقد كان يرى أن من الخير دائماً أن يتخذ الناس من الخائن الأبدي مادة للسخرية والاحتقار وإلا، فقد يأتي اليوم الذي يعتبره فلاسفة الدين رجلاً حاول أن يحارب ربه، فسقط ضحية نبيلة في معركة غير متكافئة...!

وسمع صوت المولد يأتيه همساً من ناحية الباب:

«هل أنت مستيقظ؟».

وأرسل الراهب، فجأة، ضحكة بلهاء خفيفة وهو يتصور هذا الرجل المولد، تمثالاً محشوّاً بالقطن والأمشاج، مخطط الوجه، على رأسه قبعة من الخوص ومعلقاً في الساحة فوق نار مضرمة، بينما الأهالي يحتفلون بالعيد ويتبادلون الأحاديث السياسية.

وعاد الرجل يقول:

«ألا تستطيع النوم؟».

وهمس الراهب:

«كنت أحلم».

ثم فتح عيناه ورأى الرجل، عند الباب، جالسًا يرتعد بعنف وقد أخذ ناباه يتواثبان فوق شفته السفلى، فقال له:
«إنها حمى بسيطة.. أليديك بعض الدواء؟»
«لا».

وسمع صرير الباب الناتج من ارتعاد ظهر الرجل الذي أخذ يقول:
«لقد أصبت بالרטوبة وأنا أعبر النهر سباحة».
وانزلق راقدًا على الأرض وأغمض عينيه...
وشرعت أسراب من البعوض - ذات الأجنحة المحترقة في لهب الشمعة - تزحف على النشز وأرضية الكوخ. وقال الراهب لنفسه:
لا يجب أن أنام.. إنني في خطر.. يجب أن أراقب هذا الرجل بحذر..

ثم فتح يده وبسط الورقة.. إن عليها سطورًا من الكلمات مكتوبة بقلم رصاص خفيف.. إنها كلمات مفردة.. أوائل عبارات وجمل وأواخرها وبعض الأرقام. إنها الأثر الوحيد الباقي الذي يدل على مدى الاختلاف الرهيب بين حياته هذه، وبين حياته الأخرى في عهد الحرية الدينية.. إنه يحملها معه كأنها تميمة للحظ الحسن، كأنها حجاب يحفظ الإنسان من السوء.. لأنها - أي الورقة - تقول له بصمتها البليغ، إنه ليس من المستحيل أن تعود الحرية الدينية كما كانت..

وبدأ ضوء الشمعة يذوي في جو الكوخ الحار المختنق بالدخان..
وأدنى الراهب الورقة من الضوء الداوي وراح يقرأ الكلمات: جمعية

المحراب.. جماعة العشاء الرباني المقدس.. أبناء العذراء ماري..
ثم تحول بنظراته عبر الكوخ إلى الباب، فرأى المولد يرقبه بعينه
الصفراويين من أثر حمى الملاريا..

إن يهوذا يستطيع أن يواصل المراقبة ساعة أخرى..

وقال الرجل بصوت فيه إغراء مصطنع وهو يرتجف بعنف:

«ما هذه الورقة يا أبي؟».

«لا تنادني بكلمة أبي مرة أخرى!». إنها قائمة بذور نباتية أريد
شراؤها من مدينة كارمن».

«هل تستطيع الكتابة؟».

«أستطيع القراءة».

وعاد ينظر إلى الورقة، حيث خيل إليه أن إحدى العبارات فيها
تطالعه منها ضحكة مازحة، إنها مكتوبة عن شيء «من معدن واحد».
وقد كان يشير بهذه العبارة إلى بدائته وامتلائه بالشحم وعلاقة هذا
بالعشاء الفاخر الذي كان قد فرغ منه في إحدى المأدبات.. وقد تلقى
المدعوون من رعايا أبراشيته هذه الفكاهة منه بالابتسام والضحك
اللطيف..

كانت تلك حفلة تكريم له أقيمت في كونسبكيون بمناسبة
مرور عشرة أعوام على توليه فيها منصبه الديني. وكان جالساً على
رأس المائدة.. ترى من كان جالساً على يمينه؟ وكان ثمة اثني عشر
صحناً أمامه.. وقد حاول أن يتفكه في الحديث فذكر العلاقة بين عدد

الأصحن والأسباط الاثني عشر.. وقد ابتسم المدعوون لفكاهته.. ولا عجب.. فقد كان يومذاك في أوج الرجولة. وكان يحيط به عدد من النساء والرجال المتدينين المزينين ملابسهم بالشارات والأشرطة المذهبة. وقد أسرف قليلاً في شرب الخمر يومذاك، ولم يكن قد أدمن عليها بعد.. آه.. لقد تذكر الآن ذلك الجالس عن يمينه، إنه مونتيز.. والد الرجل الذي أعدموه بعد أن اتخذوه رهينة..

وقد تحدث مونتيز في تلك الحفلة طويلاً.. تحدث عن تقدم جمعية المحراب ونشاطها في العام السابق، وذكر أن رصيد الجمعية قد بلغ اثنتين وعشرين بيزة. وقد سجل الراهب في تلك الورقة هذه الحقيقة فكتب ج. م «جمعية المحراب» ٢٢ بيزة. وقد ذكر مونتيز أيضاً أنه شديد الاهتمام بإنشاء فرع لجمعية سانت فنسنت دي بول. وقد اشتكت بعض السيدات - في تلك الحفلة أيضاً - من رواج بعض الكتب الشريرة في المدينة بعد وصولها من العاصمة على متون البغال، وقالت إنها ضببت ابنها وهو يقرأ رواية «زوج لليلة واحدة». وقد قال هو، في أثناء خطبته، إنه سوف يكتب عن هذا الأمر للحاكم العام.

وفي تلك اللحظة التي قال فيها هذه العبارة، التقط أحد المصورين صورة للحفلة بعد أن أطلق ضوء المغنسيوم... وإن الراهب ليتذكر نفسه في تلك اللحظة تمامًا كأنه شخص غريب ينظر إلى الحفلة من الخارج بعد أن لفت أسماعه أصوات الحديث والمرح والسرور، فهو يرى في شيء من الحسد، أو اللهو، هذا الراهب البدين واقفاً، رافعاً يده في وقار وسؤدد، ولسانه ينطق - ببساطة - بكلمة «الحاكم» وأفواه

المجتمعين فاغرة ببلاهة، ووجوههم بيضاء ساطعة بضوء المغنسيوم الذي محا الخطوط والسمات العامة عنها.!

وقد أعادته هذه اللحظة من الوقار والسؤدد إلى الحديث الجاد المتزن الخالي من الفكاهات والدعابة، فقال: «إن مبلغ الاثنتين وعشرين بيزة الذي وصل إليه رصيد جمعية المحراب ليس هو الحافز الوحيد لتبادل التهئة فيما بيننا - رغم كونه حدثًا عظيمًا في كونسبكيون - ذلك أن جمعية أبناء ماري قد زاد عددها تسعة أعضاء جدد، وجماعة العشاء الرباني المقدس، استطاعت في الخريف الماضي أن تؤدي لنا خدمات جليلة. ولكن هذا النجاح المتواصل يجب ألا يغرينا بالتكاسل. وأنا أعترف أن لديّ خططًا ومشاريع قد تثير دهشتكم، ولا شك أنكم الآن تعتقدون أنني رجل طموح واسع الآمال، حسنًا، إنني أريد أن نقيم في كونسبكيون مدرسة أفضل.. وهذا يعني تعليمًا دينيًا أفضل، إننا هنا أبراشية كبيرة، ويجب أن يحاط راعيها بالمظهر اللائق.. وأنا لا أتحدث عن نفسي، وإنما الكنيسة. ولن نتوقف عند هذا الحد، رغم أن الأمر يقتضي - حتى في مدينة مثل كونسبكيون - مرور بضع سنوات قبل أن نجمع المال الكافي لتنفيذ هذه المشروعات..» وكان يتخيل، وهو يتحدث، صورة مستقبله الذي يمتد أمامه.. لقد كانت الآمال والمطامح تملأه... إنه لا يرى أي سبب يحول بينه، في يوم ما، وبين أن يجد نفسه أسقف الكاتدرائية في العاصمة، تاركًا راعيًا غيره في كونسبكيون، يسدد ديون مشروعاته. واستمر في خطابه وهو يلوح بيده البدينة في بلاغة قائلًا: «ولكن كثيرًا من الأخطار - طبعًا - هنا،

في المكسيك تهدد كنيسةنا العزيزة، ونحن في هذه الولاية أسعد حظاً من غيرنا، فإن رجالاً كثيرين فقدوا حياتهم في ولايات الشمال، ولكن علينا أن نعد أنفسنا..» ثم رطب حلقه بجرعة من الخمر قبل أن يتم عبارته قائلاً: «لأسوأ الاحتمالات.. وواجبنا أن نرقب ونصلي..» وتوقف برهة قبل أن يستطرد قائلاً في غموض: «نعم.. وواجبنا أن نرقب ونصلي.. فإن الشيطان كالوحش الثائر».

وكانت المدعوات من «جمعية أبناء ماري» ينظرون إليه بعيون محملقة، وأفواه فاغرة، والشرائط المطرزة الزرقاء تزين الأجزاء العليا من ملابسهن القاتمة..

وظل يتحدث طويلاً وهو مستمتع برنين صوته.. وأحمد حماس مونتيث لإنشاء فرع لجمعية سانت فنسنت دي بول؛ لأنه كان يرى عدم تشجيع رجل مدني على القيام بمثل هذه المشروعات الدينية. وقد سرد عليهم قصة مشوقة عن طفلة كانت على فراش الموت بعد إصابتها بمرض السل، وكانت متدينة شديدة الإيمان وهي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها.. وقد سألت عن الواقف بالقرب من سريرها، فقبل لها إنه الأب «فلان» فقالت: «لا.. إنني أعني ذلك الواقف وعلى رأسه تاج من الذهب».

ولما فرغ الراهب من قصته، بكت إحدى أعضاء العشاء الرباني المقدس من فرط التأثر، وشعر كل مدعو بالرضى والسعادة. وكانت قصة واقعية تلك التي سردها عليهم في تلك الحفلة، ولكنه لم يستطيع أن يتذكر أين سمعها.. لعله قرأها في كتاب ذات يوم. ووضع أحدهم

بعض الخمر في كأسه، واستأنف هو خطابه قائلاً: «يا أبنائي».

... وفيما كان الرجل المولد يتحرك ويغمغم بجانب الباب، فتح الراهب عينيه، فإذا ذكريات تلك الحياة الماضية تتلاشى كالحلم العذب، وإذا هو راقد بسرأويله المدنية الممزقة على نشز من الطين في كوخ مظلم مهجور، وجائزة ضخمة مرصودة للقبض عليه. لقد تغير العالم كله.. فلم تبق هناك كنائس، ولا زملاء من رجال الدين فيما عدا بادر جوزيه- الراهب المنبوذ بالعاصمة- وتساءل في نفسه لماذا لم ينهج سبيل بادر جوزيه ويخضع لقانون زواج الرهبان؟ وقال لنفسه: لأنني شديد الطموح.. هذا هو السبب ولعل بادر جوزيه أفضل عند الله مني.. فقد بلغ من التواضع حدًا جعله يتقبل برحابة صدر كل ألوان السخرية والتحقير.. وقد كان في أسعد الأيام لا يعتبر نفسه جديرًا برسالة الكهنوت.. وقد حدث ذات يوم أن أقيم اجتماع عام للقساوسة ورهبان الأبراشيات في العاصمة، في عهد الحرية الدينية والحكومة السابقة، وإنه ليذكر كيف كان بادر جوزيه يلجأ إلى الصف الأخير ليكون بعيدًا عن أنظار المجتمعين. فلا يحاول أن يفتح فمه بالحديث.. ولم يكن يفعل هذا عن خطة مرسومة، وإنما عن تواضع شديد ينم عن إيمانه العميق بالله. وعندما كان المجتمعون يبدأون في رفع القرابين المقدسة، كانت يدها ترتعدان، لا كما كان القديس توماس يفعل حين يضع يديه في داخل جراحه ليزداد إيمانًا- ولهذا أصبحت الدماء تنساب دائمًا فوق كل مذبح- وقد حدثه بادر جوزيه في نوبة من الثقة المتبادلة قائلاً: «في كل مرة كنت أشعر.. بأشد الخوف».

وقد كان والده من العمال الزراعيين - أو على الأصح - من عبيد الأرض...

أما هو - الراهب - فقد كان الأمر جد مختلف معه.. كانت له مطامح وآمال.. ورغم أنه أوسع ثقافة من بادر جوزيه، إلا أن والده كان أمين مخزن، وكان يعرف القيمة الحقيقية لرصيد يبلغ ٢٢ بيزة، ويعرف كيف يستطيع أن يستغله في عمليات الرهن والاستثمار.. ولم يكن بطبيعة الحال قانعاً بالبقاء مدى حياته مجرد راع لأبراشية صغيرة. وإنه ليشعر الآن بمطامحه هذه ترتد إليه كأنها شيء يثير الضحك والسخرية.. ووجد نفسه فجأة يرسل ضحكة تنم عن الدهشة والمرارة.. وفتح الرجل المولد عينيه وقال:

«ألا تزال مستيقظاً؟».

فقال وهو يمسح العرق عن وجهه بكم قميصه:

«ولماذا لا تنام أنت؟!».

«إنني أشعر برعدة برد شديد».

«إنها الحمى.. أتحب أن أخلع عليك قميصي هذا.. إنه شيء بسيط.. ولكن.. قد ينفعك».

«لا لا.. لا أريد منك شيئاً.. فإنك لا تثق بي».

نعم.. لو كان يعرف معنى التواضع والخضوع، لأمكنه الآن أن يعيش في العاصمة مع ماريا متمتعاً بالأمن وبالمعاش الدائم. ولكنها الكبرياء.. الكبرياء الشيطانية، هي التي تدفعه الآن لأن يقدم قميصه

للرجل الذي يريد أن يغدر به.. وحتى محاولاته للهرب كان يعدل عنها في اللحظات الأخيرة بدافع الكبرياء.. بدافع الخطيئة التي جعلت أحد الملائكة شيطاناً. وقد تضاعف شعوره بهذه الكبرياء عندما أصبح الراهب الوحيد الباقي في الولاية، إنه بمثابة شيطان - هكذا فكر - يبشر بالإيمان معرضاً حياته للخطر آملاً في حسن الثواب ذات يوم...

وراح، في ضوء الكوخ الخافت، يدعو ويبتهل بحرارة قائلاً:

«يا إلهي.. أسألك الصفح والغفران.. إنني رجل متكبر.. طماع.. شهواني.. لقد أسرفت في حب المجد والسؤدد.. وهؤلاء الناس هم، في الحقيقة - الشهداء؛ لأنهم يحمونني بتعريض حياتهم للموت.. إنهم جديرون بقديس يرعاهم، لا بأحمق مأفون مثلي يهوى كل قبيح وتافه من مظاهر الحياة».

ومرة أخرى، وجد نفسه يواجهه - بعد الاعتراف الشخصي - هذه المشكلة الحائرة:

«ماذا يجدر بي أن أفعل؟».

وعند الباب، كان الرجل المولد يتقلب في نومه غير المريح..

ما أقل ما يذكي روح الكبرياء في نفسه هذه الايام! إنه لم يؤد غير أربعة قداسات في هذا العام، ولم يسمع أكثر من مائة اعتراف.. وليس هذا بالشيء الكثير، فإن أقل حارس أبله للمدافن يستطيع أن يقوم بأكثر من هذا..

ونفض واقفاً في حذر، وراح يسترق الخطى على أطراف أصابعه

عبر الكوخ.. يجب أن يمضي إلى كارمن.. ثم ينطلق فيها.. قبل أن يستيقظ هذا الرجل الذي كان فمه مفتوحًا يكشف عن لثته الخالية من الأسنان، فيما عدا النابين.. وكان يغمغم ويتحرك في منامه، ثم إذا هو يستلقي على الأرض ساكنًا..

وبدأ عليه - على الرجل - سمت الإنسان الذي يئس من المقاومة، فسقط ضحية للقوة الغالبة. ولم يكن على الراهب إلا أن يخطو فوق ساقيه ويدفع الباب الذي كان يفتح إلى الخارج.

وفيما هو يخطو فوق ساقَي الرجل، إذا بيد تمسك بقدمه وإذا صوت المولد يقول وهو يحدق فيه:

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«أريد أن أقضي حاجة».

فظلت اليد قابضة على القدم، والرجل يقول:

«ولماذا لا تقضيها هنا؟!».

ثم أردف يقول بصوت الكلب المتوجع:

«ماذا يمنعك من قضاء حاجتك هنا يا أبي.. إنك أب.. أليس

كذلك؟!».

«إن لدي ابنة من صلبِي ومن امرأة.. إذا كان هذا ما تعني به من

كلمة أب».

«إنك تعرف ما أعني.. وإنك تعرف الله.. أليس كذلك؟».

واشتدت قبضة اليد المحمومة على قدم الراهب، والرجل يستطرد
قائلاً:

«وأنت ظل الله على الأرض.. أليس كذلك.. إن الله دائماً معك
لتبارك به المرضى. حسناً، وأنا مريض.. فلماذا لا تسبغ بركته عليّ.. أم
أن الله يريد ألا تكون لمثلي أية علاقة به! آه.. لو كان يعلم!».

ولكن الرجل لم يتوقف.. بدا في نظر الراهب كإحدى هذه
الآلات التي رآها ذات مرة في حقل بترول وهي ترسل السائل الأسود
في الجو إلى ارتفاع بعيد.. وكان هذا الحقل البترولي قد اكتشف في
ضواحي كونسبكيون، ولكن ثبت فيما بعد أنه لا غناء فيه.. فقد ظلت
الآلة الخاصة ترسل السائل الأسود مدة ثمان وأربعين ساعة، بمعدل
خمسین ألف جالون في الساعة.. وكان السائل الأسود يجري على
الأرض القاحلة ويمضي بعيداً إلى العدم.. وأن الراهب ليشبه هذا كله
بالإحساس الديني في نفوس بعض الناس.. عمود مرتفع من الدخان
والسوائل السوداء تنبثق فجأة ثم يمضي إلى العدم..

وعاد الرجل المحموم يقول:

«هل أخبرك ماذا فعلت؟ إن من واجبك أن تسمع.. لقد سرقت من
النساء مآلاً، أتعرف لماذا.. لا..».

«إنني لا أريد أن أسمع».

«هذا واجبك».

«إنك مخطئ».

«لا.. لست مخطئ.. إنك لن تستطيع أن تخذعني.. لقد كنت أنفق المال- إنك تعرف ما أعني.. وكنت أكل اللحوم في أيام الجمع».

وظلت اليد المحمومة القابضة على قدم الراهب تزداد ارتعادًا، وظل لسان الرجل يتلوى كالأفعى بين نابيه الأصفرين وهو يرسل هذا الخليط الرهيب من البلاهة قائلاً:

«وقد كذبت كثيرًا.. ولم أقم بفرض الصيام الكبير مرة واحدة في حياتي، وقد جمعت ذات مرة بين زوجتين.. وسوف أخبرك ماذا فعلت.. أيضًا».

وكان الرجل يتحدث وهو يشعر بأهميته الشخصية، وكأنما لا يدري أنه مجرد قطعة نموذجية من عالم كله العنف والقسوة والغدر والشهوة.. عالم أسود كأنه المحيط الذي تضيع فيه قطرات الخطايا التي ارتكبتها هذا الرجل. كم مرة سمع فيها الراهب مثل هذه الاعترافات؟ ما أضيق حدود خطايا الإنسان؟ إن هذا المسكين الذي يظن أنه أكبر الأثمين لم يستطع أن يبتكر لونًا جديدًا من الخطايا.. وفي سبيل هذا العالم قد تعذب المسيح في دنياه.. وعلى قدر ما يكون حولك من شرور وآثام، يكون المجد في التضحية. فليس أسهل على الإنسان أن يموت من أجل الدفاع عن الأهداف الطيبة الجميلة.. عن أولاده وأسرته ووطنه والحضارة البشرية.. ولكن.. أية روعة.. وأي مجد يكمل هام الرجل الذي يضحي بحياته في سبيل هؤلاء المذنبين.. المحطمين.. الضالين!

وقال للرجل أخيرًا:

«لماذا تقول لي هذا كله؟».

ورقد الرجل متهاكًا مجهدًا.. ولم يقل شيئًا.. وبدأ العرق يتفصد من جسمه، وتراخت قبضته عن قدم الراهب الذي دفع الباب وغادر الكوخ.. وكان الظلام كثيفًا في الخارج.. فكيف يعثر على بغلته؟ لقد وقف يرهف السمع.. إنه يسمع عواء حيوان غير بعيد.. وإن الخوف يستبد به.. وإنه ليعود إلى الكوخ: لقد انطفأت الشمعة.. ولقد عكر صفو السكون ببققة صوت كرية.. إن الرجل الملون يبكي.. وإن الراهب ليذكر مرة أخرى ذلك السائل الأسود المنبثق من الآلة.. وصوت ببققته وهو يتجمع في بحيرات صغيرة قبل أن يسيل ويمضي إلى العدم..

وعاد الراهب إلى الخارج، وأشعل عودًا من الثقاب، وسار إلى الأمام في خط مستقيم: خطوة.. وثانية.. وثالثة.. واصطدم بشجرة.. فإن ضوء عود الثقاب في بحر الظلام لا يزيد عن ضوء ذبابة مضئية.. وهمس ينادي بغلته:

«ميولا.. ميولا!».

لقد كان يخشى أن يسمعه الرجل المولد.. ولم يكن من المحتمل أن تستجيب البغلة الحمقاء لندائه حتى لو رفع صوته.. وشعر بالكراهية لها.. لرأسها المتراخية الملتوية، ولفمها الشره الأكل الذي لا يكف عن المضغ.. ولرائحتها المفعمة بالروث والدماء...

وأشعل عودًا آخر من الثقاب واستأنف الخطو.. ومرة أخرى - بعد

خطوات معدودة اصطدم بشجرة.. وفي داخل الكوخ، استمر صوت بقبة السواد المنبثق من نفس بشرية. إن عليه أن يصل إلى كارمن قبل أن يتمكن هذا الرجل من الاتصال برجال البوليس وعاد يستأنف السير بحذر، ولكنه بعد الخطوة الرابعة يصطدم بشجرة، وتحرك شيء بالقرب من قدميه.. وفكر في العقارب.. ومرة أخرى.. خطوه وثانية وثالثة.. وسمع صوت البغلة، فقد ارتفع صوتها العجيب الكريه في سكون الليل كأنما تعلن عن شعورها بالجوع أو عن إحساسها باقتراب حيوان وحشي.

كانت مربوطة على مسافة بضع ياردات وراء الكوخ.. وكان الرجل المولد قد رفع عنها السرج وأخفاه.. وقرر الراهب ألا يضيع الوقت في البحث عنه لاسيما وقد أوشكت أعواد الثقاب على النفاد.. ولما ركب البغلة، تبين استحالة دفعها إلى الحركة بدون عنان - ولو كان قطعة من الحبال - أو بدون عصا.. وحاول أن يلوي أذنيها ولكنها كانا فاقدتي الإحساس كمقبض الباب، فقد وقفت متسمة في مكانها كأنه فوقها تمثال فارس. وأشعل عودًا من الثقاب ولسعها بناره، فأطلقت ساقها الخلفيتين في رفسة مفاجئة جعلت الثقاب يسقط من يده، ثم عادت وتسمرت في موضعها..

وفجأة سمع صوتًا يقول في لهجة عتاب:

«أتريد أن تتركني هنا لأموت؟!».

«ما هذا اللغو؟ إنني أريد الإسراع بالذهاب إلى كارمن.. هذا كل ما في الأمر، ولسوف تصبح على ما يرام في الصباح، أما أنا فلا أستطيع

الانتظار...».

وسمع في الظلام حركة مفاجئة، ثم إذا باليد المحمومة تقبض على قدمه، وإذا الرجل يقول في صوت ملهوف:

«لا تتركني وحيداً.. إنني ابتهل إليك.. كرجل مسيحي».

«إنك غير معرض لأي خطر».

«من أين تدري وذلك المجرم الأمريكي الهارب قد يكون في هذه المنطقة؟».

«إنني لا أعلم شيئاً عن ذلك المجرم.. ولم ألتق بأحد يعرف عنه شيئاً، ثم هو لا يعدو أن يكون رجلاً.. مثلي ومثلك».

«إنني لا أريد أن أترك وحيداً.. فأني أشعر...».

فقال الراهب في ضجر واستسلام:

«حسنًا جدًّا.. ابحث عن السرج والركاب».

وبعد أن أسرجا معًا البغلة استأنفا الرحيل في الغابة.. الراهب راكبًا، والمولد سائرًا قابضًا بيده على الركاب.. وكان الصمت منعقدًا بينهما، وفي بعض الأحيان كان المولد يتعثر في مشيته.. وبدأت طلائع الفجر الباهتة ترسل أرق أطيافها، وأحس الراهب بنوع من السرور العنيف الجائر كأنه قطعة من الفحم المتوهج في الجزء الخلفي من رأسه.. فها هو ذا يهوذا يسير بجانبه، مريضًا، مفزعًا من الظلام، إن في مقدوره الآن أن يضرب البغلة فتنتطلق به تاركة رمز الخيانة منبوءًا وحيدًا في جوف الغابة.. وقد حدث أن غرس طرف العصا في ردفها

فراحت تسير بخطوات سريعة متوثبة.. وكان يشعر في تلك اللحظات بذراعي الرجل وهو يحاول جذب الركاب بكل ما فيه من قوة واهنة.. ثم سمعه يغمغم كأنه يقول: «عفوك يا إلهي» وأعاد البغلة إلى سيرها البطيء، وشرع يتمتم بصلاة خافتة «غفرانك يا رب» فقد تعذب المسيح من أجل هذا الرجل أيضًا... فكيف يخطر بباله أنه بكبريائه، وشهواته، وجبنه، أفضل من هذا الرجل المولد؟ إن هذا الرجل ينوي أن يخونه ليظفر بمال هو في أشد الحاجة إليه «أما أنا» هكذا حدث الراهب نفسه «فقد خنت الله بدون أي سبب.. حتى ولو بسبب شهوة حقيقية..».

وقال للرجل:

«هل اشتد المرض عليك؟».

ولما لم يسمع ردًا، ترجل عن البغلة وقال:

«اركب أنت وسوف أسير بجانبك قليلًا».

فقال الرجل بصوت كله الكراهية:

«إنني في أحسن حال».

«بل يحسن بك أن تركب».

فعاد الرجل يقول:

«أعتقد أنك عظيم ونبيل لأنك تساعد أعداءك... هذه هي تعاليم

المسيح.. أليس كذلك؟!».

«وهل أنت عدو لي؟»

«هذا ما تعتقده أنت.. فأنت تظن أنني أريد الحصول على السبعمئة
بيزة.. أعني الجائزة.. إنك تعتقد أن رجلاً فقيراً مثلي لا يستطيع أن
يملك نفسه ولا يخبر البوليس عنك».

«إنك محموم..».

فقال الرجل في لهجة خبيثة:

«نعم.. إنك مصيب طبعاً».

«إذن يحسن بك أن تركب».

وسقط الرجل على الأرض.. واضطر الراهب إلى أن يعينه على
الركوب، وتهالك الرجل أخيراً فوق ظهر البغلة وقد تدلت رأسه إلى
مستوى وجه الراهب، وراحت أنفاسه الكريهة تصل إلى أنف الراهب
وهو يقول:

«ليس للرجل المعدم حق الاختيار يا أبي.. فلو أنني كنت على
شيء من الثراء يسير، لأصبحت رجلاً فاضلاً».

وتذكر الراهب فجأة، وبدون سبب، منظر أعضاء جمعية ماري
وهم يأكلون الحلوى، ثم تساءل في نفسه: أهذا هو كل الفضل والخير!
وأرسل فجأة ضحكة بلهاء وقال: «إنني أشك في هذا؟».

وقال الرجل في حديثه المحموم:

«ماذا قلت يا أبي؟ إنك لا تريد أن تثق بي لأنني رجل فقير.. ولأنك
لا تثق بي».

ثم سقط متهاكاً، مغشياً عليه، فوق عجرة السرج. وراحت أنفاسه

تلهث وهو يرتعد، وأسندته الراهب بيده، وسار الركب في بطاء نحو كارمن. ولكن.. ما جدوى وصوله إليها..! إنه لن يستطيع المكث فيها الآن.. بل ليس من الحكمة أن يدخلها، فلو عرف رجال البوليس أنه مر بها، فسوف يقتلون الرهائن التي أخذوها منها...

وسمع من مكان ما.. بعيد.. صياح الديك.. وابتدأ الضباب يرتفع من سطح الأرض المشبعة بالماء الآسن، وأخذ هو يتساءل: ترى في أية ساعة من الفجر يصيح الديك؟ إن من أغرب المظاهر في هذه المناطق خلوها التام من الساعات الدقاقة الكبيرة.. فإنك قد تمضي عامًا كاملاً دون أن تسمع دقائق واحدة منها.. لقد ذهب هذا النوع من الساعات الذي يذكر الناس بنواقيس الكنائس مع الكنيسة.. وهكذا ترك الإنسان بمفرده ليتعرف على الوقت بشروق الشمس وغروبها..

وشيئاً فشيئاً بدأ جسم الرجل المولد يتوضح وهو متهالك على عجرة السرج، فظهرت خطوط وجهه الشاحب، وفمه المفتوح والناناب الأصفران بارزان فوق الشفتين.. حقاً إنه لجدير بالمكافأة- هكذا راح الراهب يفكر- فإن مبلغ سبعمائة بيزة ليس بالثروة الكبيرة ولكنه- أي المولد- يستطيع أن يعيش به في تلك القرية النائية الموحشة لمدة عام كامل.

وعاد يضحك ببلاهة مرة أخرى.. إنه لا يستطيع أن يأخذ مشكلة امتزاج المصائر البشرية مأخذ الجد وإنما هو يظن أن من المرجح إنقاذ روح هذا الرجل إذا أُتيحت له الحياة المستقرة الناعمة لمدة عام، فما عليك إلا أن تقلب أية حالة على جانبها الآخر حتى تنبثق أمامك هذه

الحالات الأخرى الصغيرة المضادة.. فقد حدث أن استسلم ذات يوم لليأس، فانبثقت من هذه الحالة روح بشرية جديدة، وحب - نعم ليس بالحب الفاضل الشريف، ولكنه حب على كل حال.

وفجأة قال الرجل المولد:

«إنه القدر.. لقد أخبرني أحد المنجمين يومًا.. أن.. أن في حياتي جائزة».

وأمسك بالمولد ليثبته فوق السرج، واستمر في المسير.. لقد كانت قدماه تدميان، ولكنه كان يعرف أنهما لن يلبثا حتى يجفا ويخشوشنا ويتعود على هذا النمط من الحياة.. وخيم على الغابة جو رهيب من السكون، وازداد ارتفاع الضباب من الأرض المنشعة حتى شمل كل شيء. فقد كان الليل زاحراً بالأصوات الغامضة المبهمة.. أما الآن.. فقد كان كل شيء ساكناً.. وكأنما هي الهدنة بعد أن توقفت المدافع عن إطلاق نيرانها بين الجانبين، وكأنما العالم كله يرهف السمع إلى ما لم يسبق لأحد أن يسمعه.. إلى السلام.

وسمع صوتاً يقول له:

«أنت الراهب المختفي.. أليس كذلك؟!».

«نعم».

وكانما هو قد خرج أخيراً من خندقه في الجبهة المعادية وراح ليلتقي مع هذا الرجل في المنطقة الحرام بين الأسلاك الشائكة.. إنه يتذكر قصص الحرب العالمية وكيف كان بعض جنود الجبهتين

المتعادتين في شهورها الأخيرة يلتقون - بدافع فجائي - بين خطوط القتال فيقول أحدهم للآخر: «هل أنت ألماني؟» فيرد عليه الآخر بنفس اللهجة الهادئة التي لا تخلو من الشعور الإنساني: «وهل أنت إنجليزي؟!».

«نعم..».

كررها مرة أخرى والبغلة تكد في سيرها إلى الأمام وراحت الأفكار العاصفة، المفعمة بذكريات الماضي، تدور في ذهنه، وأخيرًا قال للرجل المولد في صوت رقيق:

«هل تشعر بتحسن الآن؟! هل خف شعورك بالحرارة.. أو بالبرودة!..».

ثم وضع يده بحنان مفاجئ على كتف الرجل..

ولم يجب الرجل بشيء وإنما ظل يتأرجح على ظهر البغلة من هذا الجانب إلى ذاك وهي تكد في سيرها..

وعاد الراهب يقول مشجعًا:

«لم يبق من المسافة الآن غير فرسخين».

وكان عليه، وهو يقترب من المدينة، أن يحزم أمره.. إن في ذهنه عنها - عن مدينة كارمن - صورة أوضح من صور أية قرية أو مدينة في الولاية: المنحدر الطويل المكسو بالعشب، والصاعد من النهر إلى ساحة المدافن الواقعة على قمة تل صغير لا يزيد ارتفاعه عن عشرين قدمًا.. إن والديه مدفونان في تلك المدافن.. وإن سياجها الحجري

المحيط بالساحة قد انهار، وإن صلياً أو اثنين قد تحطما بأيدي بعض المتعصبين من ذوي القمصان الحمراء، وتمثال ملاك قد فقد أحد جناحيه الحجريتين، أما ما تبقى من شواهد القبور ومعالمها غير تحطيم فقد ظل ملقى على أرض الساحة المنشعة. وكذلك تمثال العذراء فقد الأذنين والذراعين وظل قائماً - كأنه تمثال فينوس الوثني - فوق قبور أحد الأغنياء المنسيين من تجار الخشب. وإنها لعجيبة، هذه الثورة العارمة للمحو والإزالة؛ لأن الإنسان مهما حاول - في ثورته - أن يمحو ويزيل آثار السلف، فإنه لن يبلغ حد النجاح الكامل؛ لأن الآثار - المادية والأدبية - هي من صنع الإنسان، فإذا أراد أن يقضي عليها تماماً. فعليه أن يقضي على الإنسانية نفسها.. أي على نفسه أولاً..

وقال للرجل المولد:

«هل تحسنت الآن بحيث تستطيع أن تثبت بنفسك فوق البغلة؟»
ورفع يده التي كان يسند بها الرجل حين تشعب الطريق إلى ناحيتين.. أحدهما تؤدي إلى كارمن، والأخرى نحو الغرب.. ودفع البغلة بقوة نحو الطريق المؤدي إلى كارمن وأهوى بالعصا على ردفها قائلاً للمولد:

«لسوف تصل البغلة بك إلى كارمن في خلال ساعتين».

ثم وقف يرقب البغلة وهي تنطلق نحو مسقط رأسه، حاملة الرجل المولد متهاكاً فوق ظهرها..

وحاول الرجل أن ينتصب جالساً فوق البغلة وهو يقول:

«وأنت إلى أين ستمضي؟».

«لسوف تكون شاهداً على أنني لم أدخل كارمن.. ولكن يمكنك أن تظفر من رجال البوليس بطعام إذا أنت قلت لهم إنك رأيتني».

وحاول المولد أن يلوي رأس البغلة نحو الراهب وهو يقول:

«ولكن.. لماذا.. لماذا؟».

وقال الراهب مؤكداً:

«لا تنس أن تخبرهم بأني لم أدخل كارمن».

ولكن.. إلى أي مكان آخر يمكن أن يذهب! لقد أدرك فجأة عن يقين - بأن مكاناً واحداً فقط، في الولاية كلها، هو الذي يمكن أن يلجأ إليه دون الخوف من أن يؤخذ أحد الأبرياء رهينة، إنه مخزن الموز في مسكن الكابتن فيلوز حيث الفتاة العجيبة كورال ولكنه لا يستطيع أن يذهب إلى هذا المكان بمثل هذه الملابس.

وتشبث الرجل المولد بقوة في عجرة السرج وهو يستدير برأسه ويحدق في وجه الراهب بعينين صفراوين ملهوفتين، ثم يقول في استعطاف:

«إنك لا تستطيع أن تتركني هنا.. وحيداً!».

إنه لم يترك في ذلك المكان الرجل المولد فحسب، وإنما ترك ما هو أهم وأثمن منه.. فقد وقفت البغلة في عرض الطريق برأسها المرتخي الأحمق كأنها حاجز بينه وبين المدينة التي ولد فيها. فلا عجب إذا شعر في تلك اللحظة بأنه كرجل ضائع بغير جواز مرور لا يسمح له بالهبوط

في أية ميناء..

وصاح الرجل المولد فيه بعد أن استطاع أن يتصب على متن
البغلة جالسًا:

«أتسمي نفسك مسيحيًا يا...».

وأخذ ينهال عليه بألوان الشتائم والسباب.. سلسلة ألفاظ بذيئة
لا معنى لها راحت تنطلق من بين نابيه في جو الغابة كأنها ضربات
خفيفة لمعول في يد طفل. ولم يعجب الراهب لهذا الغضب المفاجئ
الذي استبد بالرجل.. بل التمس له العذر.. فلا شك أنه ضيع عليه قيمة
الجائزة.. سبعمائة بيضة.

واختتم المولد صيحاته البذيئة وهو يقول بصوت كالفحيح:

«إذا رأيتك مرة أخرى فلا تلمني.. إنني لا أنسى وجهًا رأيتَه!».



الفصل الثاني

أخذ الشبان والشابات يجوبون الساحة دورة بعد أخرى تحت أضواء المصابيح الكهربائية الحارة: الشبان في طريق.. والفتيات في طريق آخر.. وكل من الفريقين لا يوجه الحديث إلى الفريق الآخر، وكانت ومضات البرق تلمع في الجانب الشمالي من السماء، وكانت حركات الشبان والفتيات تبدو في مظهرها كأنها حفلة دينية فقدت كل معنى رغم ارتداء الجميع لأفضل ما لديهم من ثياب. وفي بعض الأحيان كانت جماعة من النسوة العجائز يشتركن في الاحتفال ضاحكات مبتهجات كأنما يستعدن في ذاكرتهن صور الأيام الماضية السعيدة، قبل أن تُحرق جميع الكتب.. وكان ثمة رجل يضع فوق ردفه غدارة يرقب الاحتفال وهو واقف على سلم الإدارة المالية وشرطي عجوز ضئيل الحجم كان يجلس عند باب السجن وعلى ركبتيه بندقيته، وكانت ظلال سعف النخيل متجهة نحوه كأنها مجموعة من

الحراب الملتوية، وكان الضوء ينبعث من نافذة عيادة طبيب الأسنان، حيث كان يتألق على مقعد خلع الأسنان، وعلى الحشايا الجلدية الحمراء، وعلى كوب «المضمضة» الموضوع فوق حامله الخاص، وعلى خزانة الأدراج الصغيرة الزاخرة بمختلف الأدوات..

أما فيما وراء النوافذ ذات الشبكات السلكية للمنازل الخاصة فقد كانت الجدران العجائز يتأرجحن على المقاعد الهزازة، بين صور أفراد العائلة المعلقة على الجدران لا يفعلن شيئاً، ولا يتحدثن بشيء وإنما يرتدين الملابس الكثيرة، ويعرقن قليلاً.. فتلك هي عاصمة الولاية..

وعلى مقعد في الساحة، كان ثمة رجل في بذلة كتانية يرقب كل ما يجري أمامه، وسارت شرذمة من رجال البوليس المسلحين في الطريق إلى معسكرها.. وكان الجنود يحملون البنادق كيفما اتفق ويسيرون بخطوات غير منتظمة. وكانت الساحة مضاءة بمصابيح كهربائية في مجموعات، كل مجموعة ثلاثة مصابيح، وكلها معلقة في أسلاك غليظة قبيحة المنظر.. وكان أحد المتسولين ينتقل من مقعد إلى آخر يلتمس الإحسان على غير جدوى. وأخيراً جلس بجانب الرجل ذي البذلة الكتانية وراح يسهب في شرح ظروفه! وكان يبدو في حديثه وتصرفاته مزيج من الرجاء، والتهديد في آن واحد. وكانت الشوارع تنحدر في كل ناحية، نحو النهر والميناء، ثم نحو السهل الزاخر بالمستنقعات والآجام..

وكان المتسول يقول إنه متزوج، وله عدد كبير من الأولاد لم يذوقوا خلال الأسابيع الأخيرة غير القليل جداً من الطعام. ثم توقف

فجأة عن الحديث وراح يتحسس البذلة الكتانية وهو يقول:

«كم كلفتك هذه البذلة من ثمن كبير!».

«ستدهش إذا عرفت ثمنها البسيط».

وعندئذ دقت الساعة النصف بعد التاسعة، فانطفأت الأنوار فجأة

بينما قال المتسول:

«إن ما يجري هنا يجعل الإنسان يائسًا من حياته».

ثم راح يتلفت حوله عندما أخذت دورية الليل تمضي في منحدر التل. ونهض الرجل ذو البذلة الكتانية، ونهض المتسول معه وراح يسير وراءه نحو حافة الساحة وقدماه الحافيتان ترسلان على الطوار المرصوف حفيظًا بغيضًا.. وأخيرًا قال:

«إن بضع بيزات لن تؤثر في ماليتك كثيرًا».

«آه لو تعرف كم تؤثر هذه البيزات في حياتي كلها».

ولم يتراجع المتسول، وإنما قال:

«أن رجلاً في ظروفه يشعر أحيانًا بأنه لا يتورع عن ارتكاب أي شيء من أجل عدد قليل من البيزات».

وكانا واقفين - كصديقين - في الظلال السوداء بعد انطفاء أنوار المدينة كلها. واستطرد المتسول قائلاً:

«فهل تستطيع أن تلومني؟!».

«لا لا.. إن آخر شيء يخطر ببالي هو أن ألومك».

ويبدو أن كل ما يقول يزيد المتسول توترًا وحمقًا. فإذا هو يقول:

«أحيانًا أشعر كأنني أريد أن أقتل....».

«لا لا.. إن هذا، طبعًا، عين الخطأ».

«هل من الخطأ أن أقبض على عنق رجل بيدين من حديد؟».

«حسنًا.. من حق الإنسان الموشك على الموت جوعًا أن يدافع

عن كيانه».

وراح المتسول يرقب الرجل في غضب وحشي، بينما هذا يستمر

في الحديث كأنما يناقش مشكلة علمية خطيرة، فقال:

«ولكن الإنسان، طبعًا- لا يستطيع أن يدافع عن كيانه بارتكاب

الجريمة.. فأنا مثلاً أملك على التحديد خمس عشرة بيزة وخمسة

وسبعين ستاثو، ولم أذق الطعام منذ ثمان وأربعين ساعة».

«يا إله السماء! إنك قاس كالحجر الأصم.. أليس بين جنبيك

قلب؟».

وأرسل الرجل ذو البذلة الكتانية ضحكة خفيفة بلهاء بينما أردف

المتسول قائلاً:

«إنك كاذب.. لماذا لم تأكل ما دام في جيبك خمس عشرة بيزة!».

«أتعرف لماذا؟ لأنني أريد أن أنفق المبلغ في الشراب».

«أي نوع من الشراب؟».

«النوع الذي لا يعرف الرجل الغريب أن يحصل عليه هنا!».

«هل تعني المشروبات الروحية!».

«نعم.. الخمر».

واقترب المتسول من الرجل حتى تلامست ساقيهما، ثم وضع يده على ذراعه حتى ليكاد من يراهما يحسبهما صديقين حميمين، أو أخوين، واقفين في مودة وإخاء بين ظلال الليل، وكانت أضواء المنازل قد بدأت بدورها تنطفئ، والسيارات المأجورة «التاكسيات» التي كانت تقف في منتصف الطريق إلى التل أثناء النهار في انتظار الركاب، بلا جدوى، قد بدأت أيضًا تنصرف. وومضت شعلة مصباح قبل أن تنطفئ على مدخل مركز البوليس. وعاد المتسول يقول:

«هذا يوم من أيام سعدك يا رجل.. كم تريد أن تدفع؟».

«في الشراب؟!».

«لا.. بل لأقدمك إلى رجل يستطيع أن يزودك بقليل من البراندي..»

البراندي الأصيل ماركة فيراكروز».

فقال الرجل ذو البذلة الكتانية:

«إن حلقًا جافًا كحلقي أحوج ما يكون إلى مثل هذا البراندي

الأصيل».

«إن لديه كل أنواع المشروبات».

«خمور؟!».

«خمور معتقة».

فقال الرجل ذو البذلة الكتانية في لهفة:

«إنني على استعداد لأن أبذل كل ما معي من نقود فيما عدا العملة الصغيرة».

ثم أردف قائلاً وهو يغمغم بالفاظ غامضة:

«ولكن بشرط أن أحصل على خمر أصيلة من عصير الكروم».

وسمع الرجلان، من مكان ما، في منحدر التل عند شاطئ النهر قرع طبل، واحد.. اثنان.. ثم وقع خطوات عسكرية تسير - في غير نظام محكم - على «النقرة»، ويبدو أن إحدى دوريات الجنود أو رجال البوليس، كانت في طريق العودة إلى المعسكر..

وعاد المتسول يقول في صبر نافذ:

«كم ستدفع؟».

«حسنًا! أستطيع أن أدفع الخمس عشرة بيضة، وتستطيع أنت أن تأتينا بخمر جيدة بالثمن الذي يروك.. والباقي لك».

«إذن تعال معي».

وشرع الاثنان يسيران في الطريق المنحدر من التل، عند الركن الذي يتفرع منه طريقان، أحدهما يمر أمام مخزن الأدوية وثكنات الجنود، والآخر يمضي نحو الفندق ورصيف الميناء ومخازن البضائع التابعة لشركة الموز المتحدة. وتوقف الرجل ذو البذلة الكتانية فجأة عندما رأى شزيمة من جنود البوليس تسير حاملة البنادق ومعها الرجل المولد بوجهه الشاحب ونابيه الأصفرين البارزين فوق شفته السفلى،

ثم قال للمتسول بصوت هامس:

«قف!. انتظر!».

وظل واقفاً في الظل يرقب الرجل المولد وهو يمضي مع شردمة الجنود.. وقد حدث في اللحظة الاخيرة أن أدار المولد رأسه وتقابلت نظراته بنظرات الرجل ذي البذلة الكتانية في لحظة خاطفة ومضى رجال البوليس صعداً إلى الساحة..

وقال الرجل للمتسول أخيراً في همس:

«هلم نمضي.. بسرعة».

وقال المتسول يطمئنه:

«إنهم لن يتدخلوا في شئونك.. إنهم يبحثون عن شخص أهم منك كثيراً».

«وماذا يفعل هذا الرجل الذي يسير معهم؟».

«من يدري؟ لعله أن يكون رهينة».

«إذا كان رهينة، فهل كانوا يتركونه يسير دون أن يقيدوا يديه على الأقل؟».

فقال المتسول بأعصاب متوترة:

«وأنى لي أن أعرف؟».

ثم أردف وهو يكتم ضيقه وضجره:

«هل تريد شراباً أم لا؟».

«أريد خمراً».

«أنا لا أعرف أي أنواع الخمر عنده.. عليك أن تقبل ما يقدمه إليك...».

وفيما هو يتقدم نحو شاطئ النهر، أردف قائلاً:

«بل إنني لا أعرف هل هو موجود الآن في المدينة؟».

وكانت الخنافس الطائرة قد تسلفت من أحجارها وانتشرت على الأرصفة ليموت بعضها تحت الأقدام. وتصاعدت من ناحية النهر تلك الرائحة الحادة الخضراء، وبدا من وسط حديقة عامة صغيرة النصف الأعلى من تمثال قائد حربي، متألقاً في الظلام، وكان الجو حاراً، والطريق مترباً مغبراً، وصوت المولد الكهربائي يترنح تحت أرضية الطابق الأرضي للفندق الوحيد الذي دخله المتسول والرجل ذو البذلة الكتانية.. وكان ثمة درجات خشبية واسعة، مغطاة بالخنافس الطائرة، تؤدي إلى الطابق الأول.. وقال المتسول وهو يمضي مع الرجل فوق الدرجات الخشبية:

«لقد بذلت كل ما في وسعي».

وفي ردهة الطابق الأول، شاهد الاثنان رجلاً يخرج من إحدى غرفات النوم، مرتدياً سراويل سوداء، وصديرياً مشدوداً على جسمه، وعلى كتفه منشفة، وكانت له لحية رمادية، أنيقة، ويحيط وسطه بحزام فضلاً عن حمالة السراويل. وفي مكان غير بعيد كان خريز الماء مسموعاً وهو ينبثق من صنوبر، وكانت الخنافس الطائرة تصطدم

بمصباح كهربائي كبير.

وأخذ المتسول يتبادل الحديث في همس واهتمام مع الرجل ذي اللحية الرمادية، وانطفأت المصابيح الكهربائية فجأة، ثم أضيئت وهي ترتعش، وكانت الردهة، بالقرب من رأس السلم تحتوي على مجموعة من المقاعد الهزازة، وفوق لوحة كبيرة من الاردواز كتب - بالطباشير - أسماء النزلاء.. ثلاثة فقط في فندق يحتوي على عشرين غرفة نوم..

واستدار المتسول نحو صاحبه ذي البذلة الكتانية وقال له:

«يقول مدير الفندق إن السيد الذي نريده غير موجود الآن.. فهل ننتظره؟».

«نعم.. فليس للوقت قيمة عندي».

ودخل الاثنان إلى غرفة نوم كبيرة عارية، أرضيتها من الآجر، وليس فيها غير سرير حديدي أسود كأنما تركه الشخص الذي أدخل إلى الغرفة عمداً، وعلى هذا السرير الحديدي الأسود، جلس الاثنان جنباً إلى جنب ينتظران.. وأقبلت الخنافس الطائرة من ثغرات واسعة في الشبكة السلكية الموجودة على النافذة، وراحت تصطدم بالجدران.

وقال المتسول للرجل ذي البذلة الكتانية:

«إن السيد الذي ننتظره شخصية كبيرة.. إنه ابن عم الحاكم العام للولاية.. وهو يستطيع أن يقدم اليك أي شيء.. ولكن يجب - طبعاً - أن تتعرف به عن طريق شخص موثوق فيه..».

«وهل هو يثق فيك؟».

فقال المتسول بصراحة:

«لقد توسطت له في إتمام صفقة مربية، ومن ثم أصبح مضطراً للثقة بي».

«وهل يعرف الحاكم هذا كله عن ابن عمه؟».

«طبعاً لا.. إنه رجل صارم».

وكان خربير الماء الذي ينبثق من الصنابير يسمع بين الحين والآخر..

وقال الرجل ذو البذلة الكتانية:

«ولكن.. لماذا يثق بي أنا؟!».

«لأن مظهرك ينم بوضوح على إدمانك الخمر.. ولهذا سوف تضطر إلى طلب المزيد بين يوم وآخر.. وإنها لخمر جيدة هذه التي يبيعها، ويحسن أن تسلمني الآن الخمس عشرة بيضة».

وبعد أن أحصى عددها مرتين بعناية أردف قائلاً:

«لسوف أظفر لك بزجاجة كاملة من أجود أنواع البراندي، براندي فيراكروز.. ولسوف تتأكد من هذه الحقيقة بعد قليل».

وانطفأت الأنوار فجأة، وظلا جالسين في الظلام على السرير الذي كان يحدث صريراً كلما تحرك أحدهما..

وسمع في الظلام صوت الرجل ذي البذلة الكتانية يقول:

«إنني لا أريد براندي».

«إذن ماذا تريد؟».

«أريد خمرًا».

«إن الخمر باهظة الثمن!».

«باهظة أو غير باهظة الثمن.. إما أن تقدم لي خمرًا أو ترد إليّ نقودي».

«أتقبل خمر سفرجل؟».

«لا.. بل خمر كروم.. فرنسية».

«وإذا كانت خمرًا من كروم كاليفورنيا؟».

«لا بأس».

«إنه يحصل عليها لنفسه بالمجان.. من إدارة الجمارك».

وبدأ المولد الكهربائي يئز ويخفق مرة أخرى في الطابق الأرضي، وعاد النور خافتًا في أول الأمر، وفتح مدير الفندق الباب وأشار للمتسول، ثم وقف يتبادل معه حديثًا طويلًا في صوت هامس. وتراخى الرجل ذو البذلة الكتانية بظهره في السرير. وكانت على وجهه آثار جراح خفيفة كثيرة تسببت من شفرة الحلاقة عندما كان يحلق وجهه بضع مرات. وكان وجهه شاحبًا، مريضًا، غائر الوجنتين، مستديرًا، ينم على أنه كان في يوم ما بدينًا مكتنزًا.. وكان مظهره العام يدل على أنه رجل أعمال مفلس سيء الحال..

وعاد المتسول إليه قائلاً:

«إن السيد الكبير مشغول الآن، ولكن غيبته لن تطول.. وقد أرسل مدير الفندق غلامًا للبحث عنه».

«وأين هو الآن؟».

«إنه يلعب البلياردو مع مدير البوليس، ولا يستطيع أحد أن يقطع جبل اللعب عليه».

ثم أقبل إلى مكانه من السرير بعد أن قتل خنفسيتين بقدمه الحافية، ثم أردف يقول:

«هذا فندق فاخر.. فأين تنزل أنت؟! الواضح عليك أنك غريب! أليس كذلك؟».

«إنني مجرد عابر سبيل».

«إن السيد الكبير الذي أحدثك عنه رجل واسع النفوذ.. ويحسن أن تدعوه للشراب معك.. وكذلك يحسن ألا تأخذ الخمر معك إلى مسكنك، وإنما الأفضل أن تشرب هنا بقدر ما تستطيع».

«إنني أريد أن.. أحتفظ بقليل منها لأعود بها إلى مسكني».

«إن المساكن كلها سيان.. وخيرها ما تجد فيه مقعدًا تجلس عليه، وكأسًا تشرب منه».

«على كل حال...».

وانطفأت الأنوار مرة أخرى.. وومض البرق في الأفق البعيد كأنه ستار مضيء، وانساب قصف الرعد من خلال أسلاك النافذة كأنه الصوت الذي تسمعه من الطرف الآخر للمدينة عندما تبدأ حفلات

مصارعة الثيران يوم الأحد..

وقال المتسول بصوت من الود المصطنع:

«بماذا تشتغل؟!».

«إنني ألتقط الأعمال حيثما تكون، كلما استطعت إليها سبيلاً».

وخيم الصمت عليهما وهما جالسان ينصتان إلى وقع الأقدام على الدرجات الخشبية، وفتح الباب، وسمع صوت يغمغم بالفاظ مبهمه ثم يقول:

«من هناك؟».

وأشعل عود من الثقاب ظهر على ضوءه جانب من وجه غير حليق، وخفق المولد الكهربائي مرة أخرى، وما لبثت أن أضيئت الأنوار به- وقال الداخِل الغريب حين وقعت نظراته على المتسول:

«أوه.. أهذا أنت!».

«نعم.. إنه أنا».

كان رجلاً ضئيل الجسم له وجه كبير شاحب، ويرتدي بذلة رمادية ضيقة، ويبرز من تحت سترته مسدس كبير، قال:

«ليس لديّ ما أقدمه لك.. لا شيء».

ومضى المتسول إليه وراح يحدثه في اهتمام بصوت هامس وفي أثناء الحديث ضغط في رفق بقدمه العارية على حذاء الرجل اللامع، وزفر هذا أخيراً، ونفخ الهواء المتجمع في شذقيه وهو يحدق النظر

إلى السرير كأنما يخشى أن يكون في الأمر مكيدة، ثم قال بحدة للرجل
ذي البدلة الكتانية:

«إذن فأنت تريد كمية من براندي فيراكروز؟ ألا تعرف أن هذا
مخالف للقانون؟».

«لا.. ليس براندي.. لا أريد براندي».

«ألا يكفي أن تشرب البيرة؟».

ثم تقدم منتفخاً متعالياً إلى وسط الغرفة وحذاؤه يزيق على آجر
الأرضية - أليس ابن عم الحاكم العام؟

وقال للرجل ذي البدلة الكتانية مهدداً:

«ألا تعرف أن في مقدوري القبض عليك؟!».

فانكمش الرجل في نفسه وقال بتواضع وخضوع:

«طبعاً يا صاحب الفخامة».

«أتظن أنه ليس لي من عمل إلا إرواء ظمأ كل متسول مثلك عندما
يريد؟».

«لا.. لا.. لم يخطر ببالي أن أزعج فخامتك لولا أن هذا الرجل».

وبصق ابن عم الحاكم العام على آجر الأرضية بينما أردف ذو
البدلة الكتانية قائلاً:

«إذا شئت يا صاحب الفخامة، فإني أنسحب».

فقال له بحدة:

«إنني لست رجلاً قاسياً.. إنني أحب عادة أن أسدي الخير لإخواني في الإنسانية إذا كان ذلك في مقدوري دون أن أسيء إلى أحد.. إن لي مركزي الخاص، كما تعلم وهذه المشروبات تصل إليَّ بالطرق القانونية».

«طبعاً.. طبعاً».

«ومن حقي أن أطلب الثمن الذي أدفعه فيها».

«مؤكد».

«وإلا أفلست».

وتقدم نحو السرير في شيء من الاختيال، وجلس عليه، وخلع حذاؤه وقال وهو يستدير برأسه قليلاً نحو ذي البذلة الكتانية:
«هل أنت ثرثار؟».

«لا.. إنني أعرف كيف أكتم السر».

«لا بأس من أن تفشي السر.. لمن يريدون الخمر الممتازة».

وكان على السرير خشبة كبيرة ممزقة، فانتزع من داخلها قبضة من القش، ثم أدخل يده في جوفها، واستدار ذو البذلة الكتانية برأسه نحو النافذة وراح يتظاهر بالنظر إلى الحديقة العامة، كأنما الأمر لا يعنيه، ثم انتقل بنظراته إلى شاطئ النهر، وإلى صواري السفن حيث كان البرق يلعب وراءها. عند الأفق، أما قصف الرعد، فكان يقترب شيئاً فشيئاً..

وقال ابن عم الحاكم وهو يمسك بيده زجاجة خمر:

«إنني أستطيع أن أتنازل لك عن هذه.. إنه براندي من نوع جيد».

«الواقع إنني في حاجة إلى نوع أفضل من البراندي».

«يجب أن تقبل ما نقدمه لك».

«إذن فمن حقي أن أسترده الخمس عشرة بيزة».

فهتف ابن عم الحاكم في دهشة واستنكار:

«أدفعت خمس عشرة بيزة؟».

فأسرع المتسول يقول مفسراً:

«يقصد أنه يريد أن يحصل على كمية من الخمر مع البراندي».

ثم شرعاً بجانب السرير، يتناقشان في عنف عن السعر والتمن ثم قال ابن عم الحاكم:

«من العسير أن أقدم إليك الخمر التي تريدها.. ولكن يمكنني أن أعطيك زجاجتين من البراندي بدلاً من زجاجة واحدة».

«ولكنني متعود على شرب الخمر المعتقة.. إنك لا تدري مبلغ شوقي إليها».

ثم أردف قائلاً:

«أستطيع أن أقبل زجاجة من البراندي مع زجاجة أخرى.. من الخمر».

«إن ما أقدمه إليك هو أجود أنواع براندي فيراكروز... وعلى كل حال كم يمكنك أن تدفع الفرق بين البراندي والخمر..؟ فإن الخمر تكلفني كثيراً».

«لم يبق لديّ في الدنيا غير خمسة وسبعين سنتا».

«يمكنني أقدم إليك زجاجة من خمر التكوّيلا».

«لا لا».

«إذن ادفع خمسين سنتا» أخرى.. فإن زجاجة الخمر التي سأقدمها إليك كبيرة».

ثم دس يده مرة أخرى داخل قش الحشية بينما غمز المتسول بعينه للرجل ذي البذلة الكتانية وهو يقوم في الهواء بحركة نزع السدادة عن زجاجة الخمر وصبها في الكأس..

وقال ابن عم الحاكم وهو يقدم الزجاجة الجديدة لذي البذلة الكتانية:

«ها هي ذي.. خذها أو اتركها».

وأسقط ابن عم الحاكم فجأة عن وجهه قناع التكلف والوفاء المصطنع، وراح يفرك يديه وهو يقول:

«إن الجو ثقيل مقبض هذه الليلة.. يبدو أن موسم الأمطار سيكر هذا العام!!».

«هل تسمح فخامتك فتشرب كأسًا معي نخب تعارفنا؟».

«نعم.. نعم.. لا بأس».

وفتح المتسول الباب وطلب من مدير الفندق إحضار الكؤوس..

وقال ابن عم الحاكم:

«مضت فترة طويلة لم أشرب فيها كأسًا من الخمر الجيد.. ولهذا لن أجد بأسًا في أن أشرب معك كأسًا نخب التعارف».

وقال الرجل ذو البذلة الكتانية:

«هذا شرف يا صاحب الفخامة».

وراح يرقب سداة الزجاجة وهي تنزع في قلق ولهفة ثم أردف قائلاً:

«إذا سمحت يا صاحب الفخامة فأرجو أن تشرب من البراندي أولاً».

ثم اغتصب ابتسامة شاحبة وهو يرى مستوى الخمر يتناقص داخل الزجاجة.. ولمس كل منهم كأسه بكأس الأخير، وجلس ثلاثتهم على السرير.. وكان المتسول يشرب - وحده - البراندي. وقال ابن عم الحاكم:

«إنني فخور بهذه الخمر.. فهي جيدة النوع.. أحسن ما في كاليفورنيا من مشروبات».

وغمز المتسول بعينه للرجل ذي البذلة الكتانية وأشار له بطرف خفي، فقال لابن عم الحاكم:

«ما رأيك يا صاحب الفخامة في أن تشرفني بشرب كأس آخر.. أم تراني أزكي لك هذا البراندي».

«لا.. إذا كان لي أن أشرب كأسًا آخر.. فليكن من هذه الخمر الجيدة».

وامتلأت الكؤوس مرة أخرى، وقال ذو البذلة الكتانية:
«لسوف أحمل بعض هذه الخمر معي إلى المنزل.. فإن أُمِّي
مشوقة إلى كأس منها».

فقال ابن عم الحاكم وهو يفرغ الكأس في جوفه:
«إنك لن تجد خيرًا منها هنا.. إذن فإن لك أمًّا!».
«وهل هناك من لا أم له!».

«إنك إذن سعيد.. فإن أُمِّي متوفاة».
وتسللت يده إلى الزجاجة وأمسكت بها وهو يردف قائلاً:
«إنني أحيانًا أشعر بفراغ الحياة بعدها.. كنت أدعوها: صديقتي
الصغيرة».

ثم أمال الزجاجة على الكأس وهو يقول:
«بعد إذنك».
فقال الرجل في صوت ينم عن اليأس وهو يشرب جرعة كبيرة من
البراندي:

«طبعًا.. طبعًا يا صاحب الفخامة».
وقال المتسول مشتركًا في الحديث:
«وأنا أيضًا لي أم».
فصاح به ابن عم الحاكم:
«وماذا يهمنا بها».

ثم تراخى في السرير الذي أرسل صريه في جو الغرفة، وعاد يقول بهدوء:

«إنني أعتقد دائماً أن الأم كصديقة، أفضل من الأب.. إنها بالحب والحنان تستهدف دائماً السلام والخير والجود.. وإنني أذهب إلى قبرها كل عام، في ذكرى وفاتها، وأضع عليه باقة من الأزهار».

وحاول الرجل ذو البذلة الكتانية أن يكتم الزغطة. تأدباً. وهو يقول:

«آه.. ليت في مقدوري أن أفعل هذا».

«ولكنك تقول إن أمك على قيد الحياة».

«نعم.. ظننت أنك تتحدث عن وفاة جدتك».

«كيف هذا، إنني لا أكاد أنذكر جدتي».

«ولا أنا».

فقال المتسول!

«ولكنني أتذكر أنا جدتي».

فقال له ابن عم الحاكم:

«إنك تثرثر أكثر مما ينبغي».

فقال الرجل ذو البذلة الكتانية:

«هل تسمح فخامتك فأطلب منه تغليف زجاجة الخمر هذه..»

يجب ألا يراني بها أحد حرصاً على سمعتك».

«انتظر، انتظر.. لا داعي للاستعجال.. إنك هنا على الرحب والسعة».

ثم أردف بعد برهة صمت وجيزة:
«كل شيء في هذه الغرفة تحت أمرك.. إليك كأسًا آخر من الخمر..».

«أظن أن البراندي...».

«إذن بعد إذنك.. فأني أفضل الخمر الجيدة».
وصب لنفسه بعض الخمر في كأسه، وتناثرت قطرات منها على الخشبة، ثم قال:

«فيم كنا نتحدث؟».

«عن جداتنا».

«لا أظن أن هذا هو مدار حديثنا..! فأنا لا أكاد أتذكر جدتي.. ولعل أول ما أتذكره في حياتي..».

وفتح الباب وأقبل مدير الفندق يقول:

«إن مدير البوليس في طريقه إلى هنا».

«عظيم جدًا.. دعه يدخل».

«نعم.. إنه رفيق لطيف».

«ولكنه غشاش في لعبة البلياردو».

ووقف بباب الغرفة رجل ضخم الجسم، يرتدي سترة رسمية

خفيفة، وسراويل بيضاء، وعلى جانب حزامه جراب مسدس وقال له
ابن عم الحاكم مرحباً:

«تفضل.. تفضل بالدخول.. كيف حال أسنانك؟ لقد كنا نتحدث
عن جداتنا...».

ثم استدار إلى المتسول وقال له بحدة:

«أفسح مجالاً للمدير».

وظل المدير واقفاً في المدخل يرقب الجميع في شيء من الارتباك
والحيرة ثم قال:

«حسنًا.. حسنًا».

«إننا نستمتع بحفلة صغيرة خاصة.. ومن دواعي الشرف لنا أن
تشارك معنا».

وأشرق وجه المدير فجأة حين رأى الخمر ثم قال:

«طبعًا.. طبعًا.. إن قليلاً من البيرة لن يضر».

«هذا عظيم...».

ثم أمر المتسول قائلاً:

«املاً كأس المدير بالبيرة».

وملاً المتسول كأس المدير بالخمر وقدمها إليه..

واتخذ المدير مكانه على السرير، وشرب كأس الخمر في جرعة
واحدة، ثم تناول الزجاجاة بنفسه وهو يقول:

«إنها بيرة جيدة.. جيدة جدًا.. أهذه الزجاجاة هي كل ما لديكم؟».

وارتسم القلق الشديد على وجه ذي البذلة الكتانية وهو يقول:

«نعم.. ليس لدينا غيرها».

«لا بأس».

وقال ابن عم الحاكم:

«والآن.. فيم كنا نتحدث؟».

فقال المتسول:

«في أول ذكرياتك عن الحياة».

فقال المدير بصوت ينم عن السرور والرضى:

«إن أول شيء أذكره في حياتي».

ثم توقف فجأة وقال مشيرًا لذي البذلة الكتانية:

«إن هذا السيد لا يشاركنا الشراب».

«لسوف أشرب قليلًا من البراندي».

«في صحتك».

«في صحتك».

«إن أول شيء أستطيع أن أتذكره في حياتي بوضوح هو أول حفلة

دينية أحضرها وأنا طفل.. آه.. التأثير الروحي.. وآبائي المحيطون

بي».

«كم كان عدد آبائك يومذاك».

«اثنان طبعاً».

«إذن لم يكن ممكناً أن يحيطا بك.. إنك تحتاج إلى أربعة للإحاطة بك...».

«ها.. ها».

«في صحتك».

«في صحتك».

«نعم.. كما كنت أقول لكم كم في الحياة من سخرية ومفارقات.. فلشد ما أألمني بعد ذلك أن أرى ذلك القس الذي رأس تلك الحفلة الدينية الأولى في حياتي، يقتل أمامي رمياً بالرصاص.. وهو عجوز ضعيف.. وأستطيع أن أقول دون خجل إني بكيت.. ولكن عزائي هو أن يكون هذا الشهيد قديساً يصلي لنا- نحن أبناؤه- جميعاً، فليس في مقدور كل إنسان أن يكون له قديس يصلي من أجله».

«هذه مفارقة عجيبة».

«ولكن أسرار الحياة لا حد لها».

«في صحتك».

وقال الرجل ذو البذلة الكتانية:

«ألك في قليل من البراندي يا فخامة المدير؟».

«لم يبق في زجاجة هذه الخمر المعتقدة إلا القليل، ولهذا يحسن...».

«إنني شديد الرغبة في أن أحمل بعضًا منها لأمي».

«أتحمل إليها هذه القطرات المعدودة.. إنها إهانة لها.. إنها قطرات من الرواسب».

ثم أفرغ الباقي في الزجاج في كأسه وأرسل ضحكة خفيفة وهو يقول:

«هل خطر لأحد من قبل أن يكون للبيرة.. رواسب و...».

ثم توقف عن الحديث والزجاجة في يده لا تزال مائلة على الكأس، وقال في دهشة للرجل ذي البذلة الكتانية:

«عجبًا يا رجل!! إنك تبكي؟».

والتفت الرجال الثلاثة نحو ذي البذلة الكتانية، وراحوا ينظرون إليه بأفواه فاغرة بعض الشيء، دهشة، بينما قال هو معتذرًا:

«هذا تأثيرها دائمًا على أعصابي... أعني الخمر... فمعدرة يا سادة... إنني أسكر بسرعة وعندئذ أرى...».

«ترى ماذا؟!».

«أوه.. لا أدري.. إن كل آمال الحياة تبدأ في الانحسار و.. والزوال».

«عجبًا يا رجل.. إنك شاعر!».

فقال المتسول:

«إن الشاعر روح الوطن».

وأرسل البرق وميضه الساطع على النوافذ كأنه أستار بيضاء،
ودوى قصف الرعد فجأة فوق الرؤوس، وارتعش ضوء المصباح
الكهربائي بالغرفة ثم انطفأ، وقال مدير البوليس وهو يسحق إحدى
الحشرات حين اقتربت من حذائه:

«هذه أخبار سيئة لرجالي».

«لماذا؟!».

«ألا ترى أن موسم الأمطار قد بكر هذا العام.. ورجالي مشغولون
الآن بالمطاردة».

«مطاردة المجرم الأمريكي؟!».

«إنه صيد بسيط لا يهم.. وإنما المهم أن الحاكم اكتشف أن أحد
الرهبان لا يزال مقيمًا في الولاية سرًّا.. وأنتم تعرفون شعور الحاكم في
حالة كهذه... لو كان الأمر بيدي، لترك هذا الراهب البائس وشأنه،
فإن مصيره حتمًا أن يموت جوعًا، أو محمومًا أو يستسلم.. فليس في
مقدوره أن يفعل شيئًا.. لا خيرًا.. ولا شرًّا.. بل إن أحدًا لم يفتن إلى
وجوده إلا منذ أشهر معدودة».

«إذن عليكم أن تبادروا بالقبض عليه قبل هطول المطر».

«أوه.. ليست أمامه أية فرصة للنجاة إلا إذا استطاع أن يجتاز
الحدود، وقد ظفرنا أخيرًا برجل يعرفه بعد أن رآه وتحدث إليه وقضى
معه ليلة كاملة.. هلم نتحدث في أمر آخر.. فإني أضيق بالحديث في
الشئون البوليسية».

«أين تظنه الآن؟!».

«لسوف تدهش إذا علمت!».

«لماذا؟!».

«لأنه موجود هنا... في هذه المدينة أعني.. وهذا كما ترى استنتاج، فمنذ أن بدأنا نحتفظ بالرهائن من القرى الريفية، لم يبق له مجال في الريف، فإن كل قرية تدفعه بعيداً عنها كلما حاول الالتجاء إليها.. ولهذا أطلقنا وراءه ذلك الرجل الذي يعرفه كأنه كلب بوليسي، ولسوف يوقع به اليوم أو غداً.. وعندئذ...».

وعندئذ قال الرجل ذو البذلة الكتانية:

«هل قتلتم عدداً كبيراً من الرهائن؟!».

«لا.. ليس عدداً كبيراً.. ثلاثة أو أربعة.. وقد نتوسع في عملية الإعدام إذا لم نعر عليه أجلاً.. حسناً.. هأنذا أشرب آخر قطرة من.. من البيرة».

ثم وضع الكأس الفارغة في أسف، والتفت إلى ذي البذلة الكتانية وقال:

«والآن أستطيع أن أشارك معك في الشرب من هذه الزجاجية.. إنها سيدرال، أليس كذلك؟!».

«نعم.. نعم.. طبعاً».

«هل التقت بك من قبل؟ يخيّل لي أن وجهك...».

«أظن أنه لم يسبق لي مثل هذا الشرف».

فقال مدير البوليس وهو يبسط ساقه البدينة التماسًا لمزيد من الراحة ومن ثم دفع المتسول إلى حديد نافذة السرير:

«وهذه إحدى عجائب الحياة.. فأنت تتخيل أحيانًا أنك رأيت بعض أشخاص معينين أو بعض أماكن خاصة... فهل ما رأيته أو تخيلته كان حلمًا أم قطعة من ذكريات الماضي.. وقد سمعت طبيبًا يقول ذات مرة إن الأمر لا يعدو أن يكون خداعًا للبصر.. ولكنه كان طبيبًا أمريكيًا دهري المذهب..».

وقال ابن عم الحاكم:

«أذكر ذات مرة...».

وأرسل البرق وميضًا كالصاروخ فوق الميناء، وقصف الرعد فوق الرءوس، وهكذا كان الحال دائمًا في تلك الولاية.. عواصف في الخارج، وفي الداخل يدور الحديث ويدور حول «الروح» و«الأسرار» و«أصل الحياة» ويظل الحديث دائرًا بين الجالسين على السرير الحديدي في الغرفة المظلمة العارية، لا يعلمون شيئًا، ولا يؤمنون بشيء، ولا يجدون مكانًا أفضل يقضون سهرتهم فيه..

وقال الرجل ذو البذلة الكتانية:

«أعتقد أنه قد آن لي أن أمضي؟».

«إلى أين؟».

فقال في غموض وهو يلوح بيده نحو عالم من الأصدقاء الوهميين:

«إلى .. الأصدقاء».

وقال ابن عم الحاكم:

«يحسن أن تحمل بقية البراندي معك .. فهذا حقك .. لقد دفعت الثمن».

«شكرًا يا صاحب الفخامة».

وتناول الزجاجاة التي لم يكن بها غير ثلاثة قراريط تقريبًا من البراندي .. أما زجاجة الخمر المعتقدة فقد فرغت تمامًا ..

فقال ابن عم الحاكم بحدة:

«أخفها يا رجل .. أخفها!».

«طبعًا طبعًا يا صاحب الفخامة .. سأحرص على إخفائها».

«لا داعي لأن تناديه بلقب صاحب الفخامة».

قال مدير البوليس هذه العبارة وهو يضحك ضحكة عالية ويدفع المتسول من فوق السرير إلى الأرض.

وغادر ذو البذلة الكتانية الغرفة متسللاً في هدوء وهو يقول:

«لا .. لا .. هذا هو».

وكانت الدموع تنحدر، من عينيه الحمراوين الملتهبتين، وبينما هو يبتعد عن الغرفة كانت ألفاظ السر والروح وأصل الحياة تتردد في حلقة مفرغة خلال الحديث الدائر في الغرفة ..

كانت الخنافس قد اختفت تمامًا كأنما اكتسحتها مياه الأمطار التي كانت تنهمر بقوة وغزارة وانتظام وكأنما هي معاول تدق المسامير الكبيرة في تابوت ميت. ولكن الهدوء كان رائعًا صافيًا، وامتزجت حبات العرق بقطرات المطر على ملابس المارة. ووقف ذو البذلة الكتانية- الذي لم يكن أحدًا غير صاحبنا الراهب- في مدخل الفندق برهة وجيزة ينصت إلى خفق المولد الكهربائي وراءه، ثم وثب بضع خطوات إلى مدخل بيت آخر، وتردد هنية وهو يحدق في الجزء الأعلى من تمثال القائد في وسط الحديقة العامة، وفي الزوارق الشراعية الراسية على شاطئ النهر، في سفينة صغيرة قديمة ذات مدخنة من الصفيح المطروق.. لم يكن ثمة مكان يذهب إليه، فإنه لم يحسب حسابًا للمطر المفاجئ، وإنما كان يعتقد أن في وسعه أن يهيم على وجهه أثناء النهار، ثم يبيت ليلته على المقاعد المستطيلة على شاطئ النهر.

ورأى اثنين من رجال البوليس يقبلان في الطريق المنحدر، نحو رصيف الميناء وهما يتناقشان بحدة وعنف. وكانا يتركان المطر يتساقط عليهما كأنما الأمر لا يعنيهما في قليل أو كثير، أو كأنما هذه الأمطار ما هي إلا مظهر من مظاهر سوء الأحوال. ودفع الراهب الباب الذي كان واقفًا بجانبه، وكان باب أحد النوادي الصغيرة التي يشرب فيها الأهالي المياه الغازية، ويلعب بعضهم فيها البلياردو.. ودخل إلى قاعة صفت على أرفف جدرانها زجاجات المياه الغازية وفي وسطها طاولة البلياردو وقد وقف حولها ثلاثة أو أربعة رجال، وكان أحدهم

قد وضع جراب مسدسه على منضدة الشراب في جانب الغرفة، وتقدم الراهب بسرعة جعلته يدفع مرفق رجل كان يوشك أن يطلق عصا البلياردو إلى الكرات.. والتفت الرجل هاتفاً في غضب:

«ما هذا بحق السماء؟».

وكان واحداً من ذوي القمصان الحمراء..

يا للفرع! ألا يستطيع أن يلتمس الأمن، لفترة وجيزة، في أي مكان!

وراح يتراجع نحو الباب وهو يعتذر لذي القميص الأحمر في ذلة وخضوع، ولكن جيب سترته احتك بالجدار وهو يتراجع بسرعة وصلصلت زجاجة البراندي عند اصطدامها بالجدار. وركز ثلاثة أو أربعة من الموجودين في قاعة النادي نظراتهم عليه في خبث واهتمام.. فقد كان في نظرهم غريباً عن المدينة، ومن ثم توقعوا أن يضحكوا ويستمتعوا بما سيجري عليه..

وقال ذو القميص الأحمر متسائلاً:

«ما هذا إلى تحمله في جيبك؟».

وكان- أي ذو القميص الأحمر- شاباً في العقد الثالث، له سن ذهبية، وفم ينم عن الغرور وحب التسلية على حساب الغير..

وقال الراهب:

«ليمونادة».

«ولماذا تحمل معك زجاجة ليمونادة».

«لأنني سأشربها بعد أن أتناول أقراص الكينين».

فتقدم ذو القميص الأحمر نحوه مختلاً ودفع بطرف عصا البلياردو في جيب الراهب وهو يقول ساخرًا:

«ليمنادة.. أليس كذلك؟».

«نعم.. ليمنادة».

«إذن دعنا نرى هذه الليمنادة».

ثم استدار نحو الآخرين وأردف قائلاً:

«إنني أستطيع أن أشم رائحة مهرب الخمر على مسافة عشر خطوات».

ودس يده في جيب الراهب وهتف قائلاً وهو يرفع بها زجاجة البراندي:

«ها... ألم أقل لكم!».

ووثب الراهب بسرعة نحو الباب، وانطلق كالصاروخ في الطريق تحت وابل المطر، وفي الوقت نفسه ارتفع صوت يقول: «امسكوه».

وتحقق للموجودين في النادي أملهم في فترة من التسلية والمرح..

وهرع الراهب في الطريق الصاعد إلى ساحة المدينة. ثم انعرج إلى اليسار، ثم إلى اليمين، وكانت الطرقات - لحسن الحظ - مظلمة، والقمر محتجباً وراء السحب، وكان يدرك أنه طالما ظل بعيداً عن الأضواء المنبعثة من النوافذ، فلن يراه أحد.. وكان في مقدوره أن

يسمعهم وهم ينادي بعضهم بعضًا لمطاردته.. فقد وجدوا في هذه المطاردة تسلية أفضل من لعب البلياردو.. ومن مكان ما انطلقت صفارة رجال البوليس.. ولم يلبث هؤلاء أن انضموا للمطاردين..

لقد كانت هذه هي العاصمة.. المدينة التي كان يطمح في أن يصل إليها وهو أسقف لكاتدرائيتها، تاركًا رعايا أبراشيته وراعيها الجديد في كونسبكيون يسددون ديون مشروعاته الاجتماعية فيها.. لقد راح يفكر في الكاتدرائية.. وفي مونتييز.. وفي وادٍ سبق أن رآه وهو ينعطف في هذا الطريق أو في ذاك. إنه يشعر برغبة كامنة في أعماقه تدفعه.. إنها إرادة الهرب.. وإن هذه الإرادة النابعة من الأعماق لتضفي على الموقف كله ظلاً موقوتاً من المرح المذهل الرهيب.. وضحك ببلاهة وهو يلهث.. وعاد يضحك مرة أخرى.. إنه يسمع مطارديه وهم يتصايحون ويصفرون في الظلام، وإن المطر ليظل في انهماره بغزارة.. وإنه ليتساقط بقوة ويتوالب فوق بلاط قطعة أرض فضاء كانت فيما مضى بناء الكاتدرائية «وقد جعلته حرارة الجو غير صالحة للعبة البيولاتا وكانت الأراجيح الحديدية فيها كأنها مشانق» ولم يلبث أن اتخذ طريقه مره أخرى نحو شاطئ النهر.. فقد كانت لديه خطة يريد تنفيذها..

وازدادت الصيحات اقتراباً.. وفجأة سمع جماعة من المطاردين آتين من جهة النهر.. وكان هؤلاء يقومون بالمطاردة في نظام وترتيب.. وقد أدرك هذه الحقيقة من أصواتهم الخافتة.. وأدرك أيضًا أنهم من رجال البوليس.. المطاردين الرسميين.. وهكذا وجد نفسه

بين فريقين.. المطاردين الهواة، والمطاردين المحترفين.. وفي نفس الوقت وجد نفسه أمام باب يعرف صاحبه جيدًا.. فدفعه ودخل إلى الفناء ثم أغلقه وراءه!

ووقف في الظلام يلهث وهو يسمع وقت خطوات المطاردين وهم يقتربون في الشارع.. وكان المطر لا يزال ينهمر بغزارة.. عندئذ شعر كأن شخصًا يراقبه من وراء قضبان النافذة، فرفع عينيه حيث رأى وجهًا صغيرًا مظلمًا مكمشًا كأنه إحدى هذه الرؤوس المحنطة التي يشتريها السياح.. واقترب من قضبان النافذة وقال هامسًا:

«بادر جوزيه؟».

وسمع صوتًا يقول:

«إنه هناك».

ثم رأى وجهًا آخر يبدو وراء كتف الأول وقد انعكس عليه ضوء شمعة مرتعش، ثم وجه ثالث ورابع وكأنما هي نباتات شيطانية تنبثق فجأة، وشعر بالوجوه جميعًا تراقبه وهو يخوض أحوال الفناء إلى باب آخر راح يطرقه..

وفتح الباب وظهر بادر جوزيه.. ولم يتعرف الراهب عليه في بادئ الأمر وهو واقف في جلباب النوم ممسكًا بمصباح - فقد رآه آخر مرة في مؤتمر ديني، وكان كالمعتاد جالسًا في الصف الأخير، يقض مضطرب أظافره خوفًا من أن يلحظه أحد.. وقد كان غير ذي أهمية في ذلك المؤتمر، بل لم يكن ثمة أحد من المجتمعين يومئذ يعرف اسمه.. أما

الآن، فمن العجب العجائب أن يصبح أشهر من أي واحد من أولئك
المؤتمرين. وقال له وهو يغمز بعينه في رفق أثناء وقوفه في وحل
الفناء:

«جوزيه».

«من أنت؟».

«ألا تتذكرني؟ طبعًا.. فقد انصرفت أعوام عديدة.. ألا تذكر
المؤتمر الذي عقد في الكاتدرائية؟».

فهتف بادر جوزيه:

«يا إلهي».

«إنهم يطاردونني.. وقد خطر لي أنه ربما استطعت أن أختبئ
عندك ليلة واحدة!».

«لا.. لا.. اذهب.. انصرف عني».

«إنهم لا يعرفون حقيقة شخصيتي، يظنون أنني مجرد مهرّب
للخمر. ولكنهم في مركز البوليس سوف يتعرفون علي حتمًا».

«لا ترفع صوتك بالحديث هكذا.. فإن زوجتي قد....».

فهمس الراهب قائلاً:

«أرجوك فقط أن تدلني على ركن أختبئ فيه».

وبدأ يشعر بدبيب الخوف الرهيب يتمشى في أوصاله.. لاشك
أن تأثير البراندي قد شرع ينحسر عنه ومن العسير أن يظل الإنسان

مخمورًا فترة طويلة في ذلك الجو الحار «فإن الكحول لا يلبث أن يخرج من الجسم مرة أخرى مع العرق» أو لعل الرغبة في الحياة قد عادت تستبد به.. أي نوع من الحياة؟...

وكان وجه بادر جوزيه، في ضوء المصباح، ينم عن الكراهية وهو يقول:

«لماذا تلجأ إلي..؟ لماذا تظن أنني.. لسوف أستدعي رجال البوليس إذا لم تنصرف.. أنت تعرف أي نوع من الرجال أنا؟».

فقال في ابتهال ورجاء:

«أعرف إنك رجل فاضل يا جوزيه.. كنت أعرف هذا دائمًا..».

«لسوف أصبح إذا لم تذهب».

وحاول الراهب أن يتعرف على سر كراهية جوزيه له. وسمع أصوات المطاردين ومناقشتهم في الشارع.. ثم إذا هم يطرقون الأبواب.. إنهم قرروا تفتيش المنازل، وأخيرًا قال:

«إذا كنت قد أسأت إليك يا جوزيه يومًا، فاصفح عني، فقد كنت دائمًا مغرورًا، متكبرًا، متعاليًا.. كنت راهبًا شريرًا.. ولهذا كنت أوقن أنك الرجل الأفضل».

فهمس جوزيه هاتفًا به.

«اذهب.. انصرف.. إنني لا أريد أن يستشهد أحد هنا.. إنني لم أعد واحدًا منكم.. فدعني وشأني.. فأني راض بحالتي هذه».

ثم شرع يجمع الحقد في لعبه ويصقه على وجه الراهب، ولكن الرذاذ لم يصل إليه، وإنما تلاشى في الهواء.. وأخيراً قال:
«اذهب ومت بسرعة.. فهذا شأنك».

ثم أغلق الباب في نفس اللحظة التي فتح فيها باب الفناء الخارجي ودخل رجال البوليس. وفي لمحة خاطفة، شاهد الراهب، بادر جوزيه وهو يحدق إليه من وراء قضبان النافذة، ثم إذا شخص آخر ضخم الجسم في ملابس النوم البيضاء يحتويه ويجذبه بعيداً، كأنه روح حارس، عن معارك البشر الخطيرة.

وصاح صوت:

«هذا هو».

وكان صاحب الصوت هو نفسه ذو القميص الأحمر الشاب، وفي تلك اللحظة الحاسمة، فتح الراهب قبضة يده، وترك الورقة تسقط بجانب جدار منزل بادر جوزيه.. الورقة التي كانت تربط ماضيه بحاضره وتزوده بالأمل في المستقبل. وأن تخليه عنها في تلك اللحظة كأنه التخلي التام عن ماضيه كله، وعن الأمل في عودة هذا الماضي..

كان يعرف أن هذه هي بداية النهاية.. بعد كل هذه السنوات من الكفاح. وأنه ليتمتع لنفسه بصلاة الخضوع والتوبة بينما كان مطارده يعيدون إلى جيبه زجاجة البراندي. ولكنه لم يكن حافلاً بما يفعلون، وكان شعوره في تلك اللحظة نوعاً من المغالطة التي يقع فيها المحتضر وهو يحاول التوبة والندم على فراش الموت.. فالتوبة هي ثمرة الحياة

المنظمة الفاضلة لا ثمرة الخوف وحده. وحاول أن يثير الشعور بالخزي والعار في نفسه وهو يفكر في ابتته، ولكنه لم يستطيع أن يفكر إلا فيما ستلقاه من مصير. أما الخطيئة نفسها فقد صارت قديمة كأنها لوحة تاريخية محا الزمن منها عيوبها ولم يبق فيها إلا الرقة والجمال.. وانتشرت حول الجميع رائحة الخمر، بعد أن تحطمت الزجاجة على الرصيف، خفيفة واهنة لأنه لم يكن في الزجاجة غير القليل...

وسار بين آسريه الذين راحوا يعاملونه في شيء من المودة بعد أن نجحوا في القبض عليه. وكانوا يعابثونه ويركبونه بالدعابات لمحاولته الهرب من تهمة بسيطة كهذه. أما ذو القميص الأحمر الذي كان السبب فيما حدث، فلم يشترك في دعابته. ولم يستطيع الراهب أن يجيب عن أسئلتهم العابثة، أو يستجيب لمزاحهم؛ لأن غريزة حب البقاء كانت تغلف عقله كأنها كابوس رهيب، ترى متى سيكتشفون حقيقته، ومتى سوف يلتقي بالرجل المولد ذي النابين الأصفرين، أو بضابط البوليس الذي استجوبه في تلك القرية..!

كانوا جميعا يصعدون ببطء في الطريق المؤدي إلى الساحة. وسمع صرير بندقية على الأرض أمام مركز البوليس وهم يقبلون عليه، وشاهد مصباحًا صغيرًا يتصاعد الدخان من ذبالته وهو معلق بالقرب من الجدار القذر المطلي بالجير.. وفي فناء مركز البوليس شاهد شبكات السرر المعلقة المتأرجحة وهي تضم بين جوانبها أجسام النائمين كأنها الشباك التي تعلق فيها الدجاج.

وقال أحد الرجال من حوله:

«يمكنك أن تجلس هناك».

ثم دفعه في شيء من المودة نحو مقعد خشبي، وشعر أن القضاء قد حان الآن ولا سبيل إلى رده. فها هو الحارس يروح ويجيء أمام باب المركز.. وها هو ذا غطيظ النائمين في السرر المعلقة ينتشر في جو الفناء.

وسمع صوت شخص يتحدث إليه، فقال في استسلام وهو يفغر فاه:

«ماذا؟!».

وبدا له أن ثمة جدلاً عنيفاً يجري بين ذي القميص الأحمر، وأحد رجال البوليس، عن احتمال ازعاج أحد الرؤساء في تلك الساعة، فقد كان ذو القميص الأحمر يكرر هذه العبارة قائلاً:

«ولكن هذا واجبه؟».

ثم أردف يقول وقد بدت أسنانه القواطع كأسنان الأرنب:

«لسوف أرفع تقريراً إلى الحاكم».

وقال أحد رجال البوليس للراهب:

«إنك معترف بذلك.. أليس كذلك؟».

«نعم».

فاستدار رجل البوليس إلى ذي القميص الأحمر وقال:

«ماذا تريد أكثر من هذا الاعتراف! إن الحكم لن يتجاوز غرامة

خمس بيزات، فلم نزعج أحدًا في مثل هذه الساعة؟».

«ليس هذا من شأنك».

وعندئذ قال الراهب فجأة:

«لن يحصل عليها أحد».

«لا أحد؟؟».

«إن كل ما أملكه في دنياي هو مبلغ خمسة وسبعين سنتاوث».

وفتح باب إحدى الغرف الداخلية، وظهر فيه ضابط البوليس الذي قال وهو يتقدم نحو المجتمعين:

«ما هذه الضجة بحق الله؟».

وانتصب رجل البوليس في وقفته - رغمًا عنه - بينما قال ذو القميص الأحمر للضابط:

«قبضت على هذا الرجل متلبسًا بحمل زجاجة خمر..».

وجلس الراهب مطرقًا برأسه إلى الأرض يتمتم في دعاء التوبة والندم «لأنه تعذب.. تعذب.. تعذب..» وارتج عليه، فلم يستطيع أن يتم الدعاء لفرط شعوره بالخوف..

وقال الضابط:

«حسنًا.. وما شأنك أنت بهذا؟ إننا نقبض على عشرات من

أمثاله!..».

فقال أحد الرجال:

«هل نأتي به إلى مكتبك؟».

وألقى الضابط نظرة على وجه الراهب الشاحب الغائر الوجنتين
وقال أمرًا:
«قف».

ووقف الراهب وهو يقول لنفسه «الآن.. انتهى كل شيء».
ورفع عينيه.. ولكن الضابط كان مشيحًا بوجهه نحو باب المركز
حيث كان الحارس يروح ويجيء، وكان وجهه المملوح الحاد ينم في
تلك اللحظة عن الضجر والرغبة في الانفجار.
وفجأة صاح بالحارس:
«يا إله السموات.. ألا يمكن أن تتعلم!».

ثم سار بضع خطوات نحو الحارس، ثم استدار وقال:
«فتشوا الرجل، فإذا لم يكن معه نقود، ألقوا به في السجن،
واعهدوا إليه بعمل يؤديه».

ثم مضى إلى خارج الباب ورفع يده فجأة وأهوى بها في صفة
شديدة على أذن الحارس وهو يقول:
«إنك نائم على نفسك.. سر يا رجل كأن بين جنبيك بعض
الكبرياء».

وكرر الصفة والحديث مرة أخرى، بينما ظل المصباح البترولي
يرسل دخانه على الجدار القذر المطلي بالجير، ورائحة دورة المياه

تنتشر في الجو، وغطيط النائمين يعلو وهم منطوين في شباك السرر
المعلقة..

وقال جاويش:

«هل نسجل اسمه؟»

فقال الضابط دون أن ينظر إليه وهو في طريق العودة إلى الفناء:

«نعم.. طبعاً».

ووقف برهة في العراء يتلفت حوله والمطر يتساقط على ملابسه
الرسمية الخفيفة وكان يبدو في مظهر الرجل الذي يستبد بذهنه شيء..
وكأنما يسيطر عليه انفعال نفسي خفي مؤلم حطم رتبة حياته.

وعاد إلى غرفة مكتبه.. فهو لا يستطيع أن يهدأ في مكان واحد..

ودفع الجاويش بالراهب إلى غرفة داخلية، يضيئها مصباح بترولي
كبير، وعلى جدرانها المطلية بالجير علقت صورة فتاة مولدة سمراء
في ملابس السباحة تعلن عن نوع من المياه الغازية وثمة عبارة مكتوبة
بالقلم الرصاص، وبخط جميل، تقول: إن الإنسان لا يملك في الحياة
ما يفقده إلا.. قيوده..

وقال الجاويش وهو يجلس إلى المكتب:

«اسمك؟».

ووجد الراهب نفسه يقول فجأة قبل أن يراجع نفسه:

«مونتي».

«محل إقامتك؟».

وذكر اسم قرية نائية.. وقد كان في تلك اللحظة مشغولاً بالنظر إلى صورته المعلقة على الجدار.. إنها تمثله وهو جالس بين النساء والفتيات في ملابسهن الحريرية البيضاء أثناء أحد الاحتفالات الدينية وكان ثمة شخص مجهول قد رسم حول وجهه في الصورة دائرة ليميزه عن الغير.. وكانت هناك صورة أخرى على نفس الجدار.. صورة المجرم الأمريكي الهارب من سان أنطونيو بولاية تكساس والمتهم بجرائم القتل والسرقة.

وقال الجاويش في حذر:

«أعتقد أنك اشتريت هذه الخمر من رجل غريب؟».

«نعم».

«من رجل لا تعرفه ولا تستطيع أن تتعرف عليه».

«نعم».

فقال الجاويش مؤيداً:

«هذا ما يحدث عادة».

وكان الواضح أنه يريد أن يفضي بشيء. وأمسك بالراهب في شيء من المودة.. وسار به عبر الفناء وهو يمسك في يده الأخرى مفتاحاً ضخماً. وتحرك بعض الراقيدين في السرر المعلقة.. وبدأ من بينهم جانب من وجه كبير حليق كأنه شيء تبقى بلا بيع في دكان جزار. وأذن كبيرة مقطوعة، وساق عارية سوداء الشعر. ترى متى سيظهر له

وجه الموزتيزو «الرجل المولد» وهو يسطع بالبهجة عد التعرف عليه؟...

وفتح الجاويش باباً صغيراً محصناً بقضبان الحديد، ودفع بقدمه جسماً مكوماً على المدخل، وهو يقول:

«إنهم هنا رفاق طيبون.. رفاق طيبون».

وراح يشق طريقه بالحذاء بين الكتل البشرية المكومة.. وكان الجو في الزنانة مفعماً برائحة رهيبة، ومن مكان ما في ظلامها سمع أنين الباكين.

ووقف الراهب برهة في المدخل يحاول أن يمد بصره في الظلام الكثيف الذي بدا له كأنه يتململ ويتحرك.. وتتمم أخيراً بقول:

«إنني شديد الظمأ.. ألا أحصل على بعض الماء؟».

وانسابت الرائحة الكريهة المفزعة إلى منخريه فإذا هو يشعر بغثيان شديد.

وقال الجاويش مجيباً عن سؤاله:

«ستشرب الماء في الصباح.. ويكفي ما شربت الليلة من الخمر».

ثم وضع كفه الضخم على ظهر الراهب، ودفع به في قوة إلى الداخل، وأغلق الباب. ووضع الراهب وجهه على قضبان الباب الحديدية وقال في لهجة فزع واحتجاج:

«إن الغرفة هنا مزدحمة.. ليس فيها موضع لقدم.. من هم المزدحمون فيها؟».

وسمع في الخارج، من بين السرر المعلقة، ضحكة الجاويش وهو
يقول له:

«أيها المتشرد.. ألم يسبق أن قضيت ليلة في السجن!».



الفصل الثالث

وسمع صوتًا يقول عند قدميه:

«هل معك سيجارة؟».

فتراجع بسرعة وهو يدوس فوق ذراعه، بينما ارتفع صوت آخر
في لهجة أمرة:

«اسقني .. بسرعة».

وكأنما أراد صاحب الصوت الأمر أن يأخذ هذا الغريب على حين
غرة ويجعله يقدم ما قد يكون معه من ماء.

«هل معك سيجارة؟».

«لا.. ليس معي شيء قط».

وخيل إليه أنه يشعر بالكراهية تتصاعد حوله كأنها سحابة من
الدخان. وتحرك ثانيًا من مكانه، وقال أحدهم:

«حذار أن تصطدم بالجرذل!».

إذن، فمن هذا الجرذل كانت تتصاعد تلك الرائحة الكريهة. وتسمر واقفًا في موضعه حتى تعتاد عيناه الظلام. وكان المطر في الخارج قد بدأ يتوقف إذ كانت قطراته تتساقط رذاذًا، وابتعد دوي الرعد، وأصبح في مقدوره أن يعد «أربعين» فيما بين ومضة برق وأخرى.. ومعنى هذا، كما تقول الخرافة، أن البرق قد ابتعد أربعين ميلاً.. أي نصف المسافة إلى البحر، أو إلى الجبال..

وشرع يتحسس المكان حوله بقدمه، آملاً أن يجد مكانًا يتسع لجلوسه، ولكن بدا له أنه لن يجد مكانًا للجلوس قط. وعندما كان البرق يومض، كان في مقدوره أن يرى من خلال قضبان الباب، السرر المعلقة في الفناء.

وقال صوت عند قدميه:

«ألديك شيء يؤكل؟».

فلما لم يجب، كرر الصوت السؤال، فقال مجيبًا:

«لا..».

وقال صوت آخر:

«هل معك نقود؟».

«لا».

وسمع فجأة، على مسافة خمسة أقدام داخل الزنزانة صيحة خافتة لامرأة.

وقال صوت ثالث ينم عن الإعياء والضجر:

«ألا يمكن أن تلزموا الصمت؟».

وظل الراهب يسمع، في طيات الظلام، وخلال الرائحة الكريهة الآخاذة، حركات مريبة لم يستطع أن يفهم معناها. ومرة أخرى وضع قدمه خطوة، وراح يشق طريقه، بوصة بعد بوصة، بعيدًا عن الباب، وكان يعلو فوق الأصوات البشرية صوت آخر.. منتظم رتيب، كأنه آلة صغيرة، أو جهاز كهربائي ضبط على نغمة خاصة.. إنه صوت كان يملأ فترات السكون، ويعلو فوق صوت الأنفاس الآدمية.. إنه طنين البعوض..

وابتعد عن الباب إلى الداخل نحو ست أقدام، وابتدأت عيناه تتبينان الرؤوس الآدمية.. لعل السحب قد انقشعت عن صفحة السماء.. إن الرؤوس تبدو في طيات الظلام كأنها ثمار القرع الكبير.

وقال صوت:

«من أنت؟».

ولم يجب.. فقد كان يشعر بالفزع يدب في صدره مرة أخرى، وفجأة وجد نفسه يصطدم بالجدار الخلفي للزنزانة، وكانت حجارته تحت يده مبللة لزجة.. وأدرك أن طول الزنزانة لا يزيد على عشرين قدمًا.. ولم يجد مكانًا يستطيع الجلوس فيه بشيء من الراحة، فلم يسعه إلا أن يجلس القرفصاء وقد طوى ساقيه تحت فخذيه، وشعر برجل عجوز يتوكأ برأسه على كتفه، وقد استنتج عمره من خفة عظامه، ومن

أنفاسه الواهنة اللاهثة.. فقد كان كأنه مخلوق يوشك أن يدخل الحياة
أو يخرج منها، ولم يكن معقولاً أن يضم هذا المكان طفلاً وليدًا....

وفجأة قال الرجل العجوز للراهب:

«أهذه أنتِ ياكاترينا!».

ثم تلاشى صوته في زفرة طويلة صابرة كأنما هو قد ظل ينتظر فترة
طويلة ولا يزال على استعداد للانتظار فترة أخرى..

وقال الراهب:

«لا.. لست كاترينا».

وصمت كل من في الزنزانة عندما تحدث.. إنهم يرهفون السمع
كأنما لحديثه أهمية خاصة. ولما صمت، عادت الأصوات والحركات
إلى ما كانت عليه. وشعر بشيء من الراحة عندما سمع صوته الخاص
وحين تبادل الحديث مع جار..

وعاد العجوز يقول:

«من المستحيل أن تكون أنت كاترينا.. وأنا أعرف هذا في الواقع..
لأنها لن تعود..».

«أهي زوجتك؟».

«ما هذا الذي تقول..؟ إنني غير متزوج».

«إذن من تكون كاترينا؟».

«إنها ابنتي».

وكان كل من في الزنزانة يرهفون السمع فيما عدا أولئك المشغولين بأنفسهم عن كل شيء. وقال الراهب:

«لعلهم لا يسمحون بوجودها معك هنا».

«إنها لن تحاول إطلاقاً».

وكان يتحدث بصوت ينم عن اليأس واليقين التام. وشعر الراهب ببدء الألم في ساقيه المنطويتين تحته وهو يقول:

«إذا كانت تحبك...».

وقطع حديثه فجأة حين سمع تلك الحركة المريبة التي لا يفهم معناها تصدر مرة أخرى من ركن الزنزانة.. أما الرجل العجوز فقال:

«إن القساوسة هم المسؤولون عما حدث.. القساوسة..».

«القساوسة؟».

«نعم القساوسة».

«ولماذا القساوسة؟».

«إنهم القساوسة».

وسمع صوتاً خافتاً بجانب ركبتيه يقول:

«إن هذا العجوز مخبول، فما جدوى إلقاء الأسئلة عليه؟».

وعاد العجوز يقول حين سمع نبرات الصوت الجديد:

«أهذه أنتِ يا كاترينا؟ إنني في الواقع لا أصدق أنك أنتِ، كما

تعرفين.. ولكنه مجرد سؤال».

وقال صاحب الصوت الغامض:

«لقد وجدت الآن سببًا أشكو منه.. إن واجب الرجل أن يحمي عرضه، وأنت تعترف بهذا.. أليس كذلك؟!». «إنني لا أعرف شيئًا عن الشرف».

«لقد كنت في النادي عندما جاءني الرجل الذي أحدثك عنه وقال لي إن أُمي بغي، ولم يكن في وسعي أن أفعل له شيئًا.. فقد كان يحمل مسدسه. وكل ما استطعت أن أفعله هو أن أنتظر.. وكان يسرف في شرب البيرة.. وأنا كنت أعرف أنه سيسرف في الشرب تلك الليلة.. وعندما غادر النادي يترنح. سرت وراءه، وكانت معي زجاجة حطمتها على جدار.. أترى..! لقد جعلت منها سلاحًا لأنني لم أكن أحمل مسدسًا.. ولولا أنه كانت لأسرته علاقة وطيدة بمدير البوليس لما كنت أنا هنا الآن».

«إنه لشيء فظيع أن يقتل الإنسان إنسانًا!».

«إنك تتحدث كأنك راهب أو قس».

فقال الرجل العجوز:

«إنهم القساوسة.. هم المسئولون، وأنت محق فيما تقول».

«ماذا تراه يعني؟».

«وماذا يهمك مما يعنيه رجل عجوز كهذا؟ إنني أحب أن أخبرك عن شيء آخر».

وقال صوت امرأة في الظلام:

«إنهم أخذوا الطفلة بعيداً عنه».

«لماذا؟».

«لأنها ابنة غير شرعية... وحسنًا فعلوا».

وشعر بقلبه يخفق في حنين موجد وهو يسمع كلمة «ابنة غير شرعية» وكأنما هو رجل يحب أن يسمع رجلاً آخر ينطق باسم زهرة ينطبق اسمها على اسم حبيبته.

«ابنة غير شرعية» إن هذه الكلمة نفعم قلبه بلون عجيب من السعادة الحزينة! إنها تزيد ابنته قرباً منه.. وإنه ليتخيلها كما كانت جالسة تحت الشجرة بجانب أكوام القمامة، وحيدة. بغير حام أو راع. وردد كلمة «ابنة غير شرعية» وكأنما يردد اسمها في حنان.

وقالت المرأة مستطردة:

«قالوا إنه والد غير صالح لرعاية الطفلة، ولكن، عندما هرب القساوسة والرهبان، اضطرت الطفلة للحياة معه، وإلا أين كان يمكن أن تذهب...؟».

وشعر الراهب بأن عبارة المرأة الأخيرة كالنهاية السعيدة، ولكنها أردفت قائلة:

«على أن الطفلة شعرت نحوه بالكراهية - طبعاً - فقد كان رجال الدين يحسنون تعليمها وتهذيبها وتبصيرها بشئون الحياة».

وخيل للراهب أن هذه المتحدثة امرأة صغيرة الفم مثقفة.. ترى ماذا تفعل هنا؟

وسأل قائلاً:

«وما الذي جاء به إلى السجن؟».

«لقد ضبط وهو يحمل صليبا صغيرا بين ملابسه».

وكانت الرائحة المتصاعدة من الجردل تزداد خبثا طوال الوقت..
وكان ظلام الليلة يحيط بهم كالسياج الحجري، لا منفذ فيه، وسمع
شخصا يبول في الجردل محدثا في جوانبه المعدنية رنينا كريها.

وقال الراهب:

«لم يكن من شأن رجال الدين أن يؤلبوا الطفلة على أبيها!».

«لقد فعلوا ما حتمه الواجب عليهم.. فقد كانت ابنة غير شرعية،
ومعنى هذا أنه ارتكب خطيئة كبرى...».

«ليس من واجبهم أن يعلموا الابنة كيف تكره أباهما على كل حال».

«إنهم أدرى بما يجب وما لا يجب».

فقال بحماس:

«لا شك أنهم كانوا رجال دين أشرا حين فعلوا هذا.. لقد ارتكب
الخطيئة وانتهى الأمر، وكان الواجب عليهم أن يعلموها... الحب - لا
الكراهية!».

«أنت لا تعرف ما هو الواجب.. ولكن رجال الدين يعرفون».

وبعد برهة من التردد، قال بصوت واضح:

«إنني أحد رجال الدين.. راهب».

وهكذا كانت النهاية.. لم يعد في حاجة ليتشبث بأهداب الأمل بعد الآن. إن عشر سنوات من مطاردة البوليس له قد انتهت أخيرًا.. وإنه ليشعر بالسكون التام مخيمًا حوله، وإنه ليحس أن هذا المكان يشبه العالم تمامًا، فهو مزدحم بالمطامع والجرائم والحب الخبيث.. إنه القنطرة إلى السماء، ولكنه أحس، رغم هذا، أن من الممكن أن يجد الراحة فيه.. راحة اليأس، ما دام الوقت الباقي من حياته قد غدا قصيرًا للغاية.

وقالت المرأة أخيرًا:

«راهب؟؟».

«نعم».

«وهل يعرف رجال البوليس هذا؟».

«لم يعرفوا بعد».

وشعر بيد تمسك بكم سترته ثم سمع صوتًا يقول:

«ما كان لك أن تذكر هذه الحقيقة هنا يا أبي.. فإن في هذه الحجرة كل أنواع القتل والمجرمين!».

وارتفع صوت الرجل الذي وصف جريمة القتل التي ارتكبها ببقايا الزجاجة قائلاً:

«ليس من حقك أن تشتمنا.. إن ارتكابي جريمة قتل رجل لا يعني أنني....».

وابتدأ الهمس في كل مكان بينما أردف صاحب الصوت يقول
بمرارة:

«إنني لست خائناً أو واشياً رغم إنني قتلت الرجل الذي سبّ أمي
في عرضها».

وقال الراهب:

«لن يكون أحدكم في حاجة لأن يشي بي أو يخبر عني. فإنها
خطيئة كبرى طبعاً.. ولكن عندما يسفر الصباح فسوف يتعرفون عليّ
بأنفسهم...».

وقالت المرأة:

«هل سيعدمونك رمياً بالرصاص يا أبي؟».

«نعم».

«وهل أنت خائف؟».

«نعم.. طبعاً».

واشترك في الحديث صوت جديد آتٍ من ركن الحركات المريبة،
فقال صاحبه في خشونة وتحذ:

«إن الرجل لا يخاف شيئاً كهذا».

فتساءل الراهب قائلاً:

«أحقاً؟».

«نعم.. إنه شعور سريع قصير بالألم... ماذا تتوقع غير هذا؟ كل

إنسان معرض له يومًا».

«ولكنني مع هذا أشعر بالخوف».

«إن وجع الأسنان أقسى من وجع الموت».

«ليس في مقدورنا أن نكون جميعًا رجالًا شجعانًا».

فقال الصوت في لهجة تنم عن الاحتقار:

«هكذا أنتم جميعًا أيها المؤمنون.. الإيمان يجعلكم جبنا».

«نعم.. قد تكون على صواب.. فأنا- كما ترى- راهب شرير..

ورجل غير فاضل».

ثم أرسل ضحكة خفيفة وهو يردف قائلاً:

«إن موت الإنسان وهو مرتكب خطيئة كبرى يدعو إلى التأمل

والتفكير والخوف».

فقال الصوت في لهجة انتصار كأنما استطاع أن يقيم الدليل على

شيء:

«ها أنت ذا تثبت ما أقول.. إن الإيمان يثير الجبن في الإنسان».

«وماذا بعد؟».

«خير لي ألا أكون مؤمنًا.. وأن أكون شجاعًا».

فقال الراهب في صوت ينم عن السخرية الخفيفة:

«آه.. فهمت.. فأنت تستمد شجاعتك من عدم الإيمان.. ولا شك

أن شجاعتك هذه تبلغ الذروة إذا أوهمت نفسك أن حاكم الولاية لا

وجود له، وأن هذا السجن ليس سجنًا، وإنما قطعة من الجنة!». «هذا لغو فارغ».

«ولكن إحساسك بالشجاعة سيختلف إذا أيقنت أن الحاكم مقيم في قصره بالميدان، وأن هذا السجن سجن حقًا.. إنك في هذه الحالة لا تستطيع أن تفعل ما تشاء خوفًا من بطش الحاكم...». «لا يستطيع أحد أن يزعم أن هذا السجن ليس سجنًا». «أحقًا؟ يبدو إذن أنك لا تؤمن بما يقوله رجال السياسة».

وكانت قدماء تؤلمانه أشد الألم وهو جالس القرفصاء لا يستطيع أن يخفف الضغط على أعصابهما لضيق المكان. وكانت الساعة لم تبلغ بعد منتصف الليل، وكان الليل يمتد أمامه إلى غير نهاية.. وقالت المرأة فجأة:

«من كان يتصور أنه يكون بيننا هنا.. شهيد قديس؟!». وأرسل الراهب - رغماً عنه - ضحكة خفيفة بلهاء ثم قال: «لا أعتقد أن القديسين الشهداء على هذا النمط».

وتوقف عن الحديث برهة حين تذكر فجأة كلمات ماريا: وهي إنه لا يجوز أن نجعل الشهداء والقديسين موضع الضحك والتندر بانضمامهم إليهم.. ومن ثم قال بلهجة جادة:

«إن الشهداء رجال بررة أتقياء مقدسون.. ومن الخطأ الكبير أن يطلق اسم الشهيد على كل من يموت في ظروف كهذه.. لا.. فإني

أقول لك إنني ارتكبت الخطيئة الكبرى، واقتربت من الآثام ما لا أستطيع أن أذكر بعضها لك.. وإنما أستطيع فقط أن أهمس بها في أثناء الاعتراف أمام راهب آخر».

وكان الجميع، وهو يتحدث، ينصتون إليه وكأنما هو يتحدث إليهم من محراب الكنيسة، وكان يتساءل في نفسه: ترى من منهم سيقوم غداً بدور يهوذا- الخائن الأبدي- ولكنه لم يكن حافلاً بالأمر، كما لم يحفل به وهو في الكوخ مع «المولد» ذي النابيين. وإنما كان يشعر بعاطفة قوية من المودة والتراحم نحو زملائه في هذا المكان. وومضت في ذهنه عبارة إن «الله رحمن رحيم يحب هذا العالم».

وعاد يقول:

«يجب يا أبنائي ألا يخطر ببالكم أن الشهداء رجال أمثالي، فأنتم تطلقون عليّ اسمًا خاصًا.. نعم.. فقد سمعتكم تذكرونني به كثيرا من قبل.. إنكم تسمونني الراهب السكير... وقد جئت إلى هذا السجن لأنهم عثروا معي على زجاجة خمر».

وحاول أن يحرك قدميه من تحت ساقيه، ولكنه شعر بذلك الخدر الشديد الذي أفقده كل شعور بهما.. ولم يحفل كثيرًا بخدر قدميه.. فليسوف يفقد كل شعور بالحياة نفسها بعد ساعات..

وغمغم الرجل العجوز بكلمات مبهمة.. وارتد هو- الراهب- بذاكرته إلى ابنته بريجيتا. فقد كانت محن الحياة مركزة في قلبها كأنها البقعة السوداء- التي لا تفسير لها- في شريط مصور بأشعة «إكس».

وشعر بحنين شديد - جعل أنفاسه تلهث - للعمل على إنقاذها، ولكنه كان يعرف القرار النهائي للطبيب: أنه لا أمل في النجاة..

وعاد صوت المرأة يقول في لهجة دفاع:

«هل وجدوا معك قليلاً من الخمر يا أبي؟ إن هذا ليس بالأمر الخطير».

وتساءل في نفسه عن سبب وجود هذه السيدة في السجن.. لعلهم عثروا في بيتها على صورة دينية مقدسة. فإن نبرات صوتها تنم عن تدينها وتقواها.. وأمثالها من الأتقياء المتدينين يقيمون بحماقة وزناً كبيراً للصور الدينية.. لماذا لا يحرقوها! فإن إيمان القلب في غير حاجة إلى الصور والمظاهر.. وقال في حزم رداً على حديثها:

«أوه إنني لست سكيراً فقط».

وكان دائماً يشعر بالقلق على مصير النساء المتدينات.. فإنهن - كرجال السياسة - يعشن على الغرور والوهم. إنه طالما شعر بالخوف من أجلهن.. فإنهن يستقبلن الموت دائماً بسرور عجيب لا يقهر.. لا أثر فيه للمعنى الحقيقي للخوف من الله.. وهو الخوف النابع من فرط الحب. ولهذا كان يشعر أن واجبه - كلما استطاع - أن يسرق منهن ذلك الشعور الوهمي بحقيقة الخير والفضيلة. ومن ثم قال بصوت جاف:

«إن لي ابنة».

يا لها من امرأة كلها تقوى! إن صوتها ينم عن الدفاع المستميت عنه وهي تسترسل في حديث غامض تبين منه عبارة «اللس التائب»،

فقال لها:

«يا ابنتي.. إن اللص قد ندم وتاب.. أما أنا فلم أتب».

وعاد بذكرته إلى ابنته وهي تدخل الكوخ، بنظراتها الزاخرة بخبرة الحياة، والشمس الغاربة تسطع على ظهرها.. واستطرد يقول:

«ولست أدري كيف أتوب؟».

وكانت تلك حقيقة ثابتة.. فَقَدْ فَقَدَ القدرة على التوبة. إنه غير قادر على أن يزعم لنفسه أنه يتمنى لو أنه لم يرتكب هذه الخطيئة أبدًا؛ لأنه أصبح يحب - ابنته - وهي ثمرة الخطيئة دون أن يحفل بالخطيئة ذاتها على مرور الزمن..

لقد كان في أشد الحاجة إلى زميل له ليعترف بين يديه؛ لأن الاعتراف سيدفع بتفكيره شيئًا فشيئًا إلى هذه الممرات الملوثة المؤدية إلى الفزع، والخوف، ثم الشعور بالندم والرغبة في التوبة..

إن المرأة الصامته الآن: وإنه لا يدري هل كان خشنًا في حديثه معها أكثر مما ينبغي؟ هل كان من المحتمل أن يتضاعف إيمانها لو أنها اعتقدت بأنه قديس شهيد؟ إنه يطرد هذا الاحتمال من ذهنه. حيث ينبغي أن يلزم الإنسان جانب الحق والصدق على الدوام. وتتململ قليلاً في جلسته المرهقة ثم قال:

«في أية ساعة يسفر الصباح؟».

فقال أحد الرجال:

«في الرابعة، في الخامسة.. أنى لنا أن نعرف يا أبي وليس لدينا ساعة؟».

«وهل مضى عليك وقت طويل هنا؟».

«ثلاثة أسابيع».

«أيقونكم في هذا المكان طيلة الوقت؟».

«أوه.. لا.. إنهم يرغموننا على تنظيف الفناء والزرنانات».

وقال لنفسه: إذن هذا هو الوقت الذي سيكتشفون فيه حقيقتي، هذا إذا لم يتعرفوا عليّ في وقت أسبق، فليس من شك في أن أحد هؤلاء النزلاء سيشتي به بمجرد أن يفتح الباب في بكور الصباح. وراحت الخواطر تنساب في ذهنه حتى وجد نفسه يقول للنزلاء جميعاً:

«إن هناك جائزة لمن يرشد عني.. خمسمائة أو ستمائة بيزة.. لا أدري على التحديد».

ولزم الصمت مرة أخرى.. فإنه لم يستطيع أن يتمادى أكثر من هذا في إغراء هؤلاء النزلاء للإرشاد عنه.. فإنه لو فعل.. أي لو تمادى في إغرائهم للوشاية به؛ لبلغ حد ارتكاب الخطيئة.. ولكنه رأى - في الوقت نفسه - أنه لا يوجد أي سبب يدعو لحرمان أحد هؤلاء النزلاء من الجائزة إذا كان في عزمه أن يرشد عنه.. حقاً إن الوشاية به إحدى الكبائر.. في مستوى واحد مع جريمة القتل.. وهي الجريمة التي تغتفر في هذا العالم عن طريق الاعتراف أو التوبة.. وقطع عليه تسلسل أفكاره صوت يقول:

«لا يوجد هنا أحد يريد مالا ملوثا بالدماء».

ومرة أخرى أحس نحو هؤلاء النزلاء بارتباط عاطفي قوي.. إنه مجرد مجرم بين قطع من المجرمين.. وإنه لأول مرة في حياته ليحس بمشاعر من حسن المودة والصحبة نحو هؤلاء الرفاق، لم يشعر به نحو المتدينين الذين كانوا يقبلون- بخشوع- يده الموضوعة في قفاز قطني..

وانطلق صوت المرأة النقية نحوه فجأة وهي تقول:

«من الحماسة البالغة أن تقول هذا يا أبي لهؤلاء الناس... إنك لا تعرف أي نوع من الحثالة البشرية في هذا المكان.. لصوص.. وقتلة».

فقاطعها صوت يقول بغضب:

«حسنًا، وأنت؟ لماذا أنت هنا؟».

فأعلنت قائلة بصوت ينم عن الكبرياء والتعالي:

«لقد ضبطوا في بيتي كتبًا دينية».

وتبين الراهب أنه لم ينجح في زلزلة كبريائها وغرورها الديني ومن ثم قال:

«إنهم في كل مكان.. وليس هنا فقط».

«الكتب الدينية المهدبة؟».

فأرسل ضحكة خفيفة وقال:

«لا.. لا.. أعني اللصوص والقتلة.. آه.. حسنًا يا ابنتي... لو كان لك

مزيد من تجارب الحياة لأدركت أن العالم مليء بما هو أسوأ وأكثر شراً».

وكان الرجل العجوز قد راح في نوم غير مريح وهو معتمد برأسه على كتف الراهب، وكان يتمتم في أثناء نومه بعبارات غامضة غاضبة.. وقد كان الراهب يجد من العسير عليه أن يتزحزح أو يتململ في مكانه ليخفف من الضغط المؤلم على ساقيه وقدميه، فأصبح الأمر أشد عسراً بعد نوم الرجل العجوز على كتفه. فهو لا يستطيع أن يحرك كتفه خشية أن يستيقظ العجوز ليواحه الحقيقة المؤلمة طوال الليل.. وقال لنفسه معزياً: «حسناً.. لقد كان زملائي من رجال الدين هم الذين حرموه من ابنته غير الشرعية.. فلا أقل من أن أهيب له قليلاً من الراحة».

وظل ساكناً، وهو جالس القرفصاء بجوار الجدار الرطب، وقدماه المخدرتان من فرط الألم تحت فخذه.. وظل البعوض مسترسلاً في طينته وهجمات الدامية.. ولم يكن ثمة جدوى في مقاومته بضربه في الهواء.. ويبدو أن شخصاً آخر راح - كالعجوز - في النوم، وارتفع غطيته في جو المكان، وكأنما المسكين قد أكل حتى شبع وشرب حتى ارتوى في حفلة فاخرة، ثم نام ليستريح!

وحاول الراهب أن يتعرف على الوقت: كم مضى عليه منذ التقى بالمتسول أول مرة في الساحة! من المحتمل أن يكون الوقت الآن حوالي منتصف الليل.. أي لا تزال هناك ساعات أخرى من هذا العذاب حتى يسفر الصباح..

وعندما يسفر الصباح، ستكون النهاية - طبعاً - بالنسبة له. ولكن

على الإنسان في مثل هذا الموقف أن يكون مستعدًا لكل شيء، ولكل احتمال، حتى احتمال الهرب، إذا كان في علم الله أن ينجو ويهرب- فإن الله سبحانه- قادر أن ينجيه حتى وهو واقف أمام فوهات البنادق المصوبة إليه في ساعة الإعدام. ولكن الله رحيم رحمن.. ولن يكون هناك غير سبب واحد يجعل الله سبحانه يحرمه هذه الراحة الأبدية بالموت، إن كان في الموت راحة، وهو أنه لا يزال مقدراً عليه أن يكون أداة لإنقاذ روح خاطئ آخر.. روحه هو.. أو روح شخص آخر.. ولكن.. أي نفع يمكن أن يؤديه الآن لنفسه أو لغيره بعد أن ضيق عليه البوليس الخناق، وأصبح غير قادر على دخول أية قرية خشية أن يتسبب في قتل رهينة منها.. وقد تكون هذه الرهينة رجلاً من مرتكبي الكبائر لم تتح له فرصة التوبة والتكفير.. وليس يدري أحد كم رجلاً سوف يُقتل على هذا الحال لا شيء إلا لأنه- الراهب- عنيد متكبر يرفض الاعتراف بالهزيمة.. إنه لن يستطيع بعد اليوم أن يقيم قداساً؟ وليس معه قطرة من الخمر.. فقد ذهبت كلها في حلقوم مدير البوليس، وإن الأمر لمعقد بشكل رهيب.. فهو لا يزال خائفاً من الموت، وسيتضاعف خوفه عندما يسفر الصباح، ولكنه- وهنا جانب التعقيد- بدأ يشعر بأن الموت قد راح يستهديه ويستميله ببساطة..

وسمع المرأة المتدينة تهمس في أذنه مما يدل على أنها استطاعت أن تقترب منه بطريقة ما، وإذا هي تقول:

«أبي.. هل تسمع اعترافاتي؟».

«أتعترفين هنا يا ابنتي، إنه لأمر مستحيل.. أين السرية الواجبة

لصحة الاعتراف؟».

«لقد مضت فترة طويلة لم....».

«يكفي أن ترددي بخشوع الدعاء والابتهاال ليغفر الله خطاياك...
ثقي يا عزيزتي أن الله يلتمس العذر للمضطّر غير الباغي...».

«إنني لا أكره احتمال الألم والعذاب في الدنيا»..

«حسنًا.. ها أنت ذي تتعذّبين هنا».

«إنه عذاب لن يطول.. ففي الصباح تكون أختي قد حصلت على
قيمة الغرامة فتدفعها ويطلق سراحها...».

ومرة أخرى صدرت من ركن قصي بالزنزانة حركة مريبة.. فقالت
المرأة في صوت ينم عن غثيان النفس من فرط السخط والغضب:

«هؤلاء الحيوانات.. الوحوش».

«لا يليق أن تلتمسي المغفرة من الله وأنت في هذه الحالة النفسية».

«ولكن.. هذه البهيمة!!».

«من الخطر أن تعتقدي هذا.. لأننا، أحيانًا، نكتشف فجأة أن
للخطيئة بعض الجمال».

فقالت في ازدراء شديد:

«جمال؟! هنا..؟! في هذه الزنزانة.. بين هؤلاء الغرباء جميعًا؟!».

«إنه جمال من نوع آخر.. إن القديسين يتحدثون عن جمال العذاب
في الدنيا.. حسنًا.. وما نحن بقديسين.. أنت أو أنا.. إن العذاب بالنسبة

لنا كريبه.. إننا ننظر إلى هذا المكان على أنه قدر.. مزدحم.. مؤلم.. ولكنه جميل بالنسبة لأولئك الذين في الركن القصي.. وإن الأمر ليحتاج إلى كثير من المعرفة بحقائق الحياة حتى يستطيع الإنسان أن ينظر إلى الأشياء بعين القديس. وللقديس ذوق خاص في فهم الجمال وهو ينظر إلى هؤلاء الجهلة البؤساء في ذلك الركن.. أما نحن فليس لنا مثل هذا الذوق».

«إنها إحدى الكبائر».

«إننا لا ندرى.. فقد تكون.. ولكن المؤكد أنني راهب شرير.. كما ترين.. وأنا أعرف- بالتجربة- مبلغ ما كان عليه الشيطان من جمال قبل أن يسقط.. ولن يستطيع أحد أن يزعم أن الشيطان لم يكن ملاكًا قبل أن يسقط.. وأن للملائكة جمالًا وصفاء فوق ما يتصور العقل البشري.. إنهم مخلوقون من النور و...».

وهتفت المرأة تقول حين سمعت الحركة المريبة مرة أخرى:

«يجب أن تضع حدًا لهذه البهيمية التي تثير الغثيان في النفس».

وشعر الراهب بأصابع المرأة التقية وهي تغرزها في ركبته، فقال:

«إننا جميعا زملاء سجن.. وأنا في هذه اللحظة أشد شوقًا إلى

الخمير من شوقي إلى التوبة.. وهذه خطيئة أخرى».

فقال المرأة:

«الآن أستطيع أن أتأكد إنك راهب شرير.. لقد آبيت أن أصدق

من قبل، أما الآن..! يكفي أنك تلتمس العذر لهؤلاء الحيوانات.. فلو

سمع رئيسك الأسقف بهذا...».

«إنه الآن في مكان بعيد جدًا».

وراح يفكر في الرجل العجوز المقيم هناك.. في عاصمة الجمهورية في واحد من هذه المساكن المريحة- القديمة- الزاخرة بالتماثيل والصور الدينية- حيث يقيم قداسًا في صباح كل أمام أحد المحارب بالكاتدرائية..

وعادت المرأة تقول:

«عندما أخرج من هنا، فسوف أكتب له..».

ولم يسعه إلا أن يرسل ضحكه خفيفة وهو يرى مبلغ تعصبها وأخيرًا قال:

«إذا تسلم خطابك، فسوف يهتم بشيء واحد.. وهو أنني لم أزل على قيد الحياة».

ولكنه لم يلبس أن عاد ينظر إلى الأمور نظرة جادة.. إنه لا يستطيع أن يشعر نحو هذه المرأة بأكثر من الرثاء الذي شعر به نحو المولد ذي النابين الذي التقى به منذ أسبوع في الغابة.. بل إنه يرى أنها أسوأ حالًا منه.. فللمولد بعض العذر بسبب الجهل والفقر والإهانات التي تلاحقه في كل مكان..

وقال لها:

«حاولي ألا تغضبي عليّ.. وبدلاً من الغضب ابتلهي وصلي من أجلي».

«إن خير مصير لك هو الموت».

ولم يكن في مقدوره أن يراها في الظلام.. ولكنه يذكر كثيرًا من الوجوه التي تتفق مع صوتها ولهجتها في الحديث.. فأنت حينما تسبر غور إنسان ما تشعر نحوه بالرحمة والعطف لا بالحقد والكراهية.. وهذه هي إحدى المعجزات الخالدة التي يحملها الإنسان بين جنبيه، فأنت حين ترى العينين وما حولهما من خطوط وأركان وهيئة الفم، وكيف ينبت الشعر، تجد من المستحيل عليك أن تشعر بالكراهية.. فإن الكراهية مجرد فشل في الخيال. وهكذا بدأ يشعر بالمسئولية الضخمة نحو هذه المرأة المتدينة فقال لها:

«أنت والأب جوزيه.. إن أمثالكما هم الذين يجعلون الناس يسخرون من.. من الإيمان الحقيقي».

وتبين أخيرًا أن لها بعض الأعذار التي للمولد البائس، وإن كانت - أي الأعذار - تختلف، فهو يستطيع أن يتخيل حياتها الرتيبة الهادئة التي تقضيها على مقعد هزاز، في صالون منزلها المزين بالصور والتماثيل الدينية، دون أن تحفل بالتعرف على الناس أو تعرف الناس لها.

وقال في صوت رقيق:

«إنك غير متزوجة.. أليس كذلك؟».

«لماذا تريد أن تعرف».

«وليس لديك أي عمل على الإطلاق.. كأن تكوني راهبة في دير

مثلاً؟».

فقال في صوت ينم عن المرارة:

«.. ولعلك لا تصدق هذا؟ رغم أنني حاولت».

وراح يفكر: يا لها من بئسة.. ليس في حياتها شيء.. شيء قط.. لو كان في مقدور الإنسان أن يجد التعبير الملائم...! واعتمد بظهره على الجدار الرطب في يأس وكان يتحرك في رفق شديد حتى لا يوقظ الرجل العجوز.. ولم يستطع أن يجد التعبير المناسب.. فقد ازدادت الهوة اتساعاً بينه وبين أمثالها.. ولو كان في عهده الأول لاستطاع أن يجد ما يقوله لها دون أن يخامرهم أي شعور بالعطف والرحمة.. ولا استطاع - في غير اهتمام أو تركيز ذهني - أن يحدثها ببعض عبارات تافهة لا تصدر من القلب، ولا تصل إلى القلب. أما الآن.. فإنه غير ذي نفع لها.. إنه مجرد مجرم لا يستطيع إلا الحديث مع المجرمين.. وقد أخطأ وهو يحاول أن يحطم رضائها عن نفسها، بل كان الأفضل له أن يدعها تستمر في وهمها بأنه قديس شهيد.

وأغلق عينيه وقد غلبه النوم على أمره.. وراح يحلم.. فرأى أنه لا يزال مطارداً بعنف وأن مطارديه يوشكون أن يلحقوا به، فوقف أمام باب وراح يطرق عليه طالباً السماح بالدخول ولكن أحداً لا يجيب عليه، فقد كانت هناك كلمة.. كلمة سر.. هي التي ستقذه، ولكنه نسي هذه الكلمة، وإنه يحاول جاهداً أن يتذكرها من طريق كلمات أخرى مثل: جين.. طفل كاليفورنيا.. صاحب الفخامة.. لبن.. فيراكروز.. وشعر بالخدر الشديد في قدميه، فسقط راکعاً خارج الباب.. وعندئذ علم السبب الحقيقي في رغبته الملحة في الدخول.. إنه ليس مطارداً

في الواقع، لقد ظن هذا خطأ.. إن ابنته بجانبه تنزف الدماء إلى درجة الموت.. وهذا باب عيادة طبيب.. وإنه ليطرق الباب بعنف وهو يصيح: «حتى إذا لم أذكر كلمة السر، أفليس لك قلب؟» إن الطفلة المشرفة على الموت ترفع عينيها إليه بنظرات ملؤها التعصب الديني المعروف عن العصور الوسطى وتقول له: «أيها الحيوان!».

واستيقظ من النوم يبكي..

ويبدو أنه لم يستغرق في النوم غير لحظات معدودة؛ لأن المرأة المتدينة بجانبه كانت لا تزال تتحدث عن رغبتها في الالتحاق بدير للراهبات، ولكن رئيسة الدير أبت عليها أن تلتحق، فقال لها: «وهذا ما يجعلك تتألمين.. أليس كذلك؟! إن شعورك بمثل هذا الألم قد يكون أفضل من شعورك بالسعادة لو تحقق أملك وأصبحت راهبة».

وما إن نطق بهذه العبارة حتى قال لنفسه: إنها ملاحظة سخيفة ما معناها، لماذا لا أقول لها عبارات تعلق بذهنها..

ويئس أخيراً من المحاولة..

فقد كانت هذه الزنزانة كأى مكان آخر في العالم.. زاخرة بالرغبة في انتهاب اللذة الخاطفة، والرغبة في التعالي والكبرياء رغم سوء الأحوال المحيطة بهذه الرغبات.. فليس ثمة وقت لأن يؤدي الإنسان عملاً جديراً بأن يؤدي.. وإنما الإنسان يحلم دائماً بالهرب..

ولم يعاوده النوم مرة أخرى، وإنما راح يفكر في عهد جديد مع الله، فإذا أتاحت له أسباب النجاة هذه المرة، فسوف يهرب من الولاية

كلها.. سيمضي نحو الشمال عبر الحدود.. وإن نجاته هذه المرة لتبدو في حكم المستحيل، فإذا حدثت رغم هذه الاستحالة، فسوف تكون إشارة.. علامة.. دليلاً أكيداً على أنه يفعل من الشر - بقدوته السيئة - أكثر مما يفعل من الخير بإتاحة الفرص ليعترف الخاطئون بين يديه.

وتحرك العجوز قليلاً فوق كتفه.. وظل الليل جاثماً حوله.. وكانت الظلمة، كما هي دائماً، لا تخف ولا تتغير.. ولم يكن ثمة ساعات.. لا شيء يدل على أن الوقت يمر.. بل كان الشيء الوحيد الذي يدل على مرور الوقت، هو قضاء الحاجة في الجردل بين الحين والآخر..

وفجأة شعر أنه يرى وجهًا.. ووجهًا آخر.. وكان قد بدأ ينسى أن هناك يوماً آخر سيشرق تماماً كما ينسى الإنسان أن هناك يوماً سوف يموت فيه.. إن فكرة الموت تخطر بالبال فجأة عند زعيق عجلة السيارة وهي تتوقف قبل أن تصدم رجلاً.. وعندما تخطر هذه الفكرة يشعر الإنسان بأن أيامه تكرر، وبأن لها نهاية حتمًا...

وبدأت جميع الأصوات تتحول في ببطء إلى وجوه.. ولم يشعر الراهب بأية دهشة أو مفاجأة، وهو يرى الوجوه تتبدى أمامه.. فقد كانت كما تخيلها من أصواتها.. فإن مهنته التي يحترف فيها الاستماع إلى اعترافات الناس جعلته يستطيع - من نبرات الصوت - أن يتخيل بعض ملامح المتحدث.. الشفة المدلاة، أو الذقن الصغيرة، أو النفاق المطل من النظرات الثابتة أكثر مما ينبغي.. ورأى المرأة المتدينة على بعد أقدام منه، نائمة تحلم بقمها الأبيض المفتوح، وأسنانها القوية كأنها

مقابر.. والرجل العجوز.. والرجل في الركن مع امرأته النائمة كيفما كان على ركبته. أما وقد أسفر الصباح أخيراً فقد وجد نفسه المستيقظ الوحيد فيما عدا غلاماً صغيراً من الهنود الحمر، كان جالساً متربّعاً بالقرب من الباب وقد ارتسمت على وجهه أبلغ أمارات السعادة وكأنما لم يسبق له أن استمتع من قبل بجو من الصحة والزمالة كهذا.. وهناك، عبر الفناء، كان الطلاء الجيري لجدار المركز يبدو بوضوح.. وبدأ، في خشوع، يودع العالم.. ولم يستطع أن يركز كل عواطفه في الصلاة الأخيرة.. فقد كانت حواسه تدفع به إلى التفكير في رذائله هو. واحدة هي التي ستنتقل رأساً إلى قلبه.. فإن فصيلة جنود الرماة، يجب أن يكون فيها جندي واحد على الأقل يحسن التصويب إلى الهدف وسوف تنتهي حياته في أقل جزء من الثانية.. في ومضة عين.. ومع هذا ظل طوال الليل يفكر في الساعات ومرور الوقت.. ولم يكن هناك ساعات، ولم يكن الظلام ليتحرك أو يتبدل. وليس يعرف أحد- في الواقع- ما هو الزمن الحقيقي للحظة الألم الشديد.. فإنها قد تستمر فترة ما بين الحياة الإنسانية ويوم القيامة، وقد تستمر إلى.. الأبد.

ولأمر ما خطر بباله في تلك اللحظة منظر رجل كان على فراش الموت بسبب السرطان، وكان هو جالساً معه يسمع اعترافاته الأخيرة، وكان أهل المحتضر قد وضعوا الأربطة على أنوفهم بسبب الرائحة الرهيبة المنبعثة من جسد المحتضر.

نعم.. إنه يوقن بأن ليس في الحياة ما هو أشد فظاعة من الموت!

وسمع صوتاً في الفناء يصيح قائلاً:

«مونتيز».

وظل جالسًا القرفصاء على قدميه الخدرتين.. وراحت الأفكار تدور برأسه أليًا: إن هذه البذلة الكتانية لم تعد تصلح لشيء بعد أن تلوّث وتكمشت خلال هذه الفترة التي أمضاها بالزنزانة. لقد غامر بحياته واشتراها من متجر ملابس جاهزة بالقرب من شاطئ النهر، زاعمًا لصاحبه أنه فلاح صغير الشأن يريد أن يختال بالبذلة الجديدة أمام أقرانه، أما الآن.. فإنه لن يحتاج إليها مرة أخرى. وقد دهمته هذه الحقيقة فجأة وجعلته يشعر بإحساس الرجل الذي يغلق باب بيته من الخارج لآخر مرة في حياته.. وتكرر صوت المنادي عليه في صبر نافذ: «مونتيز؟».

وتذكر، في تلك اللحظة، أن هذا هو اسمه.. أو كان اسمه.. ورفع رأسه ورأى الجاويش وهو يفتح باب الزنزانة ويقول: «هلم يا مونتيز».

وأسند رأس الرجل العجوز برفق على الجدار الرطب، وحاول أن ينهض واقفًا، ولكن قدميه خذلناه بينما الجاويش يصبح به قائلاً في تذكر:

«أتريد أن تنام أكثر مما نمت؟».

ويبدو أن شيئًا ما قد أثار أعصابه فلم يعد ودودًا كما كان بالأمس، وركل بحذائه رجلًا نائمًا في المدخل وهو يصيح: «هيا.. استيقظوا جميعًا.. هلم إلى الفناء».

ولم يطع الأمر - أولاً - إلا الغلام الهندي الذي انسل نحو الفناء وأمارات السعادة لا تزل مرتسمة على وجهه. وعاد الجاويش يقول متوتراً.

«هؤلاء الكلاب القذرة.. أيريدون أن تحمل إليهم الماء ليغتسلوا.. أنت يا مونتيث!».

وبدأت الحياة تدب في قدميه، واستطاع - من ثم - أن يصل إلى الباب..

واضطربت الحياة بشكل ما في الفناء.. فثمة طابور من الرجال يغسلون وجوههم أمام صنبور واحد، وجلس رجل في صديريته وسراويله على الأرض محتضناً بندقيته. وكان الجاويش لا يكف عن الصياح بقوله:

«هيا اخرجوا جميعاً إلى الفناء واغتسلوا».

حتى إذا رأى الراهب يخطو نحو الفناء، صاح به أمراً:

«انتظر أنت يا مونتيث».

«أنا؟».

«نعم.. إن لدينا لك عملاً آخر».

ووقف الراهب في مكانه ينتظر بينما راح زملاؤه يخرجون الواحد بعد الآخر إلى الفناء.. ساروا أمامه فرداً فرداً.. وكان هو ينظر إلى أقدامهم لا إلى وجوههم، وكان في وقفته - بالنسبة إليهم - كأنه رمز للإغراء والغواية.. ولكن لم ينطق أحد منهم بكلمة.. ورأى قدمي

المرأة وهي تنقل خطاها بإعياء متعلة حذاءً قديمًا أسود اللون خفيض الكعب، وكان يرتعد من فرط الشعور بتفاهته وعدم فائدته لأحد، ووجد نفسه يتمتم هامسًا للمرأة المتدينة:

«صلي من أجلي...».

وسمع صوت الجاويش وهو يقول:

«ماذا تقول يا مونتي؟!».

ولم تسعفه ذاكرته بكذبة يقولها، فقد شعر كأن عشرة أعوام من التخفي قد استنفدت كل ذخيرهته من المراوغة والخداع..

«ما هذا الذي قلت يا مونتي؟!».

وتوقفت قدما المرأة عن الحركة، وارتفع صوتها وهي تقول للجوايـش:

«لقد كان يطلب مني إحسانًا».

ثم أردفت تقول في قسوة:

«كان يجب أن يدرك بدهاة أنني لا أملك شيئًا أحسن به على أحد».

ثم تحركت القدمان، وسارت المرأة في طريقها إلى الفناء.

وقال له الجاويش في شيء من السخرية والثناء:

«هل نعمت بالنوم المريح يا مونتي الليلة؟».

«لا.. لم يكن النوم مريحًا تمامًا».

«إذن ماذا كنت تنتظر؟ لسوف أعلمك كيف تحب البراندي كما

ينبغي.. أترى؟».

«حسنًا».

وراح يتساءل: متى تنتهي هذه المقدمات التي تشبه لعب القط بالفأر؟

وعاد صوت الجاويش يقول له هازنًا:

«إذا كنت قد أنفقت نقودك كلها على البراندي، فيجب أن تؤدي بعض الأعمال نظير قضاء ليلتك عندنا.. اذهب واحمل الجرادل من الزنانات إلى دورة المياه، وحذار أن ينسكب منها شيء.. فإن الجو هنا في غير حاجة إلى مزيد من ذلك التن!».

فقال الراهب في شيء من الدهول:

«أين أمضي بها؟».

فأشار الجاويش إلى باب دورة المياه، الواقع بعد الصنبور ثم قال: «أبلغني الأمر عندما تنتهي».

ثم مضى يطلق الأوامر هنا وهناك في جوانب الفناء.

وانحنى الراهب، ورفع الجردل، وكان ممتلئًا، وثقيلًا، فحمله وهو ينحني من فرط ثقله وسار به عبر الفناء وقد انحدرت قطرات العرق على عينيه، فلما مسحها بطرف كفه، شاهد في الطابور الواقف أمام الصنبور وجوهًا يعرفها. إنها وجوه الرهائن التي أخذها الضابط من القرى ليقتلها رميًا بالرصاص إذا لم يرشد أحدهم عن مكان الراهب. وقد رأى بين الرهائن وجه الشاب ميجويل، وتذكر صيحة أمه وهو

يؤخذ أمام عينيها في تلك القرية، وتذكر وجه الضابط يومذاك الذي كان ينم عن الغضب والإرهاق. كانت الشمس في تلك اللحظة تشرق من وراء أشجار الغابة، وقد رآه الرهائن في اللحظة نفسها. فوضع الجردل الثقيل على الأرض وأخذ ينظر إليهم.. فقد رأى أنه إذا تجاهلهم فكأنما يطلب منهم أو يوحى إليهم، أو يأمرهم بأن يستمروا في احتمال العذاب والتهديد بالموت حتى يهرب.. وكان ميجويل قد ضرب بقسوة ضرباً شديداً.. وكانت آثار الضرب واضحة في الجرح الدامي تحت عينه. حيث أخذت أسراب الذباب تنهات عليه كما تنهات على جرح مكشوف في جسم البغلة. وتحرك الطابور بعيداً عن الصنبور، وأطرق الجميع برؤوسهم نحو الأرض، وأغضوا بعيونهم وهم يسيرون أمامه. واتخذ مكانهم رجال آخرون، غرباء، وراح يتمتم في أعماق نفسه بالدعاء: «يا رب.. ارسل إليهم شخصاً أجدر بأن يحتملوا من أجله العذاب». فقد شعر أنه من السخرية الرهيبة أن يتعذب هؤلاء الناس لحماية راهب سكير مثله له ابنة غير شرعية..

وكان الجندي الجالس على الأرض بسرّويله وبندقيته، مشغولاً بقضقضة أظافره وقضم أطرافها بأسنانه. وخامر الراهب إحساس غريب من الوحدة والوحشة؛ لأن كل واحد من الرهائن أبى أن يتعرف عليه أو يشي به..

ومضى بالجرّدل إلى دورة المياه التي لم تكن غير مرحاض من الطراز العتيق، فأفرغه، ثم عاد وعبر الفناء إلى صف «الزنزانات».. وكان مجموعاً ستاً.. ومضى إلى الواحدة بعد الأخرى يحمل جردلها.

وقد اضطر ذات مرة أن يتوقف في الفناء وهو يبذل كل جهده حتى لا يقيء.. وظل يروح ويغدو عبر الفناء بحمولته التنتة حتى وصل إلى الزنزانة الأخيرة، وكانت خالية إلا من رجل كان معتمداً بظهره إلى الجدار، وأشعة الشمس الباكرة تصل إلى قدميه، والذباب حوله يتهافت على كومة رهيبة من القيء المسكوب على الأرض. وفتح الرجل عينيه وهو يرقب الراهب أثناء انحنائه ليحمل الجردل، وكان نابه الأصفران بارزين فوق شفته السفلى..

وحمل الراهب الجردل وأسرع به متعثراً في طريقه إلى الخارج غير حافل بما ينسكب منه. ولكن الرجل قال له بذلك الصوت المألوف ذي النبرات المغيظة:

«انتظر لحظة.. إنك لا تستطيع أن تفعل هذا هنا.. أن تسكب القذارة..».

ثم أردف يفسر الحديث بكبرياء:

«لأنني لست مسجوناً.. بل ضيفاً».

وقام الراهب بحركة اعتذار «لأنه كان يخشى أن يتحدث» وحاول أن يمضي في طريقه، ولكن الرجل المولد ذا النابيين أمره قائلاً:

«تعال هنا».

ووقف الراهب بعناد بالقرب من الباب، وعاد الرجل المولد يقول:

«قلت تعال هنا.. إنك مسجون.. أليس كذلك؟ وأنا هنا ضيف..»

ضيف على الحاكم العام.. هل تريد مني أن أستدعي أحد رجال

البوليس؟ إذن تعال هنا...».

وخيل للراهب أن الله قد قرر، في النهاية، مصيره..
واستدار عائداً إلى المولد، والجردل في يده، ووقف بجانب قدمه
العريضة العارية، ورفع المولد عينيه وقال في حدة وقلق:
«ماذا تفعل هنا؟».

«أحمل الجردل إلى دورة المياه».

«أنت تعرف ما أعني».

فقال الراهب وهو يحاول تخشين صوته:

«لقد ضبطوا معي زجاجة براندي».

«إنني أعرفك.. لقد أبيت أن أصدق عيني.. ولكن.. عندما سمعت
صوتك!».

«لا أظن!».

«إنه صوت الراهب».

ونطق العبارة الأخرى باشمئزاز وكأنه كلب يرى أمامه كلباً آخر
من نوع مختلف، فهو لا يستطيع أن يمنع شعر ظهره من الانتصاب.
وتحرك إبهام قدمه - كما كانت تتحرك في الغابة، كالحشرة - ووضع
الراهب الجردل على الأرض وقال في لهجة يائسة:

«إنك سكران!».

فقال الرجل المولد:

«بيرة.. بيرة.. لا شيء غير البيرة.. ولكنهم وعدوا أن يقدموا إليّ كل ما أريد ولكن.. هل يستطيع أحد أن يثق بهم، ألسنت أعرف أن لمدير البوليس مخزنًا خاصًا للخمور!». .

«يجب أن أمضي الآن لأفرغ الجردل».

«إذا تحركت فسوف أستدعي رجال البوليس.. فلديّ أشياء كثيرة أريد أن أفكر فيها...».

ولم يسع الراهب إلا أن يقف ويبتظر.. فقد كان تحت رحمة المولد، وهي عبارة سخيفة.. فقد كانت عيناه الصفراوان بحمى الملاريا لا تنمان عن أي إحساس بالرحمة.. وأيًا كان الأمر، فقد نجا من ذل الرجاء للرجل أن يكتنم سره.

وقال المولد وهو يشرح الأمر بعناية:

«أرأيت كيف أعيش هنا في راحة وأمن».

وأخذ يحرك إبهام قدمه الأصغر - في عظمة - بجانب كومة القيء، ثم أردف يقول:

«إنني أستمتع هنا بالطعام الوفير، وبالبيرة، وبالصحبة الطيبة، وهذا السقف محكم لا يسمح بسقوط مياه المطر.. ولست بحاجة لأن تخبرني ماذا سيفعلون بي عندما.. عندما يقبضون عليك هنا. إنهم سيضربونني ويلقون بي إلى الخارج كالكلب».

وازداد صوته حدة وغضبًا وهو يستطرد قائلاً:

«ماذا تفعل هنا؟ هذا ما أريد أن أعرف! إن الأمر يبدو غامضًا

ملتويًا في نظري، فمهمتي هنا هي أن أرشد عنك.. فإذا عشروا عليك هنا، فمن الذي سيظفر بالمكافأة، لا شك أنه مدير البوليس، أو لعله ذلك الجاويش الشيطان».

ثم صمت برهة وعاد يقول في قلق وبؤس:
«إنك لا تستطيع أن تثق بأي إنسان في هذه الأيام».
فقال الراهب:

«وهناك ذو القميص الأحمر».

«ذو القميص الأحمر!».

«إنه هو الذي قبض عليّ».

«يا إلهي!! إن جميع ذوي القمصان الأحمر مقربون من الحاكم».

ثم رفع عينيه في لهفة وأردف قائلاً:

«إنك رجل مثقف.. ما رأيك؟ بماذا تشير عليّ؟».

«إن تسليمك لي جريمة قتل.. إحدى الكبائر».

«لا.. ليس هذا ما أعني. وإنما أعني الجائزة، أترى!.. فطالما هم لا يعرفون أنك الراهب، فسوف أبقى منعماً مستريحاً.. نعم إن رجلاً مجهوداً مثلي في حاجة إلى بضعة أسابيع إجازة من عناء الفاقة والتشرد. ثم إنك لن تستطيع أن تهرب بعيداً، ولهذا فمن المستحسن - كما ترى - أن يُقبض عليك بعيداً عن هذا المكان... في أي مكان آخر بالمدينة، وعندئذ لن يستطيع أحد غيري أن يطالب بالجائزة».

ثم أردف في غضب شديد:

«ما أكثر ما يشغل تفكير الفقير».

فقال الراهب:

«من المحتمل أن.. يعطوك جانبًا من الجائزة إذا أرشدتهم عني هنا».

فاعتدل المولد في جلسته وقال:

«لا.. بل أريد أن أظفر بالجائزة كلها».

وسمع الاثنان صوت الجاويش وهو يقول:

«ما هذا الذي يدور هنا؟».

ورأياه واقفًا في مدخل الزنانة، وشمس الصباح تغمره، وقال الراهب ببطء:

«إنه يريد مني أن أزيل كومة هذا القيء، وأنت لم تأمرني!».

وقال المولد متظرفًا وهو يصطنع الابتسام:

«وأريد زجاجة أخرى من البيرة يا جاويش».

فقال له الجاويش:

«لا.. ليس الآن.. عليك أولاً أن تقوم بجولة تفتيش عن الراهب في المدينة».

وتناول الراهب الجردل ومضى به عبر الفناء، تاركًا الرجلين يتجادلان. وكان يشعر كأن ثمة مسدسًا مصوبًا إلى ظهره. ومضى إلى

دورة المياه حيث أفرغ الجردل، ثم عاد إلى الفناء الذي يغمره ضوء الشمس. وشعر كأن المسدس هذه المرة مصوب إلى صدره، فقد كان الرجلان - المولد والجاويش - واقفين في مدخل الزنانة يتحادثان. وراح يعبر الفناء وهما يرقبان اقترابه منهما.. وكان الجاويش يقول للمولد:

«أقول إنك اليوم تعاني من التهاب المرارة ولا تستطيع أن تتبين الأشياء كما ينبغي، حسناً.. عليك إذن أن تتولى بنفسك تنظيف زنانتك.. ما دمت لا تؤدي عملك المنوط بك».

ورأى الراهب المولد - من وراء الجاويش - يغمز له بعينه، فأدرك أنه نجا مؤقتاً من الخطر الداهم، وانحسر عنه الخوف إلى حين، وحل محله شعور بالأسف. فتلك هي إرادة الله.. لا يزال عليه أن يمضي في الحياة، يتخذ لنفسه القرارات، وينفذ الخطط، ويدبر أموره العاجلة، كل هذا طبقاً لما يريد الله له.

واستغرقت عملية تنظيف الزنانات ساعة ونصف ساعة كاملة، كان خلالها يسكب على أرضية كل زنانة بضعة جرادل من الماء، ثم يتولى مسحها وغسلها.. ورأى المرأة المتدينة وهي تمضي - كأنما إلى الأبد - من خلال الباب إلى حيث كانت أختها تنتظرها بمبلغ الغرامة. وكانت الاثنتان تربطان المطارف السوداء حول رأسيهما وكتفيهما و كأنهما من هذه الأشياء التي تباع في السوق.. جافة.. خشنة.. «نصف عمر» ثم التفت إلى الجاويش الذي راح يتنقد نظافة الزنانات ويطلب منه إعادة غسلها بالماء.. وأخيراً ضاق الجاويش بالأمر كله

فجأة، وطلب منه أن يستصدر من مدير البوليس إذناً لإطلاق سراحه. وهكذا جلس نحو ساعة ينتظر على الدكة الخشبية خارج غرفة المدير، ويتسلى بمراقبة الحارس وهو يسير - مصطنعاً الاهتمام - جيئة وذهاباً في حرارة الشمس..

وأخيراً أقبل أحد رجال البوليس واقتاده إلى مكتب مدير البوليس.. ولكن المدير لم يكن هو الجالس إلى المكتب.. وإنما الضابط المكلف بمطاردته والقبض عليه. ووقف الراهب غير بعيد من صورته المعلقة على الجدار، ينتظر، ورفع عينيه بسرعة واختلس نظرة خاطفة إلى صورته وهو بين المجتمعين، وتنهى في ارتياح.. فقد كان الشبه بينه الآن وبين الصورة يكاد يكون معدوماً. وراح يفكر: لشد ما يبدو في هذه الصورة ثقل الظل مغروراً! ومع ذلك فقد كان أظهر - نسبياً - منه الآن. وكانت هذه الحقيقة أيضاً من بين الأسرار الخفية التي تحيره. فقد كان يشعر أحياناً أن اللمم - الذنوب البسيطة - كالأكاذيب الخفيفة، وضيق الصدر، والكبرياء، وإهمال الفرص السانحة، تقتل في القلب فضائل الرقة والسماحة والمودة أكثر مما تفعل الخطايا الكبيرة. ومع ذلك. فقد كان في أيام طهره وعفافه لا يكاد يشعر بالحب لأحد إلا نفسه، أما الآن، وقد تلوث بالخطايا.. فقد عرف الحقيقة.

وقال الضابط للشرطي:

«حسناً.. هل فرغ من تنظيف الزنانات؟».

وكان يتحدث دون أن يرفع عينيه عن الأوراق الموضوعه أمامه ثم أردف قائلاً:

«قل للجاويش إنني أريد أربعة وعشرين جنديًا مسلحين ببنادق
نظيفة محشوة.. أريد أن يكونوا مستعدين في خلال دقيقتين..».

ثم رفع رأسه وقال للراهب:

«حسنًا.. ماذا تنتظر؟».

«أنظر يا صاحب الفخامة إذنك لي بالانصراف».

فقال الضابط بحدة:

«إنني لست صاحب الفخامة.. تعلم كيف تنادي الناس بأسمائهم
اللائقة.. هل سبق أن سجت قبل الآن؟».

«لا.. مطلقًا».

«إن اسمك مونتيو! ويخيل لي إنني ألتقي في هذه الأيام برجال
وأطفال يحملون هذا الاسم أكثر مما ينبغي.. هل هم أقارب لك؟».

وجلس يرقب الراهب بإمعان كأنما بدأت ذاكرته تتحرك.. وأسرع
الراهب يقول:

«كان لي ابن عم يحمل هذا الاسم، وقد قتل رميًا بالرصاص في
كونسبكيون».

«ليست هذه غلطتي».

«إنني أعني فقط.. إننا كنا متشابهين. فقد كان والدانا توأم ولد
الأول بعد الثاني بنصف ساعة.. وقد خطر لي أن فخامتك ربما تظن..».

«إنه على ما أذكر كان رجلًا يختلف عنك.. طويل.. نحيل.. ضيق

الكتفين».

فقال الراهب بسرعة:

«ربما كان التشابه فقط في نظر العائلة».

«ولكنني لم أره غير مرة واحدة».

وكان يبدو عليه كأنما شيء ما يحز في ضميره وهو جالس يفكر في قلق ويعبث في الأوراق بأصابعه السمراء التي تجري فيها دماء الهنود الحمر. وفجأة سأل الراهب قائلاً:

«الله يعلم...».

«هكذا أنتم أيها الناس.. تعتقدون أن الله...».

وانطلقت على الورق أمامه حشرة صغيرة سوداء، فقتلها بأصبعه وهو يقول:

«وليس معك نقود تدفع منها الغرامة».

وراح يرقب حشرة أخرى وهي تحاول الهرب بين صفحات الورق.. ففي ذلك الجو الحار كانت الحياة تتكاثر إلى ما لا نهاية..

وقال الراهب:

«لا.. ليس معي مال».

«إذن كيف تعيش؟».

«ألتقط الأعمال حينما أجدها».

«لقد أصبحت أكبر سنًا من أن تعمل».

ثم وضع يده في جيبه وأخرج منها ورقة نقد من فئة الخمس بيزات
وقدمها للراهب وهو يقول:

«إليك هذه وانصرف.. وحذار أن أرى وجهك مرة أخرى هنا..
فهمت؟».

وطوى الراهب قبضته على الورقة المالية.. التي تبلغ أحياناً أجر
إقامة قُداس.. ثم قال في دهشة:
«إنك رجل طيب».



الفصل الرابع

كان الوقت لا يزال في بكور الصباح عندما عبر النهر سباحة ووصل إلى الشاطئ الآخر وقطرات الماء تتساقط من ملابسه.. ولم يكن يتوقع أن يرى أحدًا في ذلك المكان الذي تقع فيه فيللا الكابتن فيلوز.. ومخزن الموز ذو السقف المنحدر المصنوع من الصاج المطروق، وصاري العلم.. وقد كان يعلم أن الإنجليز ينزلون العلم مع غروب الشمس ويرددون نشيد: «حفظ الله الملك» وتقدم في حذر نحو باب المخزن ودفعه فانفتح، ودخل إلى الجو المظلم حيث سبق له أن اختفى فيه.. كم أسبوعًا مضى عليه منذ ذلك الحين؟ إنه لا يدري وإنما يدري فقط أن موسم الأمطار يومذاك كان بعيدًا.. أما الآن.. فقد بدأت الأمطار في الانهمار، وفي خلال أسبوع آخر لن يستطيع أحد أن يجتاز الجبال إلا في طائرة.

وتحسس المكان بقدمه.. إنه يشعر بجوع شديد.. وإن قليلاً من ثمار الموز قد تخفف من هذا الشعور، وكان قد مضى عليه يومان بغير طعام.. ولكن المخزن كان خالياً تماماً من أي شيء يؤكل.. يبدو أنه جاء في اليوم التالي لحمل الثمار إلى رصيف الميناء تمهيداً لشحنها، ووقف في الداخل، بالقرب من الباب، وراح يفكر فيما قالت له الصبية كورال عن إشارات مورس، إنه يرى نافذة غرفتها عبر الفناء ذي الأرضية الممتلئة بالتراب الأبيض الراكد، وإنه يرى أشعة شمس الصباح تتألق على الشبكة السلكية فوق النافذة، وشعر من فرط السكون المخيم عليه كأنه في مكان مهجور.. فأخذ يرهف السمع في لهفة وقلق، ولكنه لم يسمع حساً ولا نائمة في أي مكان، ألم يبدأ اليوم هنا بعد بذلك الوقع المتكاسل لخطوات المتيقظين من النوم على الأرضية الأسفلت، أو بخشخشة مخالب الكلب وهو يتمطأ. أو بطريقة يد على الباب.. لا.. لا صوت.. ولا حسيب ولا شيء قط.. ترى.. في أي وقت من الصباح هو؟ كم ساعة مضت منذ انبثق أول طيف من ضوء الفجر.. كان من العسير عليه أن يعرف.. فالوقت بالنسبة إليه كحبل من المطاط.. قد يمتد حتى درجة الفصم.. فلنفرض، مع كل هذا، أن الوقت هو بكور الصباح.. السادسة.. أو السابعة صباحاً، لقد تبين فجأة إلى أي حد كبير كان قد وضع في حسابه أن يعتمد على تلك الصبية كورال.. فهي الشخص الوحيد الذي كان في مقدوره أن يساعده دون أن يتعرض للخطر. وهو إذا لم ينجح في اجتياز سلسلة الجبال إلى حدود الولاية التالية خلال بضعة أيام قليلة، فسوف يجد نفسه واقعاً في فخ رهيب..

ومن الأصوب له حينئذ أن يسلم نفسه للبوليس.. وإلا فكيف تتسنى له الحياة طوال موسم الأمطار دون أن يعرض أهل القرى لمزيد من الخطر إذا لجأ إليهم طالبًا المأوى والطعام؟ ألم يكن من الأفضل له، والأسرع لنهايته لو أنهم تعرفوا عليه في مركز البوليس منذ أسبوع! وعندئذ سمع صوتًا ضعيفًا.. كأنه الأمل يعود إليه في حذر.. إنه صوت خشخشة وحممة كلب.. إن هذا هو ما يعنيه الإنسان حين يقول: طلع الفجر.. إنه صوت الحياة.. وظل في مكانه من الباب ينتظر.. ملهوفًا.. جائعًا..

وجاء مصدر الصوت.. كلبة حراسة مخلطة «بزميط». جاءت تجر نصفها الخلفي عبر الفناء. وكانت مخلوقة دميمة الشكل متهدلة الأذنين، مكسورة الساق، تعوي في خفوت.. وكان الواضح أنها مصابة في ظهرها.. فقد كانت تتقدم ببطء شديد.. وكان في مقدوره أن يرى ضلوعها كأنها بقايا حيوان معروض في متحف للتاريخ الطبيعي.. وقد كان يبدو عليها بوضوح أنها لم تذق طعامًا منذ أيام.. كانت مهجورة.. وكان يرسم على وجهها- بالعكس منه- ومضات من الأمل، فالأمل غريزة لا يستطيع أن يقتلها إلا عقل الإنسان المفكر.. أما الحيوان، فإنه لا يعرف معنى اليأس.. وكان وهو يراها تجر نفسها يدرك أن هذا كان يحدث يوميًا، ربما لمدة أسابيع.. كان يرى أمامه عملية متقنة التدريب كأنما هي نتيجة طبيعية لأسفار الصباح.. كأغنية الطيور في جو أكثر سعادة.. وظلت تزحف حتى بلغت باب الشرفة الكبيرة. ثم راحت تخمش الباب بمخلبها وهي تنبطح على الأرض

وتمد أنفها بين الفرجات كأنما تشم ذلك الهواء الراكد في الغرفة المهجورة، ثم أخذت تعوي بخفوت وضجر.. وحركت ذيلها فجأة كأنما شعرت بوجود أحد في الداخل، ثم بدأت تنبح.

ولم يستطع الراهب أن يطيل الانتظار.. فقد أدرك الآن معنى نباحها، ومن الخير له أن يرى بعينه. فتقدم نحو الفناء، والتفت إليه في ثقل وارتباك وهي تحاول أن تتخذ مظهر كلب الحراسة، ثم شرعت تنبح في وجهه.. إنها لا تريد الاستئناس بإنسان أيًا كان وإنما تريد ما تعودت عليه وأنست إليه.. تريد عالمها القديم أن يعود. وأطل بعينه من خلال شبكة النافذة.. ترى أهذه غرفة الصبية.. إنه لا يدري، فقد كانت مهجورة خالية من كل شيء إلا من بعض المهملات.. صندوق من الورق المقوى ممتلئ بقصاصات ورق ممزق، ومقعد بثلاث قوائم، ومسمار ضخّم مدقوق في الجدار حيث كانت معلقة عليه صورة أو مرآة، وبقباب مكسور.

وظلت الكلبة تزحف في الشرفة وهي تزمجر.. فقد كانت الغريزة بالنسبة لها كالإحساس بالواجب.. يمكن أن تكتسب بسهولة مع الوفاء.. واستطاع هو أن يتجنب الكلبة بسهولة وهو يخطو نحو المدخل الأمامي، ولم يكن في مقدورها أن تستدير بسرعة لتلحق به، ودفع باب الفيلا، فانفتح، وكأنما لم يهتم أحد بإغلاقه بالمفتاح.. ورأى جلد تمساح أمريكي قديم سيئ الدباغة والسلخ معلقاً على الجدار. وسمع وراءه خنيئاً «الصوت الصادر من الأنف» فاستدار بسرعة ليرى الكلبة وقد وضعت ساقها الأماميتين على العتبة تنظر إليه في سكون.. لقد

أصبح الآن داخل المنزل.. أي لم يعد في نظرها غريباً.. وإنما سيد تجب عليها الطاعة له.. وكان يبدو أن عقلها مشغول بمختلف أنواع الرائحة، فراحت ترحف وهي تهمهم في خفوت..

وفتح الراهب الباب الذي على يساره.. ودخل غرفة ربما كانت للنوم.. ففي ركن منها رأى كومة من زجاجات الأدوية لا يزال في بعضها بقايا سوائل مختلفة الألوان. وكان بينها أدوية للصداع ولحموضة المعدة، وأدوية تؤخذ قبل الأكل، وغيرها بعد الأكل، مما يدل بوضوح على أن شخصاً كان مريضاً جداً لحاجته إلى كل هذه الأدوية. وكان هناك أيضاً مشط شعر مكسور، وكرة من الشعر المتساقط بعد تمشيطة.. شعر ذهبي ناعم أصبح أبيض بفعل الغبار.. وفكر لنفسه وهو يتنهد: لا شك أن المريضة كانت أمها.. أمها فقط..

ودخل غرفة أخرى كانت تطل - عبر النافذة ذات الشبكة السلكية - على شاطئ النهر ذي المياه البطيئة الضحلة.. وكان يبدو عليها أنها كانت غرفة الجلوس، فقد رأى أنهم تركوا فيها منضدة للعب الورق من النوع الذي يُطوى ويُبسط، مصنوعة من رقائق الخشب الرخيص.. ولم تكن تساوي أكثر من بضعة شلنات، أي لا تستحق أن يهتموا بحملها معهم إلى حيث ذهبوا.. ترى أين رحلوا؟ إنه يتساءل: هل اشتد المرض على الأم وأشرفت على الموت؟ هل حصدوا المحصول كله ثم رحلوا إلى العاصمة لإلحاق الأم بالمستشفى؟

وغادر هذه الغرفة، ودخل غيرها.. إنها الغرفة التي رآها من الخارج.. غرفة الفتاة كورال.. وأفراغ صندوق الأوراق المهملة على الأرض في

شيء من الفضول الحزين وراح يلتقط بعض الأوراق ليقرأها وهو يشعر كأنما يختار بعض الذكريات العزيزة لشخص توفي ..

وقرأ في إحدى القصصات «إن السبب المباشر لحرب الاستقلال الأمريكية هو ما يسمى بحفلة شاي بوسطون» - وبداله أن هذه العبارة جزء من موضوع تاريخي مكتوب بخط جميل وبحروف مستديرة واضحة.. واستمر يقرأ «أما السبب الحقيقي» - وكانت الكلمة الأخيرة قد كتبت خطأ فضرب عليها وأعيدت كتابتها «فهو: هل كان من الجائز أن تفرض الضرائب على مواطنين ليس لهم ممثلون في البرلمان؟» - ويبدو أن هذه الورقة كانت تحمل مسودة الموضوع لكثرة ما كان بها من تعديلات. والتقط قصاصة أخرى عفواً، فوجد ما فيها يتعلق بفريقين يدعى أحدهما: الهويجز «حزب المحافظين» ويدعى الفريق الثاني: التوري «الأحرار» ولكنه لم يفهم دلالة الاسمين، وسمع في تلك اللحظة كأن منفضة تسقط من فوق السقف إلى الأرض، فنظر، فرأى أنها عقاب جوي، وعاد إلى ورقة أخرى يقرأ فيها «إذا كان خمسة عمال يستغرقون ثلاثة أيام في حصاد حقل مساحته خمسة فدادين وربيع، فما مساحة ما يحصده العاملان في اليوم الواحد؟» وكان تحت السؤال خط مستقيم، ثم مجموعة من الأرقام المختلطة التي لم تنته إلى النتيجة المطلوبة. وكان يبدو على الورقة، قبل أن تكمش وتُلقي في صندوق المهملات روح الضيق والتذمر التي سيطرت على الفتاة وهي تقوم بالعمليات الحسابية للوصول إلى النتيجة على غير جدوى وكان في مقدوره أن يتخيلها بوضوح وهي جالسة تعالج هذه المسألة الحسابية، بوجهها المستدير المليح وضميرتي شعرها القصير،

وتذكر استعدادها لأن تقسم على الشعور بالعداء الدائم لكل من يسيء إليه. وفي نفس الوقت تذكر ابنته بريجيتا وهي تحاول العبث به بجانب أكوام القمامة..

وأغلق الباب وراءه، بعد خروجه من الغرفة - كأنما يريد أن يمنع شخصًا ما من الهرب، وسمع الكلبة وهي تزمجر في مكان ما، فمضى إليها حيث رآها في الغرفة التي كانت مطبخًا.. وفوجئ بها منبطحة باستماتة فوق عظمة كبيرة مغلفة باللحم، وقد كشرت عن أنيابها، وفي الوقت نفسه رأى خارج الشبكة السلكية لنافذة المطبخ وجه غلام من الهنود الحمر، كأنه شيء معلق في الشمس ليجف: أسمر.. مجعد.. منفرد.. يركز نظراته على قطعة العظم كأنما يشتهيها.. ورفع الغلام الهندي عينيه نحو الراهب وهو يدخل المطبخ، ثم ابتعد واختفى وكأنما لم يكن له وجود، تاركًا البيت كما كان، مهجورًا..

وركز الراهب، أيضًا - نظراته على قطعة العظم..

كان عليها كثير من اللحم، وكانت ثم سحابة صغيرة من الذباب ترتفع بضع بوصات فوق فم الكلبة التي حولت نظراتها عن النافذة - بعد انصراف الغلام الهندي الأحمر - وركزتها على وجه الراهب.. وشعر فجأة أنه سيدخل مع الكلبة في نزال حامي الوطيس، فتقدم خطوة أو اثنتين ثم ضرب الأرض بقدمه مرتين وهو يصيح بها: «اذهبي» ثم عاد وصفق بيديه مكرراً الصيحة، ولكن الكلبة لم تتحرك، وإنما ازدادت استماتة فوق العظمة، وقد تجمع في عينيها المشتعلتين بين فكيها كل ما تبقى في جسمها الكساح من مقاومة.. كانت تمثالاً للكراهية في ساعة

الموت.. وتقدم الراهب نحوها في حذر.. فقد كان لا يزال غافلاً عن عجزها عن الوثوب عليه.. كان يظن أنها- كأبي كلب آخر- لن تلبث أن تهاجمه.. ويبدو أنه نسي في تلك اللحظة أن هذه المخلوقة كسيحة عاجزة، وأنها- كأبي آدمي مقعد- لا تستطيع إلا أن تحول نشاطها البدني إلى تفكير.. ومن ثم كان في مقدوره أن يرى في تلك اللحظة أفكارها: الجوع.. والأمل.. والكراهية.. كلها مرسومة في حدقة عينها..

ومد الراهب يده نحو العظمة، وارتفعت سحابة الذباب إلى أعلى قليلاً.. وظلت الكلبة ساكنة في مكانها، صامتة، تتربص.. وراح هو يتحدث إليها في رفق ودعاء ويقوم بحركات خفيفة في الهواء لإغرائها على ترك العظمة، ولكنها ظلت تنظر إليه لا تريم. واستدار بظهره أخيراً، وتحرك بضع خطوات بعيداً عنها كأنما يشعرها بأنه تخلى عن العظمة لها. ووقف يردد لنفسه عبارات من القداس كأنما أمر العظمة لا يعنيه، ثم استدار بسرعة خارقة ووثب نحو الكلبة، ولكن هذه لم تتزحزح أو تؤخذ على حين غرة، وهكذا أفسدت خدعته..

واستبد به- حينئذ- الغضب.. كيف تسرق هذه الكلبة «البرميط» الكسيحة الطعام الوحيد المتاح له! ووجه إليها عبارة سباب من هذه العبارات التي طالما سمع الدهماء يتبادلونها.. ولو كان في موقف آخر لشعر بأشد الدهشة لانطلاق لسانه بمثل هذه العبارات في سرعة وسهولة.. وفجأة وجد نفسه يضحك.. فهذا هي ذي الكرامة البشرية تنحدر إلى مستوى العراك مع كلبة من أجل قطعة عظام! وتراجعت أذنا الكلبة إلى الوراء حين سمعت رنين ضحكاته، وكأنما بدأ الشعور

بالخوف يخامرها.. ولكنه لم يشعر نحوها بأي عطف أو رثاء.. فقد كان يعلم أن حياته هو أهم بكثير من حياتها، ومن ثم راح يتلفت حوله باحثاً عن شيء يقذفها به. ولكن المطبخ كان خالياً - تقريباً - من كل شيء فيما عدا العظمة، ومن يدري؟ فلعلها أن تكون متروكة - عن عمد - من أجل الكلبة. وفي مقدوره أن يتخيل الفتاة كورال وهي تتذكر - قبيل الرحيل مع والدتها المريضة ووالدها الأحمق - الكلبة العاجزة. فقد شعر أثناء زيارته الأولى للاختفاء، أن هذه الفتاة هي التي كان يقع على كاهلها عبء التفكير في كل شيء..

وأخيراً عثر على قطعة من قضيب حديدي رفيع كان جزءاً من مصفاة الخضراوات، فأمسك به وتقدم نحو الكلبة وضربها ضرباً خفيفاً على فمها. وحاولت هي - دون أن تتحرك من موضعها - أن تلقف القضيب بأسنانها العتيقة المحطمة، وعاود الضرب بشدة.. وأمسكت هي بالقضيب بين أسنانها، فانتزعه بعنف وراح يضرب مرة بعد مرة قبل أن يتبين أخيراً أنها لا تستطيع أن تتحرك إلا بصعوبة وبطء شديد وأنه لم يكن في وسعها إلا أن تتحمل قسوة الضرب وعيناها الصفراوان تحدقان فيه - بين كل ضربة وأخرى - بنظرات كلها الفزع والشر.

ولما تبين هذا قرر أن يغير خطته، واستعمل القضيب كأنه نوع من الكمامة ووضعه بين فكّيها بينما انحنى واختطف العظمة من بين أسنانها. وحاولت أن تخشمه بمخبلها، ولكنها عجزت.. ووثب هو بعيداً بعد أن ألقى بالقضيب من يده، وبذلت الكلبة كل جهدها - على غير جدوى - لتلحق به، وأخيراً تهالكت على الأرض في استسلام لقد انتصر عليها

وظفر بالعظمة دونها فليس ثمة جدوى من الدمدمة والرمجرة..

وانتزع الراهب بأسنانه شريحة من اللحم - غير الناضج - وراح يمضغها بنهم.. إنه لم يأكل في حياته طعامًا أعذب مذاقًا.. وإذ هو يشعر بالسعادة في تلك اللحظة، فقد بدأ يحس بالعطف نحو الكلبة ومن ثم فكر في نفسه: لسوف أكل الجزء الأكبر ثم أترك لها الباقي.

ووضع بخياله علامة على العظمة لنصيبه الذي سيأكله، ثم انتزع شريحة أخرى، وزال إحساسه بغثيان الجوع الذي كان يشعر به منذ ساعات، وحل محله إحساس بالجوع الحقيقي، فمضى يأكل والكلبة ترقبه بهدوء، فقد بدأ عليها أنها لم تعد تشعر نحوه بالحقْد أو الكراهية بعد أن انتهت المعركة بينهما، واكتفت بأن أخذت تهز ذيلها له كأنما تأمل في أنه سيعطيها شيئًا مما يأكله.. وبلغ الراهب العلامة الوهمية التي حدد بها - بالخيال - نصيبه من لحم العظمة ولكنه كان يخيل إليه حينئذ أن شعوره السابق بالجوع كان وهمًا وأنه الآن يشعر بالجوع الحقيقي الرهيب.. ثم إن ما يحتاجه الإنسان لا شك أكبر وأهم مما يحتاجه الكلب.. ولا بأس من أن يترك لها هذا الجزء الكبير من اللحم عند مفصل العظمة، ولكنه لم يلبث أن أكل هذا أيضًا حين وصل إليه.. على كل حال فإن للكلبة أسنانا قوية تستطيع بها أن تأكل العظمة نفسها..

وألقي بالعظمة الخالية إلا من بقايا ضئيلة من اللحم عند فم الكلبة وغادر المطبخ ومضى، مرة أخرى، يجوس خلال الغرفات المهجورة. قبعات هنا.. زجاجات هناك أدوية هناك.. موضوع إنشائي عن حرب التحرير الأمريكية.. ولكن لا شيء ينم عن السبب في رحيلهم. وخرج

إلى الشرفة حيث رأى من ثغرة في سياجها الخشبي كتابًا مُلقى على الأرض بين عمودين من الأعمدة التي يقوم عليها المنزل بعيدًا عن مسير النمل البري. وكان قد مضى عليه أشهر طوال لم ير فيها كتابًا وكان في موضعه هناك بين بعض المهملات كأنه شعاع من البُشرى في حياة مقبلة أفضل.. حياة في مساكن خاصة ذات أجهزة استقبال لاسلكي وأرفف الكتب، وسرر مجهزة للنوم، ومفارش لموائد الطعام.. وركع على الأرض ومد يده وتناول الكتاب وهو يدرك فجأة أنه إذا استطاع أن يجتاز الجبال إلى الولاية الأخرى - قد يستطيع أن يستأنف حياته الماضية.. حياة الدعوة، والأمن والاستقرار..

وكان كتابًا إنجليزيًا.. ولما كان قد أمضى بضعة أعوام في إحدى الكليات الأمريكية فقد استطاع بشيء من الصعوبة أن يقرأ فيه، وحتى لو عجز عن فهم معاني العبارات المعقدة فيه، فقد كان كتابًا على كل حال.. وكان اسمه «جواهر من خمس قصائد طويلة: كنز من الشعر الإنجليزي» وعلى ورقة الغلاف الداخلية طبعت بضع كلمات كأنها شهادة مقدمة إلى... ثم اسم كورال فيلوز مكتوب بقلم حبر ثم عبارة «تقديرًا لامتيازها في الموضوعات الإنجليزية الإنشائية. بالفرقة الثالثة»، ثم تحت هذا شعار المعهد المكون من درع حديدي وجسم أسد طائر، وورقة من شجر الصنوبر مع حكمة لاتينية: «الفضيلة هي المعرفة» ثم توقيع المعهد بخاتم مطاطي «هنري بيكلي بكالوريوس آداب».

وجلس الراهب على درج الشرفة.. السكون مخيم حوله.. ولا أثر للحياة في مركز شركة الموز المهجور، فيما عدا عقاب جوي لم يفقد

الأمل بعد. أما الغلام الهندي الذي رأى وجهه خارج نافذة المطبخ، فكأنما لم يكن له وجود قط، وفكر الراهب في نفسه بشيء من المتعة: لا بأس أن أقرأ قليلاً بعد وجبة الطعام. وفتح الكتاب على أية صفحة.. كورال هذا هو اسم الفتاة: إنه يعني «مرجان».. وإنه يفكر في المحلات الكثيرة بمدينة فيراكروز التي تتبع أحجار المرجان بكثرة، وأنه ليذكر كيف تعود الأهالي أن يشتروا لبناتهم قطعاً من الحلي المرجانية بعد أول احتفال ديني يحضره..

وراح يقرأ هذا المقطع من إحدى القصائد:
«إنني آت من مأوى الضباع وأوكار الدجاج المائي...
»بعد أن قمت بهجوم فجائي...
»وفترت الأضواء بين حقول الخنشار...
»لتنافس بين السهل والوادي..»

وكانت قصيدة غامضة، بالنسبة إليه، كل الغموض، زاخرة بالألفاظ الغريبة النادرة وكأنها لغة الاسبرانتو «العالمية». وفكر لنفسه: إذن فهذا هو الشعر الإنجليزي! عجباً.. إن القصيدة الصغيرة التي يحفظها تدور حول العذاب، والندم، والأمل، أما هذه الأشعار، فإنها تنتهي بمعان فلسفية «فقد يأتي رجال وقد يذهب رجال، ولكنني ذاهب إلى الأبد..» وهز أعصابه ما تنطوي عليه كلمة «إلى الأبد» من مبالغة وبعد عن الحقيقة.. فإن قصيدة كهذه لا يجوز أن تلقى بين أيدي الأطفال والصبية. وأقبل العقاب الجوي يتوالت في الفناء مغبراً مترباً، وحيداً.. وكان بين الحين والآخر يسط جناحيه ويطير نحو عشرين ياردة ثم يحط في مكان

آخر من الفناء..

وعاد الراهب يقرأ مقطعاً آخر من قصيدة أخرى.

«هتف في حزن: عودي إليّ.. عودي إليّ..»

«عبر الأمواج الصاخبات..»

«وسوف أغفر لفتاك.. النبيل الاسكتلاندي

«يا ابتاه.. يا ابتاه..».

وبدا له هذا المقطع أشد في النفس تأثيراً، ولكنه، أيضاً، لا يصلح لقراءة الأطفال. وأحس بالكلمات الأجنبية ترن في أعماق نفسه بالعاطفة العبقريّة وهو جالس على درج الشرفة، وحيداً، يردد لنفسه «يا ابتاه.. يا ابتاه..».

وكانما كانت الكلمات مفعمة بكل ماتمتلى به نفسه من ندم ولهفة وحب شقي...

وخيل إليه وهو يمضي في طريقه نحو الجبال، أن مشاعر عجيبة غريبة تدب في أعماق نفسه.. فمنذ تلك الليلة التي قضاها في الزنانة الحارة الرهيبة، وهو يشعر أنه قد انتقل فجأة إلى عالم مهجور.. وكأنما هو قد مات هناك، حيث كان العجوز يضع رأسه على كتفه - ثم انتقل إلى عالم مائع لا هو بالجنة، ولا هو بالنار، لأنه لم يكن صالحاً جداً أو شريراً جداً. وأن المشاعر العجيبة الغريبة التي تدب في أعماق نفسه الآن توحي إليه بأن الحياة لم تعد ذات وجود بالنسبة إليه.

وعندما قصف الرعد وبدأ هبوب العاصفة، انطلق إلى أحد
الأكواخ للاحتماء، وهو يعلم تمامًا أنه سوف يجد.. لا شيء..!

وخيل إلى ناظره أن الأكواخ البعيدة تتواثب في ضوء البرق
الخاطف، ثم تبقى في مكانها ترتعش لحظة قبل أن تختفي مرة أخرى
في الظلام.. ولم يكن المطر قد وصل بعد إلى المنطقة الجبلية.. كان
لا يزال في طريقه من خليج كابيش كأنه ملاءات ضخمة تغطي أجزاء
الولاية كلها شيئًا فشيئًا في نظام مطرد.. وقد كان يخيل إليه، بين فترات
هزيم الرعد، أنه يسمع حفيفًا هائلًا يتقدم نحو الجبال التي غدت الآن
دانية منه.. على بعد عشرين ميلًا..

وبلغ في مسيره أول كوخ في إحدى القرى.. ودفع الباب المفتوح
ودخل، وعندما سطح البرق، لم ير - كما كان يتوقع - شيئًا في
الداخل.. مجرد كومة من الذرة، وخيال غامض صغير.. ربما كان لفار
هارب.. واندفع نحو الكوخ التالي، ولكنه كان كغيره، كومة الذرة،
وأشباح الفيران.. ولا شيء آخر.. كأنما كانت الحياة الانسانية تنحسر
في الطريق كلما تقدم.. كأنما هناك «شخص» يصصر على أن يبقيه - منذ
الآن وإلى الأبد - وحيدًا في الحياة.. وحيدًا تمامًا..

وفيما كان واقفًا في مدخل أحد الأكواخ، شاهد المطر وهو يقترب
من حافة الساحة، وكان آتيًا من الغابة كأنه سحابة كثيفة من الدخان
الأبيض المتحرك.. كأنما معسكر الأعداء في الحرب قد أطلق سُحبًا
من الغازات السامة في جو المنطقة كلها، عن عمد، حتى لا ينجو منه
أحد البتة. وكانت سحائب المطر تتحرك برهة ثم تتوقف، كأنما قائد

معسكر الأعداء قد وضع ساعة آلية في جهاز خاص لتحديد المدة التي تظل فيها سحابة الغاز الخانق فوق كل منطقة حتى تقضي تمامًا على كل الأحياء فيها.. واحتمل سقف الكوخ وابل المطر المنهمر فوقه، فترة وجيزة، ثم بدأت أخشابه تنحني تحت ثقل الماء المتجمع، ثم إذا بعض ألواحها تنفصل وينهمر منها الماء المتجمع كأنه ينطلق من فوهات مداخن سوداء.. وأخيرًا ابتعد جدار المطر عن منطقة الأكواخ، فتوقف انهمار المزيد منه على سقف الكوخ، ولكن أخشابه ظلت تسقط ما تبقى فوقها كأنها مصفاة.. وظل جدار المطر يتحرك في طريقه نحو سلسلة الجبال، والبرق يسطع في مؤخرته كأنه نيران مدافع حارسه، وأدرك الراهب أن وابل المطر سوف يصل إلى مسارب الجبال بعد دقائق معدودة، فإذا تكررت هذه العاصفة الممطرة بضع مرات، فسوف تصبح ممرات الجبال مستحيلة العبور..

وشعر بالتعب بعد أن ظل يسير طوال اليوم، فلما عثر على مكان جاف في الكوخ، جلس يستريح.. وكان يستطيع - من مكانه - أن يرى الساحة الواقعة أمام الأكواخ كلما ومض البرق.. وكان صوت سقوط بقايا المطر يملأ الجو حوله.. وشعر بما يشبه السكينة والسلام يخيم على المنطقة.. ولكنه لم يكن سلامًا كاملاً.. لأن السلام الكامل يحتاج إلى صحبة آدمية.. أما هو، فقد كان وحيدًا، مهجورًا، يحس كأنه مهدد بشيء ما، وفجأة تذكر - دون سبب واضح - يومًا مطيرًا عندما كان بالمعهد الأمريكي.. فتذكر زجاج نوافذ المكتبة وهو يغيم ببخار أجهزة التدفئة المركزية وأرفف الكتب، وشابًا غريبًا من مدينة توكسون كان يرسم

الحروف الأولى من اسمه على زجاج النافذة المغيم بأصبعه، وأدرك أن السلام هكذا يجب أن يكون.. دعوة وأمن وصحبة آدمية.. إنه يتذكر هذه الصورة كأنما يراها من خارج النافذة.. وإنه لا يصدق أن الأيام ستتيح له مرة أخرى هذا الشعور العميق بمعنى السلام.. فقد صنع بيديه عالمه هذا الجديد: الأكواخ المهجورة المنهارة.. والعواصف المتحركة.. وشعر بالخوف مرة أخرى، الخوف لأنه أدرك فجأة.. أنه ليس وحيداً.

إن وقع أقدام شخص مجهول تسمع خارج الكوخ وهو يتقدم بحذر بضع خطوات ثم يتوقف.. وظل الراهب في مكانه ينتظر بشعور متبلد.. بجمود.. وظلت قطرات مياه المطر تتساقط وراءه.. وخطر بباله في تلك اللحظة ذلك الرجل المولد ذو النابين وهو يذرع شوارع المدينة بقدميه الحافيتين متحيناً الفرصة لخيانته وتسليمه..

وأطل عليه، من مدخل وجهه، ثم تراجع بسرعة.. وكان وجه امرأة عجوز، ولعلها أن تكون شابة، فهو لا يجزم، لأن وجوه الهنود الحمر كلها متشابهة في نظره، ونهض من مكانه، ومضى إلى الخارج، حيث رآها تتراجع عنه بسرعة في ثوبها الثقيل الفضفاض الذي يشبه الغرارة، وجدائل شعرها الأسود المتحركة على ظهرها ببطء. وأدرك أنه لن يرى في وحدته إلا بعض هذه الوجوه التي كأنها تبرز له من العصور الحجرية، ثم تراجع بسرعة.

وتحرك بين جانبيه غضب مفاجئ: فما كان لهذه المرأة أن تتراجع عنه.. ودفعه الغضب إلى الانطلاق وراءها عبر الساحة، وراح يخوض برك الماء المتجمع بعد المطر. ولكنها سبقته إلى الغابة، وأدرك أنه

لا جدوى من البحث عنها هناك، فقفل راجعاً إلى أقرب كوخ إليه، ولم يكن هو الكوخ نفسه الذي احتفى فيه من المطر، ولكنه كان أيضاً مهجوراً، ترى ماذا دهى هؤلاء الناس؟ حقاً إنه يعلم جيداً أن هذه الأكواخ ما هي إلا مساكن مؤقتة، لأن الهنود الحمر تعودوا أن يزرعوا مساحة من الأرض بالذرة، فاذا استنفدوا خصوبة التربة، رحلوا إلى مكان آخر خصيبة أرضه. إنهم لا يعرفون شيئاً عن نظام الدورات الزراعية وتنوع المحاصيل، ولكنهم، عندما يرحلون، يأخذون معهم أكوام الذرة المدخرة، أما الرحيل عن هذه الأكواخ فقد كان أقرب إلى الفرار منه إلى أي شيء آخر.. الفرار من وباء.. أو من رجال البوليس؟ وقد سبق له أن سمع عن مثل هذا الفرار في أوقات الوباء.. والخطر الداهم، وكانوا يحملون المرضى معهم أينما ذهبوا.. وكان الاضطراب في بعض هذه الأحوال، يشيع في نفوسهم، فإذا هم يتخبطون كالذباب على ألواح الزجاج، ولكنهم في مثل هذه الحالات لا يدعون أحداً يشعر بما هم فيه...

واستدار نحو الساحة، وراح ينظر إلى الغابة في شيء من الدهول وما لبث أن رأى المرأة الهندية تتسلل من مخبئها وتتجه في حذر نحو الكوخ الأول، فهتف عليها في صوت حاد، وإذا هي تتراجع بسرعة نحو الغابة وقد بدت له كأنها حيوان طائر مكسور الجناح.

ولم يتحرك هذه المرة من مكانه ليتبعها.. وتوقفت هي عند حافة الغابة وراحت ترنو إليه، وعاد هو يسير ببطء نحو الكوخ الأول، وقد حدث أن التفت وراءه، فرآها تتبعه من بعيد وهي تركز نظراتها عليه..

ومرة أخرى بدت له كأنها حيوان طائر مكسور الجناح مهمومًا قلقًا.. ومضى في طريقه صوب الكوخ، وكان وميض البرق عند الأفق ينطلق كالسهام، ولكن دويّ الرعد كان أبعد من أن تلتقطه الأذن. وبدأت السماء تصفو فوقه، وأطل القمر من وراء السحب، وفجأة سمع صيحة عجيبة مصطنعة، فالتفت ورائه فرأى المرأة وهي تنطلق بسرعة نحو الغابة، ثم إذا هي تتعثر وتنكفيء وتسقط كأنها الطائر يستسلم للصيد.. وأيقن حينئذ أن بالكوخ شيئًا مهمًا.. ربما يكون مخبوءًا بين أكوام الذرة، ومن ثم لم يحفل بأمر المرأة ومضى نحو الكوخ.. وفي الداخل لم يستطع أن يرى شيئًا بسبب الظلام الجاثم، فراح يتحسس المكان بيده حتى لمس كومة الذرة، وفي الخارج سمع وقع أقدام المرأة وهي تقترب، وعاد يتحسس الكومة وهو يأمل أن يجد كمية من الطعام واللحوم مخبوءة فيها.. واجتمع حسيس أوراق الذرة الجافة مع الرنين المكتوم لقطرات مياه المطر المتساقط، مع وقع أقدام المرأة المتلصصة.. وكان يشبه اجتماع هذه الأصوات كلها بتلك الأصوات الخافتة التي تصدر عن بعض الناس المشغولين بأعمالهم الخاصة. وفجأة شعر بيده تلمس.. وجهًا..

ولم يكن في قلبه مجال لمزيد من الخوف من شيء كهذا.. لقد وجد أصابعه تتحسس جسمًا آدميًا.. وقد تبين بعد قليل أنه جسم صغير.. لطفل راقد في سكون تام تحت يده.. وفي مدخل الكوخ، كان ضوء القمر يكشف وجه المرأة الواقفة بوضوح، وبدا له كأن القلق واللهفة يهزان أعماق نفسها.. ولكنه لم يكن يستطيع الجزم.. وأخيرًا

قرر أن يخرج هذا الجسد الصغير المسجي إلى العراء..

وفي خارج الكوخ رأى أن الجسد المسجي، لطفل في نحو الرابعة من عمره.. له رأس مستطيل مكمش وخصلة من الشعر الغزير.. ولم يكن ميتاً، وإنما مغشي عليه، فقد كان في مقدوره أن يشعر بنبض خفيف في صدره.. وخطرت له فكرة المرض أو الوباء، ولكنه فوجئ، حين رفع يده، برؤية الدماء على الصدر.. الدماء التي ظنها في أول الأمر عرقاً.. وخامرته شعور بالفزع والاستنكار.. إن العنف في كل مكان، أليس لمثل هذا العنف نهاية؟

وسأل المرأة في حدة:

«ماذا حدث؟».

وكان موقفه معها، أو شعوره نحوها، كشعور رجل أمام رجل في المنطقة كلها..

وركعت المرأة على مسافة قدمين أو ثلاث وهي ترقب يديه.. وكانت - كما بدا له - تعرف بضع كلمات من الإسبانية لأنها أجابته قائلة:

«الأمريكي الهارب».

وكان الطفل ملفوفاً بقطعة من القماش كبيرة قاتمة، فرفع الراهب حافتها إلى عنقه وقد تبين له أنه أصيب بالرصاص في ثلاث مواضع، وأن الحياة لم تنتال منه لحظة بعد أخرى.. ولم يكن - في الواقع - ما يمكن أن يؤدي إلى إنقاذه، ولكن على الإنسان أن يحاول ولا يستسلم لليأس.

وقال للمرأة:

«ماء».

وكرر الكلمة بضع مرات، ولكنها لم تفهم معناها، فظلت جالسة في مكانها ترقبه. وخطر له أن من الخطأ الشديد أن يعتقد الإنسان بأن شخصاً ما لا يشعر بالحزن العميق الذي يحز في نفسه لأن نظراته لا تعبر عما في نفسه.. فقد رآها تتحفز كلما لمس الطفل بيده، وأيقن أنها لن تتردد في الوثوب عليه وتمزيقه بأسنانها لو أن الطفل تأوه فقط في ألم بين يديه..

وبدأ يتحدث في بطاء ورفق «فهو لا يستطيع أن يعرف مدى إدراكها» فقال:

«يجب أن نحصل على مياه لنغسل الطفل.. ولا داعي لأن تخافي مني، فإني لن أسيء إليه..».

ثم خلع قميصه وراح يمزقه إلى شرائط، وكان هذا العمل ينم عن جنون اليأس.. ولكن.. ماذا كان في وسعه أن يفعل غير هذا إلا الدعاء والصلاة- طبعاً- ولكن مثله لا يصلي بجانب المحتضر من أجل الحياة.. هذه الحياة..! وعاد يكرر للمرأة كلمة «الماء». ويبدو أنها أدركت في النهاية، فراحت تتلفت في غير أمل نحو مياه الأمطار المتجمعة في برك صغيرة.. ولم يكن ثمة مياه أخرى في المكان، حسناً- هكذا فكر- إن الأرض لا تكاد تقل نظافة عن أي وعاء يستعمله هؤلاء الناس. وبلل جزءاً من قميصه وانحنى على الطفل.. وسمع المرأة وهي تزداد اقتراباً منه في خطوات تنم عن الحذر والتحفز، وحاول أن

يطمئن من روعها مرة أخرى، فقال لها:

«لا داعي للخوف مني.. فأني راهب».

وفهمت المرأة كلمة «راهب»؛ فانحنت وأمسكت باليد القابضة على الشريط المبلل وقبّلتها. وفي اللحظة التي لمست شفتها يده، اختلج وجه الطفل وفتح عينيه وحدق فيهما.. واهتز الجسم الصغير بنوبة ألم عميق، ورأى الاثنان حدقتي العينين وهما تدوران إلى أعلى ثم تثبتان، كأنهما بليتان على لوح مفرد أصفر دميم بعد الموت.

وتركت المرأة يده، وأسرعت متعثرة نحو المياه المتجمعة وحملت قليلاً منها بين كفيها، بينما كان الراهب يقول لها:

«لم نعد في حاجة إلى شيء من هذا الآن».

ووقف برهة ممسكاً قميصه المبلل، وتركت المرأة الماء ينساب من كفيها وهي تقول في توسل ورجاء:

«أبي!».

وأدرك مقصدها، فركع على ركبتيه وبدأ يصلي..

ولما فرغ، حمل الطفل بين يديه، وعاد به إلى الكوخ كأنه قطعة من الأثاث، وتبعته المرأة في وداعة وهدوء، وبدأ عليها أنها لا تريد أن تلمس جسد ابنها، وانما اكتفت بمراقبته وهو يضعه فوق كومة الذرة، ثم وهو يجلس ويقول ببطء:

«علينا أن نقوم بدفنه».

وفهمت حديثه وأومات برأسها.. فقال:

«أين زوجك، هل سيقوم بالمعاونة؟».

وراحت تتحدث بسرعة.. ولم يستطع أن يفهم من عباراتها إلا كلمات قليلة إسبانية.. وتكررت كلمة «الأمريكي الهارب». وتذكر هو المجرم الأمريكي الهارب من العدالة، الذي علقت صورته في مكتب ضابط البوليس بجانب صورته هو، وسألها:

«هل هو الذي فعل هذا؟».

فلما هزت رأسها نفياً، راح يتساءل: إذن ماذا حدث؟ هل حاول المجرم أن يلجأ إلى هنا هارباً من المطاردة، فاضطر رجال البوليس إلى إطلاق النار جزافاً على الأكواخ؟ إن هذا احتمال مرجح.. وفجأة لفت سمعه من حديثها عبارة «مركز شركة الموز» فماذا تعني؟ إنه لم ير أحداً يموت هناك، ولم يكن ثمة أثر للعنف أو المقاومة إلا إذا كان السكون والرحيل المفاجئ هما الأثر على المقاومة والعنف! لقد ظن أن رحيل الأسرة يرجع إلى اشتداد المرض على الأم، ولكن.. قد يكون هناك سبب أسوأ، فمن يدري، فلعل ذلك الأحقق الكابتن فيلوز حاول أن يقاوم المجرم الهارب بالسلاح، فراح ضحية مقاومة مجرم لا يحسن شيئاً إلا المبادرة في إطلاق النار.. وهذه الطفلة المسكينة كورال.. أي أعباء جديدة اضطرت إلى حملها إذا كان والدها قد مات حقاً..

وطرد هذا الخاطر عن ذهنه وسأل المرأة قائلاً:

«أيووجد هنا جاروف؟».

ولم تفهم عبارته، فاضطر لأن يقوم أمامها بحركات الرجل الذي

يحضر حتى تفهم، ودوى هزيع الرعد قريباً منهما، وبدا له بوضوح أن عاصفة ممطرة أخرى تقترب، وكأنما الأعداء قد فطنوا إلى أن غارة الغازات السامة الأولى قد تركت وراءها بعض الأحياء، فأرسلوا غارة أخرى لتقضي عليهم، وعاد يسمع الأنفاس الهائلة للمطر على مسافة أميال، وسمع المرأة تذكر في حديثها كلمة مفهومة واحدة هي «الكنيسة». وكان محصولها اللغوي من الإسبانية مجرد كلمات مفردة قليلة، وتساءل في نفسه: ماذا تعني بهذه الكلمة؟ وعندئذ وصلت الأمطار إليهما.. فإذا هي تنهمر كأنها جدار يحول بينه وبين مواصلة الهرب. وساد الظلام الكثيف حولهما لا يخترقه بين الحين والآخر إلا وميض البرق..

وعادت مياه المطر المتجمعة فوق السقف تتساقط بغزارة في كل مكان داخله. وراحت أوراق الذرة الجافة - حيث وضع جسد الطفل - تتز كأنها خشب محترق، وسرت في جسمه رعدة برد، وشعر أنه على وشك الإصابة بالحمى، ولهذا يجب أن يمضي قبل أن يعجز تمامًا عن الحركة، وسمع المرأة - التي لم يعد يراها بسبب كثافة الظلام - تتحدث إليه في صوت ينم عن اللهفة والرجاء، وخطر له أنها تريد أن تدفن طفلها بالقرب من كنيسة أو عند قدمي صورة المسيح في المحراب. وانتهاز فرصة وميض طويل للبرق ثم أشار لها بيديه أن ما تريده مستحيل، ثم قال: «رجال البوليس». فأجابت عليه قائلة: «الأمريكي». وكانت هذه الكلمة الأخيرة تتردد كأنها كلمة لها معان كثيرة تفسرها نبرة الصوت الناطق بها: هل هي تفسير.. أم تحذير..

أم تهديد! لعلها تريد أن تقول إن رجال البوليس مشغولون بمطاردة المجرم الأمريكي، ولكن إذا افترضنا هذا، فإن المطر قد أفسد كل شيء.. فقد كان بينه وبين حدود الولاية التالية مسافة عشرين ميلاً عبر الجبال. ولا شك أن الممرات الجبلية بعد هذه النوبة الثانية من المطر قد أمسى عبورها في حكم المستحيل.. ثم - الكنيسة - إنه لا يدري أين يمكن أن يرى كنيسة في هذه المنطقة.. فقد مضت عليه سنوات دون أن تقع عيناه على واحدة منها.. بل أصبح من العسير عليه أن يصدق أن ثمة كنائس ومعابد لا تزال مقامة على مسيرة بضعة أيام قليلة من مكانه هذا.

وعندما ومض البرق مرة أخرى، شاهد المرأة وهي ترقبه في صبر لا ينفد..

ثلاثون ساعة مرت على الراهب والمرأة الهندية الحمراء وهما يعيشان على قوالب من السكر الأحمر. كل قالب منها في حجم رأس الطفل المتوفي.. لم يريا في خلال هذه الفترة أحداً، ولم يتبادلا حديثاً، وما جدوى الحديث وكل محصولهما من الكلمات المشتركة المفهومة لا يتجاوز كلمتين «الكنيسة» و«الأمريكي». وكانت المرأة تسير وراءه مباشرة وهي تحمل على ظهرها جثمان الطفل، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للتعب وهي تسير بغير توقف. وبعد يوم وليلة من المسير المتواصل خرجا من منطقة المستنقعات إلى سفوح التلال. وناما على ارتفاع خمسين قدماً من مياه النهر الخضراء محتمين

بصخرة كبيرة على بقعة من الأرض جافة، وقد كانت الأوحال العميقة حولهما في كل مكان. وجلست المرأة معتمدة برأسها على ركبتيها المرفوعتين إلى صدرها دون أن ينم وجهها عن أي اثر للعاطفة أو الانفعال. وكانت قد وضعت طفلها وراء ظهرها كأنما تخشى عليه من الضياع لكأنما هو شيء ثمين. وكانا قد بدأ الرحيل مع الشمس حتى أوضحت لهما الغابات النامية على سفوح الجبال معالم الطريق الذي سيمضيان فيه.. وكانا في تلك المنطقة الموحشة الساكنة كأنهما إنسانان كتبت لهما النجاة والحياة في عالم يحتضر.. وقد حملا معهما الدليل على هذا الاحتضار..

وكان الراهب في بعض الأحيان يتساءل: هل بلغ حد النجاة! ولكنه لا يلبث حين لا يرى معالم حدود بين ولاية وأخرى أو مركز تفتيش جمركي، أن يشعر بالخطر يظله، ويرحل معه، وينقل خطواته الثقيلة في نفس الاتجاه الذي يسير فيه. لقد بدأ أنهما يتقدمان ببطء شديد.. فلا يزال عليهما أن يسيرا في ممر جبلي يرتفع بعنف نحو خمسمائة قدم، ثم يعود فينحدر، والأوحال العميقة تغمره. وقد حدث أن دارا حول منطقة خطيرة وهما يسيران في ممر ضيق كالشعرة يطل على هاوية عميقة، وبعد أن اجتازاه، وجد أنفسيهما بالقرب من مكان البدء.. على مسافة مائة ياردة فقط.

وفي غروب اليوم التالي، وصلا إلى هضبة واسعة مكسوة بطبقة من العشب القصير، وكان ثمة مجموعة عجيبة من الصلبان السوداء مقامة على الأرض، بعضها رأسي نحو السماء، وبعضها مائل بزوايا

مختلفة.. منها ما يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدماً ومنها ما لا يتجاوز ثمانية أقدام. وكانت المجموعة تشبه شتلات من الشجر ترك لينمو ويثمر.. وتوقف الراهب وراح يحرق فيما يرى.. فقد كانت هذه هي المرة الأولى، وبعد أكثر من خمسة أعوام، يرى فيها رمز المسيحية قائماً في مكان عام- إذا أمكن أن تكون هذه الهضبة المهجورة مكاناً عاماً- وكان منظر هذه الصليبان ينم بوضوح على أن القساوسة والرهبان ليس لهم يد في إقامتها، وإنما الهنود الحمر هم الذين أقاموها بطريقتهم البدائية وبتفكيرهم الساذج. فقد كانت خالية من هذه اللمسات الفنية التي تتفق مع مراسم القداس، ونماذج الطرق الدينية. كانت كأنها أقصر طريق إلى قلب عقائد الهنود الحمر المبنية على الأسرار والسحر.. إلى الليالي المظلمة، عندما تفتح القبور، ويسير الموتى!

واستدار فجأة عندما سمع حركة وراءه..

كانت المرأة قد ركعت على ركبتها وراحت تزحف ببطء نحو مجموعة الصليبان وجسد الطفل الميت يتأرجح على ظهرها.. فلما وصلت إلى أكثر الصليبان ارتفاعاً، حلت رباط الجثة المشدودة إلى ظهرها، ثم حملتها بين يديها ووضعتها بوجهها، أولاً.. أمام قائمة الصليب، ثم أدارتها ووضعتها بظهرها، ثم راحت ترسم علامة الصليب على نفسها، لا بالطريقة الكاثوليكية المعروفة، وإنما بطريقة أخرى معقدة تشمل الأنف والأذنين.. ترى هل كانت تتوقع معجزة؟ إن الراهب يتساءل: وإذا كانت تتوقع حدوث معجزة، فلماذا لا يتحقق أملها!! فإن الإيمان- كما قرأ وعرف وسمع- يمكن أن يحرك الجبال.. وها هو ذا

يرى، في هذه المرأة الساذجة هذا الإيمان الحق.. الإيمان الذي يشفي الأعمى ويحيي الموتى بإذن الله.. وكانت نجوم الليل تتألق في صفحة السماء هناك بالقرب من حافة الهضبة، كأنما في مقدور الإنسان أن يصل إليها ويلمسها، وانساب في الجو نسيم دافئ خفيف، ووجد الراهب نفسه يتأمل الطفل برهة كأنما يتوقع أن يراه يتحرك، فلما لم يتحرك، خيل إليه أن السماء أفلتت الفرصة من يدها.. وكانت المرأة الجالسة، قد تناولت من لفافتها قالباً من السكر الأحمر وراحت تقضم منه بينما جثت الطفل مسجاة عند قاعدة الصليب. ووجد الراهب نفسه يبرر عدم وقوع المعجزة بهذا التساؤل:

«لماذا ننتظر أن يعاقب الله هذا الطفل البريء، وغيره من الأبرياء، بالبقاء على قيد الحياة؟»
وهتف فجأة للمرأة:
«هلم نمض».

ولم تعره المرأة التفاتاً، وانما ظلت تقضم قالب السكر الضخم بأسنانها الأمامية الحادة.. ورفع عينيه إلى السماء، فرأى بعض نجوم الليل قد احتجبت وراء سحب سوداء، فعاد ليقول آمراً وهو لا يكاد يرى فوق هذه الهضبة مكاناً يحتميان فيه من المطر المقبل:
«هلم نمض».

ولكن المرأة لم تتحرك من موضعها.. فقد ظل وجهها المجعد الأسمر بين جدائل شعرها، هادئاً، ساكناً، لا أثر فيه لعاطفة أو انفعال.. كان يبدو عليها أنها أدت واجبها وأن لها أن تنال راحة الأبد.. وسرت

في بدن الراهب رعدة مفاجئة وشعر بالألم الذي كان ينوش رأسه بالحرارة طول اليوم، يزداد ويعمق، وقال لنفسه: يجب أن ألتمس لنفسى ملاذًا من المطر.. فإن واجب الإنسان الأول هو أن يحمي نفسه، حتى تعاليم الكنيسة تقول هذا. وبدت السحب السوداء تغطي وجه السماء، وبدت مجموعة الصلبان كأنها نبات الكاكتس الجاف، وفجأة، مضى في الطريق نحو حافة الهضبة حتى إذا وصل إلى الممر المنحدر في الجهة المقابلة، التفت وراءه، فرأى المرأة جالسة في سكون تقضم قالب السكر.. وتذكر فجأة أن هذا القالب الكبير هو كل ما يملكه من طعام، وكان الطريق الضيق في نهاية الهضبة شديد الانحدار إلى حد جعله يستدير ويهبط فيه بظهره زاحفًا على يديه وركبتيه، وكانت الأشجار النامية من قلب الصخر تحف بجانيه.. وكان الممر بعد أن ينحدر نحو خمسمائة قدم يعود فيلتوي صعدًا، وبدأ العرق يتفصد من جسم الراهب الذي كان يشعر بأشدّ الظمأ، ومن ثم أحس بالراحة- في أول الأمر- حين أخذ المطر ينهمر، ومكث حيث كان- حين فاجأه المطر- وهو يعتمد بظهره إلى صخرة على جانب الممر، فلم يكن ثمة ملاذ يحتمي فيه قبل أن يصل إلى نهاية الممر، ولم يكن الأمر يستحق أن يبذل هذا الجهد غير المجدي، فإنه حين يصل إلى الملاذ، يكون سحب المطر قد تحرك بعيدًا.. وازدادت الرعدة في جسمه حتى أصبحت مستمرة، ولم يعد الألم العميق في داخل رأسه، وإنما أصبح كأنه خارجها.. كأنه أي شيء.. صوت أو تفكير.. أو رائحة.. فقد اختلطت حواسه بعضها ببعض، ففي لحظة يشعر بالألم كأنه صوت متعب يقول له إنه سار في الطريق الخطأ.. وتذكر خارطة سبق أن رأى عليها حدود ولايتين، الولاية التي يهرب منها الآن وقد تناثرت القرى

في أراضيها الحارة الرطبة حيث يتكاثر الأهالي كالبعوض، والولاية الأخرى لم يكن فيها شيء.. مجرد مساحة بيضاء على الخارطة.. وهذه الولاية الثانية تقع في الجانب الشمالي الغربي.. وهو الجانب الذي يسير فيه الآن- هكذا حدثه الصوت الغامض المتعب- ولكنه أخذ يجادل هذا الصوت قائلاً إن هناك ممراً يفضي إلى ولاية أخرى معمورة، على أن الصوت الغامض يقول له إنك قد تسير في هذا الممر مسافة خمسين ميلاً قبل أن تصل إلى مكان مأهول، وأنت تعلم إنك لن تستطيع أن تعيش على هذه الحال حتى تقطع هذه المسافة..

وفي أحيان أخرى كان يتخيل هذا الألم العميق وجهاً آدمياً.. وجه ذلك الأمريكي الهارب، له بشرة مرقطة كصورة منشورة في صحيفة، وإنه ليطمأدى في الخيال فيشعر أن هذا الأمريكي كان يتبع المرأة الهندية ليقتلها كما قتل طفلتها.. وأن هذه الصورة الخيالية لتستبد به حتى يشعر كأنها حقيقة واقعة يجب أن يصنع شيئاً لمواجهةها، وكان المطر في تلك اللحظات كأنه ستار كثيف من المحتمل أن يقع وراءه أي شيء.. وراح يفكر: لم يكن من الواجب أن أترك المرأة الهندية ليقتلها كما قتل طفلتها.. وإن هذه الصورة الخيالية نعم.. ماذا ينتظر غير هذا من راهب سكير؟! ونهض واقفاً وراح يصعد الممر المنحدر عائداً إلى الهضبة، وكانت الأفكار والخواطر العاصفة في رأسه تعذبه.. إن شعوره بالمسؤولية لا يشمل المرأة فحسب، بل يشمل الأمريكي الهارب أيضاً، إن الوجهين.. وجهه، ووجه المجرم معلقان على جدار مكتب ضابط البوليس كأنهما صورتان أخوين في مجموعة صور أسرة واحدة.. وعاد راجعاً إلى حافة الهضبة وهو يرتعش ويتصبب بالعرق

وبماء المطر، ولكنه لم ير على الهضبة أحدًا، وإنما رأى جثة الطفل ملقاة كشيء مهمل عند أسفل قائمة صليب، أما الأم، فقد وضع له أنها عادت إلى بيتها بعد أن قامت بما أرادت القيام به. ولقد أنسته الدهشة إحساسه بالحمى برهة قبل أن تعيده إليها، وذلك عندما لمح قطعة من السكر الأحمر موضوعة على الأرض أمام فم الطفل الميت.. لعل الأم قد وضعتها لتأكل الروح منها، أو ليجد الطفل ما يأكله حين تقع المعجزة وترد الروح إلى جسده. وانحنى الراهب- وهو يشعر بخجل مبهم- وتناول قطعة السكر.. إن الطفل الميت لن يزمجر له كما فعلت الكلبة الكسيحة.. ولكنه يتردد ويتساءل وهو واقف تحت المطر المنهمر: من أنا حتى أستبعد وقوع المعجزة!

ثم وضع قطعة السكر في فمه وهو يرد على تساؤله قائلاً: إن الله القادر على بعث الحياة في الجسد الميت، قادر أيضًا على توفير أسباب الطعام له..

وشرع يعض السكر، وعادته الحمى والتصق السكر بحلقه، واستبد به إحساس عنيف بالظمأ، فزحف على يديه وركبتيه وحاول أن يلحق قطرات من ماء المطر المتجمع في فجوات الأرض غير الممهدة، بل لقد راح يمتص الماء من سراويله المبللة، وظل الطفل الميت مُلقًى تحت وابل المطر كأنه كومة سوداء من فضلات الماشية. وابتعد الراهب في طريقه مرة أخرى نحو حافة الهضبة، ثم راح يهبط الممر المنحدر وهو يشعر بالوحشة ترين حوله.. حتى الوجه الذي كان يتخيله، قد اختفى.. إنه يسير وحيدًا في منطقة منعزلة موحشة وإنه

يهبط في كل لحظة إلى أرض مهجورة لا حياة فيها ولا أحياء..

إنه يتساءل: ليس من شك في أنه في مكان ما، وفي اتجاه ما، توجد مدن مأهولة.. فإذا واصلت المسير أو الانحدار، فسوف أصل حتمًا إلى شاطئ المحيط الهادي حيث شريط السكة الحديدية المؤدي إلى جواتيمالا.. وهناك سوف أرى الطرق المرصوفة، والسيارات. إنه يتخيل الخط الأسود الممتد بحذاء الشاطئ على الخريطة. وإنه ليتخيل أيضًا هذه المسافة التي تبلغ خمسين أو مائة ميل خلال منطقة مجهولة.. إنها المنطقة التي يسير فيها الآن.. لقد استطاع أن يهرب تمامًا من بني الإنسان، ولكنه لن يهرب من الطبيعة التي سوف تقتله حتمًا.. وأيًا كان الأمر، فإنه يواصل المسير.. فليس ثمة معنى لأن يعود أدراجه إلى القرية المهجورة، أو إلى مقر شركة الموز حيث الكلبة الهالكة، وبقايا السكان الراحلين. لم يكن أمامه أن يفعل إلا أن يخطو إلى الأمام خطوة ثم يردفها بأخرى، ينحدر حينًا، ويصعد حينًا، ويستمر في التقدم في كل حين. حتى إذا بلغ قمة المرتفع المواجه للهضبة، كانت سحب المطر قد تحركت بعيدًا عنه، فلم يعد المطر ينهمر فوقه، وهكذا تسنى له أن يقف وأن يرسل البصر فلا يرى أمامه غير جبال وغابات وغلاثل الأمطار تتحرك فوقها، وأرسل نظرة أخرى ثم أغمض عينيه، فقد شعر كأنه يرى أمامه اليأس مجسمًا.

وليس من شك في أنه أمضى ساعات أخرى وهو يواصل الصعود حتى أرغمه الشعور بالتعب على التوقف.. وكان ظلام الليل قد اجتمع مع ظلام الغابة حوله، وسمع صوت قرد وهو يقفز بين الأشجار في

نزق ومجون، وخيل إليه أنه يسمع فحيح الأفاعي وهي فوق الأعشاب، وكأنما فحيحها حسيس أعواد الثقاب وهي تشتعل. ولم يشعر بأدنى خوف منها.. فهو يراها مظهرًا من مظاهر الحياة.. الحياة التي تنحسر من حوله لحظة بعد لحظة.. فليس الناس فقط هم الذين يذهبون عن طريقه.. وإنما الحيوانات والزواحف أيضًا.. وبعد قليل سوف يجد نفسه وحيدًا مع أنفاسه. وراح يردد في نفسه دعاء:

«يا إلهي.. لشد ما أحببت جمال جنتك..». وكانت رائحة البلبل مع أوراق الشجر المتعطنة، وحرارة الجو، وظلمة الليل، قد جعلته يشعر كأنه في فوهة منجم، يهبط فيه إلى باطن الأرض، ليدفن نفسه.. وعما قليل سوف يعثر على قبره..

ولم يتحرك من مكانه حين رأى رجلًا طويلًا يقترب منه حاملًا بندقيته.. وراح الرجل يقترب في حذر، ثم إذا هو يقول فجأة وقد أعد بندقيته للإطلاق:

«من أنت؟».

ونطق الراهب باسمه الحقيقي كاملاً لأول مرة منذ عشر سنوات فقد كان متعبًا، وكان يرى أنه لم يعد ثمة فائدة في البقاء على قيد الحياة..

وسأله الرجل في دهشة:

«راهب؟ من أين أنتِ؟».

وانحسرت الحمى عنه برهة، واستطاع أن يرى الحقائق كما

ينبغي، فقال للرجل مستسلمًا:

«حسنًا.. لا تزعج نفسك بأمرى.. لسوف أبتعد عنكم حتى لا أثير لكم المتاعب».

وجمع كل ما تبقى له من قوة ونشاط وواصل سيره.. وعادته الحمى وهو يرى وجه الرجل المدهوش.. ولكنه قال لنفسه بصوت مسموع: لن أكون السبب في القبض على مزيد من الرهائن..

وسمع الرجل وهو يسير وراءه كما يسير الحارس وراء رجل خطير حتى يطمئن إلى ابتعاده عن المنطقة قبل عودته إلى البيت. وعاد يقول بصوت واضح:

«حسنًا.. حسنًا.. اطمئن يا هذا.. إنني لن أبقى هنا.. لم أعد أريد شيئًا».

وسمع الرجل يقول بصوت ملهوف خاشع:

«أبي!».

«سوف أبتعد بأسرع ما أستطيع».

وبدأ يجري حتى وجد نفسه فجأة يخرج من الغابة ويقف على منحدر مكسو بالعشب يطل على مجموعة من الأكواخ تنساب منها الأضواء.. وهناك، عند حافة الغابة بالقرب منه، شاهد بناية بيضاء الجدران.. أهى معسكر؟! ليس حولها جنود، وأخيرًا قال:

«إذا رأيته أحد، فسوف أسلم نفسي.. أوكد لك أنني لن أثير المتاعب لأحد أبدًا».

«أبي!».

وشعر بالصداع كأنه يدمر رأسه، فتعثر واعتمد بيده على جدار
البنية البيضاء ثم قال للرجل وهو يشعر بالتعب الشديد:
«أهذا معسكر جنود؟».

فقال الرجل بصوت متمزج فيه الدهشة بالقلق:
«أبي.. إن هذه كنيسة».
«كنيسة؟».

وأخذ الراهب يتحسس بيده الجدران كأنه ضرير يحاول أن يتعرف
على منزل خاص، ولكن إحساسه العنيف بالتعب جعله لا يكاد يشعر
بشيء آخر..

وسمع الرجل، حامل البندقية، يقول في لهجة تأثر وهو يهرع
بعيداً: «إن هذه المناسبة السعيدة يا أبي تستحق أن يدق لها الأجراس».
وتهالك الراهب جالساً على العشب المشبع بماء المطر، ورأسه إلى
الجدار الأبيض، واستغرق في النوم بعد أن وصل أخيراً إلى أرض
الآمن والسلام..

وكانت أحلامه زاخرة بدقات الأجراس ورنين البهجة والشقاء..



الجزء الثالث

الفصل الأول

كانت السيدة- النصف- جالسة في الشرفة ترفو بعض الجوارب، وكانت تضع على عينيها نظارة قراءة، وكانت قد خلعت حذاءها التماساً لمزيد من الراحة. أما شقيقها المستر نير، فقد كان مشغولاً بقراءة مجلة أمريكية من نيويورك مضى على صدورها ثلاثة أسابيع ولم يكن هذا يهم في شيء، وإنما المهم هو أن المنظر كان يوحى بالصفاء والسلام..

وقالت مس لير للراهب الذي كان يجلس معها ومع أخيها في الشرفة:

«إن الماء بجانبك.. يمكنك أن تشرب منه كلما أردت».

وكان ثمة إناء كبير من الفخار موضوعاً في ركن ظليل وفوقه المغرفة والكوب، وسأل الراهب قائلاً:

«ألا تغلون الماء عندكم قبل الشرب؟».

فقالت مس لير في لهجة تنم عن التكلف كأنما لم تتعود أن تجيب
عن أسئلة أحد:

«لا.. إن ماءنا نظيف وعذب دائماً».

وقال أخوها متمماً:

«أعذب ماء في الولاية كلها».

وأخذت صفحات المجلة اللامعة المصقولة تصر وهو يقلبها..
وكان على الغلاف صورة رجال كبار الوجوه، مهيبى المنظر، من
أعضاء مجلس الشيوخ. وكانت المراعي الزاهرة تمتد وراء سياج
الحديقة إلى مدى البصر حيث تلتقي بسفوح السلسلة التالية من الجبال.
وكان بالقرب من البوابة شجرة سوسن مفتحة الأزهار..

وقالت مس لير:

«إنك تبدو الآن يا أبي أحسن حالاً بدون شك».

وكانت تتبادل معه الحديث بلغة إنجليزية ركيكة ذات لهجة
أمريكية. وكان أخوها المستر لير قد هاجر يافعاً من موطنه بألمانيا؛
حتى يفر من الخدمة العسكرية الإلزامية. وكان وجهه المستوي ينم عن
المكر وقوة التفكير وسعة الخيال. وقد قال معلقاً على حديث أخته:

«أوه.. إنه ليس في حاجة إلى أكثر من بضعة أيام للراحة».

ولم يكن شديد الفضول ليعرف المزيد عن هذا الراهب الذي
أحضره إليه أحد عماله الزراعيين منذ ثلاثة أيام، مغشياً عليه فوق

بغلة.. فقد اكتفى بكل ما قاله الراهب عن نفسه، وقد علمته الحياة في تلك المنطقة النائية ألا يسرف في إلقاء الأسئلة أو يفكر كثيرًا فيما يأتي به الغد..

وقال الراهب:

«لسوف أرحل عما قريب».

فقلت مس لير وهي تقلب جوارب أخيها بحثًا عن الثقوب:

«ليس هناك ما يدعو للعجلة في الرحيل».

«ما أطف الحياة هنا».

فقال المستر لير وهو يقلب صفحات المجلة:

«ولكنها لا تخلو من المتاعب المألوفة».

ثم أردف قائلاً وهو ينظر إلى إحدى الصفحات:

«هذا السيناتور هيرمان لونج.. يجب أن يحدوا من اندفاعه حتى لا يتمادى في إهانة دول أخرى..».

وسأله الراهب قائلاً:

«هل حاولوا أن ينتزعوا الأرض منك؟».

فاستدار المستر لير نحوه بوجهه الحالم، وألقى عليه نظرة بريئة

ماكرة ثم قال:

«أوه.. لقد أعطيتهم بنفسى أكثر مما كانوا يطلبون.. أعطيتهم

خمسماية فدان من أرض قاحلة لم أكن أستطيع أن أزرع فيها شيئاً..».

ثم أوماً إلى آثار طلقات نارية على أعمدة الشرفة وأردف يقول:
«كانت هذه آخر متاعبنا الحقيقة.. إنها من بنادق رجال الرئيس
السابق السنيور فيللا».

فنهض الراهب وشرب مزيداً من الماء رغم أنه لم يكن ظمآن،
وإنما كان يريد أن يزداد شعوراً بالرفاهية.

«كم أحتاج من الوقت لأصل إلى مدينة لاس كازاس؟».

فقال المستر لير:

«في نحو أربعة أيام».

وقالت المس لير:

«إن من كان في مثل حالته يحتاج إلى ستة أيام».

فقال الراهب في صوت حالم:

«إن الأمر يبدو لي كحلم عجيب.. ففي تلك المدينة كنائس..
وجامعة و..».

فقال المستر لير:

«طبعاً.. إنني وأختي من أتباع مارتن لوثر.. أي لسنا من مذهبك
الديني يا أبي.. ومعدرة إذا قلت إن مذهبك يحيط رجال الدين بكثير
من الرفاهية بينما عامة الناس يموتون جوعاً».

فقالت المس لير:

«لا تنس يا عزيزي أن هذا ليس خطأ ضيفنا الراهب».

وقال الراهب في ذهول:

«رفاهية».

وكان واقفًا بجانب إناء الشرب الفخاري، والكوب في يده، يحاول أن يستجمع أفكاره وهو يمد البصر إلى المراعي الزهراء التي تنحدر في جمال وسلام، ثم غمغم قائلًا:

«إنك تعني؟..».

من يدري! فلعل المستر لير محق فيما قال.. فقد سبق أن عاش مرفهًا منعماً، وها هو ذا يعود لحياة ناعمة لا تخلو من الكسل والرفاهية..

وسمع المستر لير يستطرد في حديثه قائلًا:

«وهذه النقوش الذهبية في جدران الكنائس».

فغمغم الراهب موضحًا:

«إنها في أكثر الأحيان مجرد طلاء».

وعاد يفكر: نعم.. ثلاثة أيام مضت لم أفعل فيها شيئاً.. أي شيء..

ونظر إلى قدميه الموضوعين في حذاء لمستر لير، وإلى ساقيه المرتديتين سراويل المستر لير. وعاد المستر لير يقول لأخته:

«إنه لن يستاء لصراحتي، فنحن هنا جميعاً مسيحيون».

فقال الراهب:

«طبعاً.. يسرني أن أسمع».

«إنكم أيها الكاثوليكيون تقيمون وزنًا كبيرًا للمظاهر الدينية..».

«نعم.. إنك تعني..».

«الصيام.. والسبك في يوم الجمعة».

نعم.. إنه يذكر - كما يذكر الإنسان شيئًا في طفولته - إنه في بعض الأحيان كان يفكر في هذه العادات والمظاهر والقيود. وأخيرًا قال:

«إنك يامستر لير، على كل حال، ألماني النشأة.. والألمان شعب عسكري عظيم».

«إنني لم أكن جنديًا يومًا.. إنني لا أوافق».

«نعم.. نعم ولكنك مع هذا تدرك أن النظام أمر ضروري.. وأن التدريبات العسكرية قد لا تفيد في المعركة، ولكنها تكون الشخصية.. وإلا، فسوف تجد في الجيش رجالًا مثلي».

ثم أطرق برأسه نحو الحذاء وهو يشعر بالكراهية لنفسه، وأردف قائلاً في غضب وثورة نفسية:

«نعم.. رجالًا مثلي».

وساد الجو شعور الحرج والارتباك، وبدأت المس لير تقول شيئًا: «لماذا، يا أبي؟».

وقطع أخوها حديثها، ووضع المجلة الأمريكية المصورة جانبًا، ثم قال بصوته الألماني الأمريكي، وبلهجته الحاسمة:

«حسنًا.. لقد حان الوقت للاستحمام.. هل ستأتي معي يا أبي؟».

وتبعه الراهب في استسلام إلى غرفة النوم المشتركة، وهناك خلع ملابس المستر لير المستعارة، واشتمل بثوب استحمام من أثواب المستر لير، ثم عبر معه الشرفة حافي القدمين، وسار في حقل مكسو بالعشب أمام الحديقة، وكان قد سأل المستر لير في اليوم السابق عن احتمال وجود أفاع به، فأجابه المستر لير في استخفاف قائلاً: إنه لو كان به أفاع فإنها لن تلبث أن تختفي سريعاً، وقد بدا للراهب أن المستر لير وأخته قد تآزرا للتغلب على وحشية المكان بطريقة بسيطة وهي تجاهل كل ما لا يتفق مع طبيعة مواطن ألماني - أمريكي عادي. وهذه الطريقة - في حالتهما - لون رائع من ألوان الحياة.

وفي وسط الحقل، كان ثمة جدول صغير ضحل يجري ماؤه في مجرى كثير الحصى، وخلع المستر لير عن جسمه الجلباب، واستلقى على ظهره في ماء الجدول، وأخذت الأسماك تسبح لاعبة فوق صدره دون أن يزعجها شيء... وقد كان ذاك هو هيكل جسم الشاب الذي كره الخدمة العسكرية إلى حد هجرة الوطن فراراً منها.

وأخيراً جلس وراح يدلك جسمه بالصابون في عناية؟ وبعد أن فرغ، أخذ الراهب منه قطعة الصابون وحذا حذوه، وقد كان يرى، في قرارة نفسه، أن هذا الاستحمام مضيعة للوقت، فهو من الذين يعتقدون أن العرق ينظف الجسم تماماً كالماء، ولكن المستر لير ينحدر من شعب يؤمن بالمثل القائل: النظافة من الإيمان.. النظافة - وليس الطهارة..

وأياً كان الأمر فقد شعر بالرفاهية البالغة وهو راقد في مجرى

الجدول البارد مأؤه تحت الأشعة الحانية لشمس الخريف. وكرت الذكريات به إلى زنزانة السجن حيث نام الرجل العجوز على كتفه. وحيث كانت المرأة المتدينة. ثم إلى الرجل المولد وهو ثلّقى عند باب الكوخ محمومًا، وإلى الطفل القليل، ومكتب شركة الموز المهجورة حيث كانت الصبية كورال ووالدها.. وشعر بالعار وهو يذكر ابنته التي تركها لجهلها وسوء خلقها بجانب كومة القمامة، وقرر أخيرًا بأنه غير جدير بهذه الحياة المرفهة الرغيدة..

وقال له المستر لير:

«هل تسمح؟ قطعة الصابون!».

فقال له وهو يسلمها إليه:

«أعتقد أن من الواجب أن أصارحك.. غدًا سأقيم قدامًا في القرية، فهل ترى من الأصوب أن أرحل عن بيتك!. إنني لا أريد أن أثير لك المتاعب».

فقال المستر لير وهو ممعن في تنظيف جسمه بالماء والصابون:

«إنهم لن يثيروا المتاعب معي.. ولكن يحسن بك أن تكون على حذر.. فإن ما سوف تفعله غدًا مخالف للقانون.. كما تعرف».

«نعم.. أعرف..».

«لقد حكموا على راهب أعرفه قام بعمل كهذا بغرامة مقدارها أربعمئة بيزة، فلما عجز عن دفعها، سجنوه أسبوعًا.. لماذا تبسم؟!». «ابتسم لبساطة العقوبة.. السجن أسبوع واحد، ما ألطف الحياة

هنا بالنسبة للحياة في الولاية المتاخمة».

«حسنًا.. إنني أسمع أنكم أيها الرجال تفضلون السجن على دفع الغرامة، هل تريد قطعة الصابون؟».

«لا.. شكرًا.. لقد فرغت من الاستحمام».

«إذن يحسن أن نسرع بالعودة؛ لأن أختي تحب أن تستحم قبل غروب الشمس».

ولما اقترب من البيت أثناء العودة التقيًا بمس لير التي بدت أكثر ما تكون بدانة في جلباب الاستحمام، وهي في طريقها إلى الجدول، وقد أُلقت بصوتها الرقيق بذلك السؤال التقليدي الذي كانت تلقيه كالساعة بانتظام قائلة:

«هل الماء لطيف اليوم!؟».

فأجابها أخوها كما لا شك أجابها آلاف المرات قائلاً:

«نعم يا عزيزتي.. بارد وعذب».

واستأنفت مسيرها في الحقل نحو الجدول وهي تنحني قليلاً لتبين طريقها بسبب قصر نظرها.

وفي غرفة النوم، أغلق المستر لير بابها من الداخل وهو يقول:

«أرجو إذا سمحت ألا تغادر هذه الغرفة حتى تفرغ المس لير من الاستحمام، فإن أي إنسان يستطيع أن يرى الجدول إذا وقف أمام البيت..».

ثم راح هو يرتدي ملابسه. وكان جسمه طويلاً، هزياً جافاً.. وكانت الغرفة تحتوي فقط على سريرين نحاسيين، ومقعد واحد، وخزانة ملابس، وكأنها غرفة في دير، لا ينقصها إلا الصليب أو «المظاهر» الدينية على حد تعبير المستر لير. ولكن كانت بها نسخة من الكتاب المقدس موضوعة على الأرض بجانب أحد السريرين، داخل كيس من المشمع. وبعد أن فرغ الراهب من ارتداء الملابس، تناول الكتاب المقدس وفتحه حيث وجد في الصفحة البيضاء التالية للغلاف عبارة تدل على أن هذا الكتاب مقدم من آل جيدون، ثم هذه الكلمات:

«الكتاب المقدس في كل غرفة استقبال بالفندق، يكسب للمسيح أنصاراً من بين رجال الأعمال.. أخبار طيبة..». ثم يلي هذا قائمة من المتون راح الراهب يقرأها وهو أشد ما يكون دهشة:

«إذا كنت في أزمة.. فاقراً.. المزمور ٣٤

وإذا كنت مهموماً.. فاقراً.. جيمس ١ وهوسبا ١٤, ١٠٤

وإذا كنت في رخاء.. فاقراً.. ١ كورنثيين ٢, ١٠

وإذا كنت قد فعلت الخطيئة.. فاقراً.. المزمور ٥١ وليوك ١٨, ٩-

١٤

وإذا أردت السلام والقوة والكثرة.. فاقراً.. جون ١٤

إذا كنت وحيداً بائساً.. فاقراً.. المزمور ٢٣, ٢٧

إذا بدأت تفقد الثقة في الناس.. فاقراً.. كورنثيين ١٣

إذا أردت نوّمًا مريحًا.. فاقرأ.. المزمور ١٢١

وأخذ الراهب يتساءل في دهشة عمن جاء بهذه النسخة من الكتاب المقدس المطبوعة بحروف مطبعية رديئة، وقد دونت عليها هذه «التفسيرات البسيطة» إلى هذه المزرعة النائية بجنوب المكسيك. واستدار المستر لير بوجهه عن المرأة وهو ممسك بفرشاة شعر خشنة، ثم قال مفسرًا الأمر باهتمام:

«كانت أختي تدير فندقًا للموسيقيين. وقد باعته لتلحق بي هنا بعد وفاة زوجتي، وقد أحضرت معها هذه النسخة من الكتاب المقدس من الفندق. إنك لن توافق على صحة هذا الإجراء يا أبي؛ فأنت لا تحب أن يقرأ العامة الكتاب المقدس».

وكان المستر لير يتحدث بلهجة الذي يدافع عن مذهبه الديني الخاص، وسأله الراهب قائلاً:

«هل زوجتك مدفونة هنا؟».

فقال المستر لير بخشونة!

«نعم.. في المرجة القريبة من الحقل».

ثم توقف برهة والفرشاة في يده ينصت إلى وقع خطوات خفيفة خارج الغرفة، ثم أردف قائلاً:

«إنها مس لير.. عادت من الجدول.. يمكننا أن نخرج الآن..».

وترجل الراهب عن جواد المستر لير عندما وصل إلى الكنيسة،
وشد العنان إلى شجرة صغيرة، وكانت تلك أول زيارة له للقرية منذ
أن سقط مغشياً عليه بجانب جدار الكنيسة الأبيض.. وكانت القرية
تبدو في نهاية المنحدر الممتد أمامه في شفق المساء.. مجموعة من
الأكواخ الطينية والبيوت الصغيرة يواجه بعضها بعضاً على حافتي
شارع واحد مكسو بالعشب النامي. وكانت ثمة مصابيح قد أضيئت،
وشعلة من النار يطاف بها على أكواخ الفقراء لطرد البعوض. وسار في
بطء نحو هذه القرية وهو يشعر بالأمن والسلام. ورفع أول رجل التقى
به قبعته محيياً، وركع أمامه، وقبّل يده فقال له:
«ما اسمك؟».

«اسمي بدرو يا أبي».

«طاب مساؤك يا بدرو».

«هل سيقام غداً قداس يا أبي؟».

«نعم.. سيقام القداس غداً».

وتجاوز في سيره المدرسة الريفية، حيث كان ناظرها جالساً على
الدرجة الأولى من مدخلها، وكان، أي الناظر، شاباً بدينًا أسود العينين،
يضع عليهما نظارة ذات عدسات سميكّة، ولما رأى هذا الناظر الراهب
مقبلاً، أشاح بوجهه بعيداً في صلف وخيلاء، فقد كان رمزاً للخضوع
للقانون الجديد ومن ثم فهو لا يريد أن يتعرف «بالمجرمين». وقد
راح يتحدث بحذلقه وتعالٍ إلى شخص وراءه عن شيء يتعلق بفرقة

الأطفال.. وتقدمت إحدى النساء وقبلت يد الراهب.. وأحس هذا بشيء من الغرابة وهو يجد نفسه موضع التقدير مرة أخرى بعد أن كان منذ أيام حاملًا الموت أينما ذهب.

وقالت المرأة له:

«أبي.. هل ستسمع اعترافاتنا؟».

«نعم.. نعم.. في جرن مزرعة المستر لير. قبل إقامة القداس. سأكون هناك في نحو الخامسة صباحًا بمجرد أن يسفر الصباح.».

«ما أكثر من يريدون الاعتراف يا أبي!».

«حسنًا لنبدأ الليلة.. في الثامنة مساء.».

«وهنا يا أبي كثير من الأطفال المحتاجين إلى التعميد.. إننا لم نر قسًا أو راهبًا منذ ثلاث سنوات!».

«لسوف أمكث بينكم يومين..».

«كم ستأخذ منا ثمنًا لتعميد الطفل يا أبي؟».

«الأجر المعتاد هو بيزتان عن تعميد الطفل.».

وراح يفكر: إنه سيحتاج لاستئجار بغلتين ودليل، وهذا سيكلفه نحو خمسين بيزة حتى يصل إلى مدينة لاس كازاس وسيظفر من إقامة القداس بخمس بيزات، فيكون مجموع المطلوب منه نحو خمس وأربعين بيزة..

«ولكننا فقراء جدًا يا أبي.. فأنا مثلاً أم لأربعة أطفال محتاجين

للتعميد وثمانى بيزات مبلغ كبير جدًا بالنسبة لى!». .

«وأربعة أطفال أيضًا عدد كبير من الأطفال.. كيف أنجبتهم فى ثلاث سنوات إذا صح ما تقولينه عن حرمانكم من رؤية قس منذ ثلاث سنوات!». .

وخيل إليه أنه يسمع فى رنين صوته النعمة القديمة، نعمة السيطرة والأمر، كأنما لم تكن تلك السنوات العشر السود غير حلم وكأنما هو لم يتعد لحظة واحدة عن مركزه كراع لأبراشية محترمة، حيث كان القداس يقام كل يوم، وحيث كان هو ضيف الشرف فى كل اجتماع أو حفلة دينية. وسألها فى حدة:

«كم عدد الأطفال المحتاجين للتعميد هنا؟».

«نحو مائة يا أبى».

وشرع يقوم بعملية حسابية لنفسه: ليس هناك ما يدعو لأن يصل إلى مدينة لاس كازاس مفلسًا معدمًا.. ففي مقدوره أن يشتري طاقمًا من الملابس اللائقة، وأن يستأجر غرفة للإقامة، وأن يستقر. وقال:

«إذن ليكن ثمن تعميد الطفل بيزة ونصف بيزة..»

«ليكن الثمن بيزة واحدة يا أبى.. إننا فقراء جدًا».

«لا أقل من بيزة ونصف».

وخيل إليه أنه يسمع صوتًا آتيًا إليه من عهد بعيد يقول: إن الشيء الرخيص يفقد قيمته فى نظرتهم. إنه صوت الراهب العجوز الذى

أخلى له مركزه الديني في أبراشية كونسبكيون.. وقد شرح له الأمر بقوله: إنهم سيزعمون لك دائماً أنهم فقراء يوشكون على الموت جوعاً، ولكن تأكد أنهم يحتفظون عادة بمبالغ صغيرة من المال مخبوءة في قدر أو مدفونة في الأرض.

وقال الراهب للمرأة:

«يجب أن تحضروا الأطفال والمال إلى جرن مزرعة المستر لير في الساعة الثانية بعد ظهر الغد...».

«حسناً يا أبي».

وكان صوتها ينم عن الرضى، فقد استطاعت أن تساومه وتهبط بثمان تعמיד الطفل إلى بيزة ونصف، واستأنف الراهب سيره وهو يفكر: مائة طفل يعني مائة وخمسين بيزة، تضاف إليها نحو عشر بيزات ثمناً للقداس، فيكون المجموع مائة وستين بيزة. ومن المحتمل أن أستأجر البغلتين والدليل بأربعين بيزة فقط..

وسوف يزودني المستر لير بطعام يكفي ستة أيام الرحلة.. ومن ثم يتبقى معي نحو مائة وعشرين بيزة، ومعنى هذا أنني غدوت - بعد كل هذه الآلام - قريباً من الثراء!!

وكانت مظاهر الاحترام والتجلة تحيط به في كل خطوة يخطوها على أرض الشارع، فالرجال يرفعون قبعاتهم له كلما مر بهم والنساء يقبلن يده كأنما قد ارتد بقوة ساحرة إلى عهد الحرية الدينية، وإنه ليشعر بمظاهر تلك الحياة القديمة تتجمد حوله كالعادات، كقالب من

الجبس يجعل رأسه مرفوعًا عاليًا ويمهد له طريق السير، بل ويضع على لسانه الكلمات المناسبة. وسمع من مدخل نادي القرية صوتًا يقول:

«يا أبي».

التفت الراهب فاذا هو يرى رجلًا بدينًا جدًّا، عريض الذقن، يرتدي رغم حرارة الجو صديرية مزينة بسلسلة ساعة جيب. وقال الراهب: «نعم!».

وكان وراء الرجل البدين مجموعة من الأرفف عليها ألوان مختلفة من زجاجات المياه المعدنية والغازية والكحول. وترك الراهب الطريق المترب وتقدم إلى مدخل النادي حيث وقف تحت المصباح البترولي الكبير وقال: «ماذا تبغي؟».

«خطر لي يا أبي أنك قد تحتاج إلى قليل من قربان الخمر».

«ربما.. ولكني لا أستطيع دفع الثمن مقدمًا».

«إن كلمة شرف من راهب مثلك تكفي يا أبي، فأنا شخصيًا رجل متدين، والشعور الديني موفور في هذه القرية، وليس من شك في أنك ستقوم بتعميد عدد كبير من الأطفال فيها».

وكان يتحدث وهو ينحني باحترام، وكأنما هو والراهب صديقان تجمع بينهما وحدة الهدف.. والثقافة. وقال الراهب:

«ربما».

وابتسم الرجل وهو يومئ برأسه كأنما يقول للراهب: لا تخش شيئاً.. فليس هناك ما يدعو إلى الشك بين اثنين مثلنا يفهم كلٌّ منا ما يدور بذهن الآخر، ثم قال:

«لقد كنت في العهد الأول.. عهد الكنائس والحرية الدينية، أميناً لصندوق جمعية القربان المقدس. إنني كاثوليكي متحمس يا أبي.. ولكن الناس هنا طبعاً- جهلة أُميون».

ثم سأل فجأة بلهجة ملوِّها بالإخلاص:

«هل تشرفني وتشرب معي كأساً من البراندي؟».

فقال الراهب متردداً:

«جميل منك هذا».

وسرعان ما امتلأت الكأسان: وتذكر الراهب آخر كأس شربها.. لقد كان حينذاك جالساً على حافة السرير في الظلام ينصت إلى مدير البوليس، ويرى، قبل انطفاء النور، زجاجة الخمر وهي تخلو. وكانت هذه الذكرى كأنها يد ترفع عنه ستار المظهر المتكلف، وتكشف حقيقته للجميع. وانسابت رائحة الخمر إلى فمه وزادت حلقة جفافاً، وعاد يفكر: أي ممثل قدير أنا؟ الواقع أنه ليس لي عمل، أو مكان، هنا، بين هؤلاء الناس الطيبين..

وأدار الكأس في يده، ورأى، بخیاله، كل الكؤوس التي شربها تدور أمامه، وتذكر حديث طبيب الأسنان عن أسرته التي تركها في

إنجلترا، وماريا، أم ابنته غير الشرعية - وهي تأتي له بزجاجة الخمر التي كانت تخفيها له.. هو الراهب السكير..

وشرب من الكأس جرعة في غير اشتها، بينما قال الرجل البدين:
«إنه براندي ممتاز يا أبي».

«نعم».

«أستطيع أن أخفض السعر خاصة لك وأبيعك اثنتي عشرة زجاجة بستين بيضة فقط».

«ومن أين لي الحصول على ستين بيضة؟!».

وعاد يفكر: لقد كانت الحياة - على وجه ما - أفضل لي هناك، عبر الحدود.. في منطقة الخطر.. فلم يكن الخوف والموت أسوأ الأشياء.. وإنما أسوأها، في بعض الأحوال، أن يظل الإنسان على قيد الحياة..
وعاد الرجل البدين يقول:

«لن أحاول أن أحصل على ربح منك يا أبي.. ما رأيك في خمسين بيضة؟!»

«خمسين أو ستين.. إن الأمر سيان لدي».

«حسنًا يا أبي.. اشرب كأسًا ثانية.. إنه براندي جيد».

وانحنى الرجل فوق منضدة الشراب وأردف قائلاً في لهجة رقيقة:

«لسوف أبيعك يا أبي نصف دسته بأربع وعشرين بيضة».

ثم استطرد في مكر ودهاء:

«لا تنس صفقة تعميد الأطفال يا أبي».

ولشدة ما كانت دهشة وخجل الراهب وهو يتذكر كيف نسي بسهولة أحداث الأعوام العشرة وهو يتحدث الآن بتلك اللهجة القديمة.. لهجة أيام كونسبكيون دون أن تغير منه شيئاً تلك الخطيئة الكبرى التي اقترفها، فلا هو يشعر بالندم، ولا هو يشعر بكل ما حدث! إنه يشعر فقط بمرارة البراندي على لسانه كأنها بقايا شروره وآثامه. إن الله قد يغفر للإنسان الخطايا الناتجة عن الجبن والشهوة. ولكن هل من المحتمل أن يغفر خطيئة التدين الناشئ عن العادات والتقاليد! إنه يذكر تلك المرأة المتدينة التي لقيها في السجن، وكيف عجز عن تخفيف رضائها العميق النابع من فرط تدينها المؤسس فقط على العادات والتقاليد، إنه يخيل إليه أنه قد أصبح مثلها.. أصبح من الذين يؤمنون إيماناً أعمى بغير فهم أو إدراك.

وأفرغ الكأس في فمه، كاللعنة..

إن رجلاً كذلك المولد البائس يمكن إنقاذ روحه في اللحظة الأخيرة. فإن حياة الجهل المطبق التي يحياها تقوم له عذراً، وإن نور الخلاص قد يضيء أحياناً - كالبرق - ظلمات القلب الممتلئ بالشر بسبب الجهل. أما «عادة التدين» فإنها تحجب عن البصر والبصيرة كل شيء إلا الصلاة قبل النوم، وحضور الاجتماعات الدينية، والشعور بالكبرياء عند ملازمة الشفاه الخاشعة لليد الموضوعة في القفاز!

وعاد الرجل البدين يقول:

«يقولون إن لاس كازاس مدينة رائعة يا أبي.. يمكن للناس فيها أن يسمعوا القداس كل يوم».

واستمر الراهب في تفكيره: وهذا أيضًا رجل متدين بحكم العادة والتقاليد.. يبدو أن الدنيا زاخرة بأمثاله..

وكان الرجل يصب- في حذر- كمية أخرى من البراندي في الكأس وهو يستطرد قائلاً بصوته الماكر الناعم:

«عندما تصل إلى هذه المدينة يا أبي ابحث عن زميل لي في شارع جواد الرب، إن له حانة بالقرب من الكنيسة.. وهو رجل فاضل.. أمين صندوق جمعية القربان المقدس، تمامًا كما كنت أنا هنا في العهد السعيد، ولسوف يقدم لك ما تريد بثمن مخفض. والآن.. ما رأيك في بعض زجاجات تحملها معك أثناء الرحلة؟!».

وشرب الراهب كأسه.. فلم يعد هناك مهرّب من مواصلة الشرب الذي أصبح لديه عادة، كعادة التدين، والتحدث بلهجة الأيام الخوالي وأخيرًا قال:

«سأشتري منك ثلاث زجاجات بإحدى عشرة بيزة، واحتفظ بالمجموعة لي لديك».

ثم شرب حثالة الكأس وعاد إلى الطريق، حيث رأى أضواء المصابيح تنساب من النوافذ، والشارع الواسع يمتد بينها كأنه منطقة من البراري.. ولما تعثرت قدمه في حفرة، شعر بيد تمسك بذراعه، فالتفت وقال:

«آه.. أنت بدرو.. أليس هذا اسمك؟ شكرًا بدرو».

«إنني في خدمتك يا أبي».

وكانت جدران الكنيسة البيضاء قائمة في الظلام كأنها جلمود من الثلج يوشك أن يذوب تحت حرارة الجو.. فقد كان السقف منهارًا في جانب منها، والحلية التي كانت قائمة على المدخل ملقاة فوق الأرض. وألقى الراهب نظرة جانبية سريعة على بدرو وهو يحاول أن يكتم أنفاسه المشبعة برائحة الخمر، ولكنه لم يستطع في الظلام النسبي إلا أن يرى خطوط جانب وجهه، وأخيرًا قال بصوت ماكر- كأنما يحاول أن يخدع به شعور الطمع في أعماق قلبه:

«قل للأهالي يا بدرو إنني قررت تعمييد الطفل ببيزة واحدة فقط...».

لسوف يبقى من المائة بيزة ما يكفي لدفع ثمن زجاجات الشراب حتى لو وصل إلى مدينة لاس كازاس مفلسًا، وساد الصمت برهة وجيزة قبل أن يقول القروي المدعو بدرو:

«إننا فقراء جدًا يا أبي.. وإن البيزة لأجر باهظ على تعمييد الطفل.. فإن لي - مثلًا - ثلاثة أطفال.. أيمكن أن نخفض الثمن إلى ثلاث أرباع البيزة؟!».

بسطت المس لير ساقها التماسًا لمزيد من الراحة، بينما كانت الحشرات تتسلق أعمدة الشرفة في الظلام الخارجي! وكانت هي

تقول:

«حدث ذات مرة في مدينة بطرسبرج...».

وكان أخوها قد استغرق في النوم وهو جالس وإحدى المجلات القديمة ملقاة على ركبتيه وكان البريد الأسبوعي قد وصل، وكان الراهب يحاول أن يضحك كما يفعل في الأيام الخوالي، ولكنه لم يستطع، وفجأة تشممت مس لير الجو وقطعت حديثها قائلة:

«يخيل لي أنني أشم رائحة.. خمر؟».

فكتم الراهب أنفاسه، وتراجع بظهره على مقعده الهزاز وهو يفكر: ما أروع الهدوء والأمن هنا! وتذكر بعض سكان المدن الذين لا يستطيعون الاستغراق في النوم في الريف بسبب السكون التام.. فالسكون، كالضجيج، كلُّ له أثره الذي تعودت عليه طيلة الأذن.. وعادت السيدة تقول:

«ماذا كنت أقول يا أبي؟».

«كنت تقولين حدث ذات مرة في بطرسبرج».

«آه.. نعم.. كنت في بطرسبرج أنتظر القطار.. ولم يكن معي شيء يُقرأ. فقد كانت أثمان الكتب مرتفعة ومن ثم قررت أن أشتري صحيفة.. صحيفة واحدة، فالأخبار كلها تتشابه في مختلف الصحف اليومية. ولما فتحت الصحيفة وجدت اسمها شيئاً «كأخبار الجرائم» ولم يسبق لي أن قرأت عبارات رهيبة كالتي طالعني في هذه الصحيفة، بطبيعة الحال لم أقرأ أكثر من بضعة أسطر. وكان هذا أفظع شيء

حدث في حياتي.. فقد فتحت هذه السطور القليلة عيني على أشياء ما كان ينبغي أن أعرفها..».

«نعم.. وبعد!».

«ولم أخبر أخي لير بما حدث.. فإني أعتقد أن مكانتي عنده ستهبط لو عرف».

«ولكنك لم ترتكبي خطيئة!».

«يكفي أنني قرأت عنها».

وسمع الراهب، من بعيد، صوت طائر من نوع ما.. وبدأت ذبالة المصباح الموضوع على المنضدة تدخن، فانتحت مس لير وخفضت الذبالة قليلاً، وعاد مذاق البراندي إلى فمه كأنه بقايا رائحة المخدر التي تذكر المريض بعملياته الجراحية قبل أن يفيق منها تمامًا ويعود إلى حياته الطبيعية. إنها، أي رائحة المخدر، تحاول أن تشده إلى ذلك اللون من الحياة التي كان يحياها تحت تأثير المخدر!

وشعر في تلك اللحظة أنه ليس جديرًا بمثل هذه الحياة الوادعة الآمنة.. ومن ثم قال لنفسه: لسوف أقلع في الوقت المناسب عن إدمان الخمر.. لقد احتجزت هذه المرة ثلاث زجاجات من الخمر، لسوف تكون آخر زجاجات أشربها في حياتي، ولن أحتاج إلى شرب الخمر هناك، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه أنه كاذب! واستيقظ المستر لير فجأة وهو يقول:

«وكما ذكرت لكم...».

فقال أخته:

«إنك لم تكن تذكر لنا شيئاً يا عزيزي.. لقد كنت نائمًا».

«لا لا.. لقد كنا نتحدث عن ذلك الخبيث هوفر».

«لا أظن يا عزيزي».

«حسنًا.. لقد آن لنا أن نأوي إلى غرفات النوم بعد هذا اليوم

الطويل.. ولا شك أن ضيفنا الراهب متعب أشد التعب.. لا سيما....».

ثم أضاف في لهجة خفيفة من الاستنكار، والازدراء:

«بعد أن سمع اعترافات الأهالي الليلة».

وكان الراهب قد أنصت إلى اعترافات عدد كبير من الناس فيما

بين الساعة الثامنة والعاشرة مساء.. ساعتان من الآثام والشرور التي

ارتكبت في هذه القرية الصغيرة خلال ثلاثة أعوام. ولكن هذه الكمية

من الشرور لا تكاد تذكر بجانب شرور المدينة الكبيرة.. أم لعلها

تذكر؟! إن خطايا الإنسان محدودة أهمها الخمر والرجس والفاحشة..

وكان أثناء سماعه الاعترافات جالسًا في مربوط حصان على مقعد هزاز.

ومذاق البراندي قويًا في فمه، ولم يكن يكلف نفسه بالنظر إلى المعترف

الراكع أمامه، بينما بقية راغبي الاعتراف قد ركعوا في الإسطبل ينتظر

كل منهم دوره. وكان إسطبل مستر لير خاليًا من الخيول منذ سنوات

قليلة ولم يبق فيه غير جواد واحد عجوز كان مشدودًا في ركن مظلم،

وكان يصهل ويرفس كلما تعكر الجو بأنفاس الخطايا والآثام..

وكان الراهب يسأل المعترف أحيانًا عن عدد ارتكابه خطيئة معينة

فيقول:

«كم مرة؟!».

«عشر مرات يا أبي».

ويصهل الجواد العجوز ويرفس الهواء..

ومما يدعو إلى الدهشة والتفكير ذلك الشعور بالبراءة الذي يسير جنباً إلى جنب مع الخطيئة.. الرجل الواعي المعرب.. أو القديس، هو الذي يخلو من مثل هذا الشعور. وكان هؤلاء الناس يخرجون من الإسطبل مطهرين. ولم يبق أحد غيره بدون اعتراف أو توبة أو تطهير.. وقد أراد أن يقول لذلك الرجل:

«إن الحب ليس خطيئة مادام صريحاً مسبباً للسعادة. ولكنه يكون خطيئة إذا كان سرّياً مسبباً للشقاء.. وليس هناك أشقى من الزاني إلا الملحد، وليس هناك يا ابني ما يدعوك للتوبة، فقد تعذبت بسبب خطيئتك بما فيه الكفاية؟».

وكان يريد أن يقول لآخر:

«إن الشهوة في ذاتها ليست إثماً.. وإنما هي إثم كبير عندما تتحول إلى حب لا ينبغي أن يكون. ولا تحل علينا اللعنة الحقيقية إلا إذا أحببنا شهواتنا التي تحولت إلى خطايا».

ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً من هذا بحكم العادة، وإنما ظل جالساً ينصت إلى المعترفين، كما كان يفعل في الأيام الخوالي حين تعود أن يجلس في تلك الغرفة الضيقة التي تشبه التابوت، ويترك

المعترفين ليدفنوا آثامهم في صدره.. وكان بحكم العادة أيضًا يتمتم بكلمات «الخطيئة الكبرى.. الخطر.. ضبط النفس». كأنما هذه الكلمات تعني أي شيء على الإطلاق. وكان يقول لبعض المعترفين: «اقرأ دعاء «آباءنا» ثلاث مرات ودعاء».

وكان أحيانًا يهمس في تعب لمعترف آخر «إن شرب الخمر هو الخطوة الأولى نحو...» ثم يتوقف عن الاستطرداد في الوعظ، وكيف يستطرد ورائحة الخمر تتصاعد مع أنفاسه في جو الإسطبل، ومن ثم كان يرسل عبارات وعظه التقليدية بسرعة، وخشونة، وبطريقة آلية تجعل المعترف يغادر المكان في ضيق وقلق وهو يقول لنفسه «إنه راهب شرير».

وقال لمعترف آخر: «هذه الوصايا الدينية وضعت لصالح البشر لا للكنيسة.. فإذا لم تكن قادرًا على الصوم، فافطر!».

وتقدمت إحدى المعترفات، وكانت امرأة عجوزًا، وراحت تثرثر باعتراقاتها في استطرداد ممل، وأخذ المنتظرون الراكعون يتململون في أماكنهم، والجواد العجوز يصهل ويرفس وفجأة، وبدون أية مناسبة، خامره الشعور بالحنين إلى مسقط رأسه، وراح يذكر أولئك الرهائن الواقفين عند صنبور الماء في فناء مركز البوليس، يرفضون النظر إليه حتى لا يفشوا سره، إنه يذكر تلك الآلام التي تسير جنبًا إلى جنب مع الصبر وقوة الاحتمال، هناك، في الولاية التي هرب منها عبر الجبال.. وفجأة قطع ثرثرة المرأة العجوز قائلًا في صوت حاد:

«لماذا لا تعترفين كما ينبغي؟! ماذا يهمني أنا من نومك غير

المريح في بعض الليالي أو قلة نصيبك من السمك يجب أن تتذكري
وتعترفي بخطاياك الحقيقية..».

فقالَت المرأة صائحة بصوت حاد مدهوش:

«ولكنني امرأة فاضلة يا أبي».

«إذن ماذا تفعلين هنا.. لماذا تحرمين غير الفاضلين من الاعتراف..
ألا تحبين أو تهتمين بأحد غير نفسك؟».

فقالَت في تحد وغطرسة:

«إنني أحب الله».

فأرسل نظرة سريعة إلى وجهها على ضوء الشمعة التي أوشكت
أن تحترق، فرأى أمامه واحدة أخرى من المتدينين بحكم العادة.. مثله
تمامًا!

وقال لها:

«ماذا تعرفين عن حب الله!! إن حب الله ليس كحبك للزوج أو
الابن.. إن معنى حبك لله هو الرغبة في أن تكوني معه.. بالقرب منه».

ثم لوح بيده كأنما يريد أن يزيد كلماته إيضاحًا وقال:

«الرغبة في أن تحفظي الله من نفسك».

ولما انصرف آخر معترف من الإسطنبول، مضى هو عبر الفناء
الخليفي إلى المنزل، حيث كان المستر لير يقرأ في الشرفة، وأخته
تشغل نفسها بالخياطة، وكانت رائحة العشب في المرجة، المبلل

بالمطر، تنساب إلى أنفه. وشعر حينئذ أنه من الممكن أن يشعر الإنسان في مكان كهذا بالسعادة لو لم يكن مشدودًا إلى عالم الخوف والشقاء. إن الشقاء أيضًا يمكن أن يكون عادة، كالتدين! ومن يدري.. فلعل من واجبه أن يحطم هذه العادة.. عادة الشعور بالشقاء.. من واجبه أن يلتمس السلام وسكينة النفس.. إنه يشعر بالحسد لكل هؤلاء الناس الذين خففوا عن نفوسهم بالاعتراف أمامه. وعزى نفسه قائلاً: بعد ستة أيام، عندما أصل إلى مدينة لاس كازاس، ستتاح لي أنا أيضًا هذه الفرصة. ولكنه لم يلبث أن شعر في أعماق نفسه بأنه لا يستطيع أن يصدق أن ثمة إنسانًا في أي مكان يمكن أن يخفف عنه آثامه. إنه يشعر، حتى أثناء شربه الخمر، أنه مرتبط بحب خطيئته..

إنه لأسهل عليه أن يتخلص من الشعور بالحق.

وقالت له مس لير عندما أقبل عليها في الشرفة:

«اجلس يا أبي.. فلا شك أنك مرهق متعب.. إنني طبعًا لا أعترف بجدوى هذه الاعترافات، كذلك أخي ولكن...».

«لا تعترفين!».

«نعم.. ولكنني لا أدري كيف تستطيع أن تظل جالسًا هكذا تنصت إلى هذه الأشياء الرهيبة.. فإني أذكر حدث ذات مرة في مدينة بطرسبرج...».

كانت البغلطان قد جهزتا للرحلة أثناء الليل، ومن ثم كان في

مقدوره أن يبدأ السفر عقب الفراغ من القداس مباشرة.. وكان ذلك هو القداس الثاني الذي أقامه في جرن مزرعة المستر لير. وكان دليله نائماً في مكان ما، لعله كان بالقرب من مربط البغلين. وكان - أي الدليل - رجلاً نحيلًا متوتر الأعصاب لم يسبق له السفر إلى لاس كازاس، وإنما كان يعرف الطريق معرفة سطحية إخبارية. وكانت مس لير قد أصرت في الليلة السابقة على أن تتولى إيقاظه بنفسها رغم أنه كان متعوداً على الاستيقاظ من تلقاء نفسه قبل شروق الشمس، وقد ظل راقداً في الفراش ينصت إلى رنين جرس المنبه في الغرفة الأخرى وكأنه رنين جرس التليفون. وما هي غير لحظات حتى سمع دققة قبقاب المس لير في الردهة، ثم نقر أصابعها على الباب. وقد ظل المستر لير مستغرقاً في النوم وهو راقد على ظهره كأنه تمثال أسقف مستو على مقبرة..!

واستطاع الراهب أن يرتدي ملابسه ويفتح الباب قبل أن تنصرف المس لير، فلما رآته، كتمت صيحة استياء وخرج؛ لأنها كانت في جلباب النوم وشعرها مكومًا في شبكة الرأس، فقال لها:

«أرجو المذرة..».

«أوه.. حسنًا.. حسنًا.. كم تستغرق إقامة القداس من الوقت يا أبي».

«أعتقد أن عدد الحاضرين سيكون كبيرًا. وربما استغرقنا ثلاثة أرباع الساعة».

«إذن سأعد لك قَدْحًا من القهوة وبعض الشطائر بعد أن تفرغ».

«أوه.. لا داعي للتعب».

«أوه.. إننا لا نستطيع أن ندعك تسافر دون إفطار».

وتبعته إلى الباب الخارجي وهي تحرص على الوقوف وراءه مباشرة حتى لا يراها أحد من الفضاء الواسع الممتد أمام البيت في بكور الصباح. وكان ضوء الفجر الشاحب يبسط أجنحته الرمادية على المراعي. وكانت شجرة السوسن عند بوابة الحديقة تحمل أزهارها المتفتحة لليوم الجديد، وهناك، بعيدًا، وراء الجدول الذي استحم فيه، كان بعض الأهالي يصعدون من القرية في طريقهم إلى جرن مزرعة المستر لير. وقد كان منظرهم يبدو من هذه المسافة البعيدة كأنهم غير آدميين. وكان هو يشعر بجو من السعادة المرتقبة يرفرف حوله، في انتظار أن يأخذ نصيبه منها وكأنه واحد في مجموعة من الأطفال ينتظرون مشاهدة عرض سينمائي أو سماع برنامج في الراديو. وكان يدرك مبلغ ما كان ينتظره من السعادة الخالصة لو أنه لم يترك وراءه، في الولاية الأخرى عبر الجبال، إلا بعض الذكريات الأليمة البسيطة. والمعتاد أن يفضل الإنسان السلام على العنف، وها هو ذا في طريقه إلى السلام..

وقال لمس لير..

«إنني أشكر لك حسن وفادتك لي يا مس لير».

وكم كان يشعر بالعجب في أول الأمر حين استقبل في هذا البيت

كضيف وليس كمجرم هارب أو كراهب شرير. إن صاحبه من مذهب ديني آخر.. من هؤلاء الذين لا يخطر ببالهم وجود راهب أو رجل دين غير فاضل.. أي ليس لهما تزمّت الكاثوليكين العنيف الذي يحاول أن يتفرس في أعماق النفس البشرية.

وأجابت عليه بقولها:

«لقد استمتعنا بوجودك بيننا يا أبي. ولكنك ستكون مسرورًا بالابتعاد عن هذه المنطقة. فإن لاس كازاس مدينة طيبة، أو - كما يقول أخي - مكان أخلاقي ديني. فإذا التقيت بالأب كويتانا فبلغه تحياتنا، فقد كان هنا منذ ثلاثة أعوام».

وبدأ يسمع دقات ناقوس كبير.. فأدرك أن الأهالي أحضروا معهم جرس الكنيسة بعد أن انتزعوه من برجها ثم علقوه على باب جرن المزرعة، وقد شعر وهو يسمع دقات الناقوس كأنه في يوم أحد في أي مكان.

وقالت المس لير فجأة:

«إنني في بعض الأيام أتمنى لو استطعت الذهاب إلى الكنيسة».

«وماذا يمنعك؟».

«إن أخي لير لا يوافق.. فهو دقيق في هذه الناحية. ولكن مثل هذه الاحتفالات الدينية قلما تحدث الآن.. ولا أعتقد أن قداسًا آخر سيقام قبل مرور ثلاث سنوات أخرى..»

«لسوف أعود إلى هذه القرية قبل مرور هذه السنوات».

«أوه.. لا.. لا داعي لمثل هذه العودة.. فان الرحلة شاقة، ولاس
كازاس مدينة جميلة. فإن شوارعها مزودة بالمصابيح الكهربائية، وفيها
فندقان، وقد وعد الأب كويتانا بالعودة مثلك ولكنه وجد المسيحيين
المحتاجين لصلواته في كل مكان.. أليس كذلك؟ فلماذا يتحتم عليه
الحضور إلى هنا؟ إن الحالة الدينية هنا ليست بالغة السوء كما ترى».

ومر أمام البوابة جماعة من الهنود الحمر.. مخلوقات ضئيلة الحجم،
نحيلة الأجسام، كأنها بقايا العصر الحجري: الرجال في جلابيب قصيرة
حاملين الهراوات، والنساء بصفائهن العديدة ووجوهن الجامدة
وأطفالهن المحمولين في أكياس فوق الظهور. وقالت مس لير:

«لقد سمع هؤلاء الهنود الحمر بوجودك هنا.. وقد قطعوا سيرًا
على الأقدام مسافة خمسين ميلًا.. ولا عجب..».

وتوقف الهنود الحمر أمام البوابة، وراحوا يتأملون الراهب فلما
نظر إليهم، ركعوا على ركبهم وهو يرسمون على أجسامهم ووجوههم
علامات الصليب بطريقتهم الخاصة التي تبدأ بلمس الأنف ثم الأذنين
ثم الذقن.

وقالت المس لير:

«إن من عادة أخي أن يشعر بالغضب الشديد إذا رأى أحدًا يركع
أمام راهب أو قس.. أما أنا فلست أرى في ذلك أي ضرر».

وعند منعطف المنزل كانت البغلتان تضربان الأرض بحوافرهما
ويبدو أن الدليل جاء بهما ليأكلا كمية من الذرة قبل الرحيل. وحسنًا

فعل إذ المعروف عن البغال أنها تأكل ببطء ولهذا يحسن أن يوضع أمامها الطعام مدة كافية قبل بدء استخدامها.

وكان الوقت قد حان لإقامة القداس ثم الرحيل، وشعر الراهب كأنه يشم رائحة الصباح الباكر.. فقد كان الهواء نقيًا، والأرض خضراء، والكلاب في القرية ترسل نباح الشروق.. وكان المنبه يرسل دقاته المنتظمة، وهو في يد المس لير.. وقال هو:

«يجب أن أمضي الآن».

وشعر فجأة بأنه لا يريد أن يترك مس لير والمنزل وأخاها النائم في الداخل، فقد تبين مبلغ ما في هذه الحياة من الوداعة والاعتماد على النفس. وقد كان مثله معهما مثل الرجل الذي يفوق من عملية جراحية خطيرة فيشعر نحو أول إنسان يراه بشعور خاص من المودة والحب.

ورغم أنه لم يكن مرتديًا ملابسه الكهنوتية، فقد شعر أن القداسين اللذين أقامهما في هذه القرية أقرب إلى ما كان يقيمه في عهد أبراشيته القديم من أي قداس أقامه خلال السنوات الثماني الأخيرة، فلم يكن ثمة خوف من هجوم رجال البوليس، ولم يكن ثمة حاجة إلى الإسراع في تناول القرايين قبل وصول البوليس، بل لقد أحضر بعض الأهالي معهم حجر المذبح من الكنيسة المهجورة، ولكن ذلك الجو الوداع الجميل زاده شعورًا بخطيئته وهو يتدئ القداس بقوله:

«لا تدع عذاباتك التي تحمّلها جسدك يا سيدي المسيح من أجلي أنا غير الجدير بشيء تتحول إلى عقاب لي يوم الحساب».

وكان يعرف أن الرجل التقي يكاد ينسى على مر الزمن وجود الجحيم في الآخرة. أما هو فإنه يحمل الجحيم بين جنبه أينما يسير. وأحياناً كان يحلم به أثناء الليل. بل كان يحس أن جرائم الشر تجري في عروقه كالملاريا، وإنه ليدكر حلمًا رأى فيه ذات ليلة ساحة واسعة مكسوة بالعشب، اصطفت فيها تماثيل القديسين، ولكن الحياة كانت تدب في هذه التماثيل، فهو يرى عيون القديسين تتحرك في هذا الاتجاه أو ذاك كأنما ينتظرون شيئاً.. وانتظر هو بدوره في لهفة وترقب شديد، وكان ثمة تماثيل عديدة للقديسين بطرس وبول ذوي اللحي المرسلة يضمون الكتب المقدسة إلى صدورهم، ويرقبون مدخلاً وراءه لا يراه، ولكنه كان يشعر كأن في هذا المدخل وحشاً متحفزاً. وفجأة راح يسمع عزفا على آلة الماريمبا.. رتيب النغمات رناناً، وانطلقت في الجو فرقعات الألعاب النارية، ثم إذا هو يرى في الساحة قديساً ضخماً رفيع المكانة يرقص ويتلوى وقد صبغ وجهه الدامي بالألوان، وقد ظل في رقصاته الشاذة الفاجرة حتى استيقظ الراهب من النوم وهو يشعر بإحساس الرجل الذي اكتشف أن كل ما يمتلك من نقود ليست إلا نقوداً مزيفة..

واختتم القديس أخيراً بالعبارات المألوفة في مثل هذه المناسبات.. وقال لنفسه: بعد ثلاثة أيام سأصل إلى مدينة لاس كازاس، وهناك ستتاح لي فرصة الاعتراف والتوبة.

وذكرى ابنته التي تركها جالسة بجوار مستودع القمامة، كانت تكبر في ذهنه وتثير في قلبه الشعور بحب أليم: ما جدوى الاعتراف

والتوبة إذا كان الإنسان يحب ثمرة الخطيئة

وركع المجتمععون في الجرن على ركبهم أثناء مروره بينهم لينصرف.. وقد رأى بينهم نساء من الهنود الحمر يحملن أولادهن الذين عمدوا على يديه، وبدرو، وصاحب الحانة الذي كان راكعاً طامراً وجهه بين كفيه البدينين وحبّات للعرق تتقاطر من بين أصابعه.. وقد بدا في مظهر الرجل الفاضل... ولعله رجل فاضل حقاً.. ولعلني.. هكذا فكر الراهب لنفسه: قد فقدت موهبة الحكم على الناس ومعرفة حقائق نفوسهم، ولعل تلك المرأة المتدينة التي رأيتها في السجن كانت أفضل الموجودين فيه!

وصهل جواد كان مشدوداً إلى شجرة، وارتفع صهيله في بكور الصباح، وانسابت إلى أعماق نفس الراهب روعة الشروق وهو واقف في باب البيت المفتوح، ومس لير وراءه.

ومضى أخيراً إلى حيث وقفت البغلّتان وبجانبيهما الدليل في انتظاره، وهناك فوجئ برؤية ذلك المولد ذي النابيين الأصفرين، واقفاً مع الدليل، يحك إبطيه بأظافره، ويتسم في دهاء. وكان منظره بالنسبة للراهب يشبه ذلك الألم الطفيف الذي يؤكد لإنسان ما أن الحب رغم كل شيء.. لم يمت.

وقال الراهب له في هدوء:

«حسنًا.. لم أتوقع أن أراك هنا!».

فابتسم المولد وقال وهو ممعن في حك إبطيه:

«طبعًا.. يا أبي طبعًا».

«هل أحضرت معك رجال البوليس؟!».

«ما هذا الذي تقول يا أبي؟».

وكان يتحدث بلهجة احتجاج وهو يرسل ضحكة بلهاء، وكان الراهب يستطيع أن يرى وراءه عبر الفناء، في مدخل البيت، مس لير وهي تعد الشطائر، وكانت قد ارتدت ثوبًا منزليًا، وإن كان شعرها لم يزل مكومًا في شبكة الرأس، وكانت تلف الشطائر بعناية في ورق مصقول، وقد بدت حركاتها الهادئة الوادعة كأنها جزء من الخيال، أما هذا المولد ذو النابين فهو الحقيقة.

وعاد الراهب يقول:

«ما هي الخدعة التي تدبرها للإيقاع بي الآن؟».

تري، هل قدم للدليل رشوة ليعود به إلى الولاية الأولى، عبر الجبال؟ إنه يؤمن بأن هذا المولد لا يتورع عن أي شيء..

«لا يجب أن تقول شيئًا كهذا يا أبي؟».

«أحقًا؟».

«إنني هنا يا أبي...».

ثم تنفس المولد بعمق كأنما يعد نفسه لمفاجئة في حديثه وهو يقول مستطرّدًا:

«لأقوم بمهمة رحيمة».

وكان الدليل قد فرغ من إعداد إحدى البغلتين للركوب، وبدأ يعد الأخرى، وضحك الراهب وهو يقول:
«مهمة رحيمة؟».

«نعم يا أبي.. فأنت رجل الدين الوحيد في هذه المنطقة حتى لاس كازاس، والرجل الذي يريدك يحتضر».
«أي رجل؟».

«الأمريكي الهارب».

«ما معنى ما تقول؟».

«المجرم الأمريكي المطارد الذي نهب وقتل.. إنك تعرف من أعني».

«إنه لن يكون في حاجة إليّ».

قالها في توتر عصبي وهو يتذكر صورة المجرم المعلقة في الجدار بالقرب من صورة أول اجتماع ديني.. وعاد المولد يقول وهو يحك إبطيه دون أن ينظر إلى الراهب:

«إنه كاثوليكي مخلص يا أبي.. وهو على وشك الموت.. وما أظن أنك - وأنا - نستطيع أن نحتمل وخز الضمير إذا لم نسرع».

«إن وخز الضمير في هذه الحالة لا يذكر بجانب وخزه في خطايا أخرى».

«ماذا تعني يا أبي؟؟».

«أعني أن هذا الرجل قتل وسرق فقط... ولكنه لم يغدر بأصدقائه».

«يا إله السماء! إنني في حياتي لم...».

فقال الراهب:

«لقد ارتكب كل منّا هذه الخطيئة».

ثم التفت نحو الدليل وأردف قائلاً:

«هل أعددت البغلتين».

«نعم يا أبي».

«إذن لنبدأ الرحيل».

وكان قد نسي أمر مس لير تمامًا وهو يرى بخياله هذه اليد التي تشير إلى حدود الولاية التي هرب منها.. وها هو ذا أصبح مرة أخرى يستعد للهرب والتخفي..

وسأله المولد قائلاً:

«إلى أين أنت ذاهب!».

«إلى لاس كازاس».

ثم اعتلى ظهر إحدى البغلتين، بينما أمسك المولد بسير الركاب مما جعله يتذكر لقاءهما الأول: وقد ظل وجه المولد ينم عن نفس المشاعر التي تمتزج فيها الشكوى باللهفة والبذاعة. وقد قال بنفس اللهجة المولولة وهو يرفع وجهه إلى الراهب:

«أهذا يليق براهب محترم؟ ماذا يقول الأسقف لو سمع بهذا؟
أتأبى إنقاذ روح رجل يحتضر لأنك تريد الإسراع إلى مدينة...».

«لماذا تعتقد أنني أحقق إلى هذه الدرجة؟ إنني أعرف سبب
حضورك. فأنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يسلمني لرجال
البوليس، وهم لا يستطيعون أن يتبعوني إلى هذه الولاية، وإذا سألتك
الآن، أين هو هذا الأمريكي المحتضر، فسوف تقول لي... وأنا أعرف،
ولا داعي لأن تقول: إنه موجود وراء حدود الولاية.. أي في الولاية
الأخرى التي ينتظرنى رجال البوليس فيها».

«لا يا أبي.. إنك مخطئ في هذا.. إنه داخل حدود هذه الولاية التي
نحن فيها الآن».

«هذا لا يهم.. إن ميلاً أو اثنين عبر حدود إحدى الولايتين لن يثير
المشكلات.. لن يحاول أحد أن يشكو أو يحتج».

«إن من القسوة القاسية يا أبي أن تصر على عدم الثقة بي لمجرد
أني، ذات مرة، وأنا اعترف بخطأي، حسناً».

ووكز الراهب بطن البغلة بالركاب، فانطلقت بعيداً عن بيت
مس لير، وانحرفت نحو الجنوب، والمولد ذو النابيين يتواثب بجانب
الركاب.

وقال الراهب له:

«إنني أذكر قولك لي إنك لن تنسى وجهي أبداً».

فقال الرجل في لهجة انتصار:

«وأنا لم أنسه فعلاً، وإلا لما جئت إليك هنا.. أليس كذلك، حسناً، يا أبي، إنني اعترف بكل شيء، ولعلك لا تدري كيف تغري الجائزة المرصودة للقبض عليك رجلاً فقيراً مثلي.. ولما أبيت أن تثق بي، قلت لنفسي، حسناً، ما دام يأبى الثقة بي، فسوف أفعلها معه.. ولكنني في الحقيقة كاثوليكي مخلص، ولهذا بادرت بالمجيء إليك من أجل رجل يحتضر».

وصعد الجميع المرتفع الواقع في نهاية مزرعة المستر لير والمؤدي إلى سلسلة الجبال التالية. وكان الهواء لا يزال عذباً نقيّاً في تلك الساعة السادسة من الصباح، وعلى ذلك الارتفاع البالغ ثلاثة آلاف قدم.. ولا شك أن جو الليل في مثل هذا الارتفاع سيكون بارداً جداً.. فقد كان عليهم أن يواصلوا الصعود ستة آلاف قدم أخرى.

وقال الراهب في قلق:

«ولماذا أضع رأسي في أحبولتك؟».

فقال المولد وهو يلوح بورقة في يده:

«انظر إلى هذه يا أبي».

ولفت خط الكلمات المكتوبة على الورقة نظر الراهب، إنه خط الصبية كورال الكبير الأنيق. وكان يبدو على الورقة أنها استعملت لتغليف كمية من الطعام، فقد كانت البقع الدهنية متناثرة فيها. فأمسك بها وراح يقرأ فيها هذه العبارات من درس عن قصة هاملت «وكان أمير الدانمرك متردداً: هل يقتل نفسه أم يعيش معذباً بالشكوك عن مصرع

والده، أم يقدم على ضربة واحدة».

وقال المولد:

«لا.. ليس هذا يا أبي.. اقرأ ما هو مكتوب على الجانب الآخر من الورقة».

ولما قلبَ الراهب الورقة، قرأ فيها هذه العبارة الواحدة المكتوبة بلغة إنجليزية وبقلم رصاص عريض «أناشدك الله يا أبي».

وبدأت البغلة تبطئ في السير لأن أحداً لم يكن يحثها بالضرب. ولم يحاول الراهب أن يعيدها إلى سرعة المسير؛ فقد شعر أن هذه العبارة لم تترك له حرية الاختيار.. وفي نفس الوقت شعر بمصراع الفخ يطبق عليه مرة أخرى..

وسأل المولد قائلاً:

«كيف حصلت على هذه الورقة؟».

«هذا ما حدث يا أبي.. فقد كنت مع رجال البوليس حين أطلقوا النار عليه، وكان هذا في قرية عبر الحدود.. وقد أمسك هو بطفل لجعل منه وقاء له من رصاص البوليس، ولكن هؤلاء لم يترددوا وأطلقوا النار عليه إذ كان الطفل من الهنود الحمر.. أصاب الرصاص الاثنين.. ولكنه استطاع أن يفر».

«إذن كيف؟».

«هذا ما حدث بعد ذلك يا أبي».

وراح المولد يثرثر بما حدث.. وكان الواضح من حديثه إنه خائف

من الضابط الذي كان يشعر بالمرارة لإفلات الراهب منه. ومن ثم قرر الهرب بدوره عبر الحدود ليكون بعيداً عن بطش الضابط. وفي ذات ليلة أتاحت له فرصة الهرب.. وفيما هو يسير بعد أن عبر الحدود إلى هذه الولاية، أو لعله لم يكن قد عبرها، فإن أحداً لا يدري أين تبدأ الحدود بينهما تماماً وأين تنتهي، شاهد المجرم الأمريكي، وكان مصاباً في بطنه بطلق ناري.

وعندئذ سأله الراهب:

«إذن كيف استطاع الفرار وهو مصاب في بطنه؟».

«إنه يا أبي رجل هائل القوة.. وهو الآن يحتضر وفي حاجة إلى راهب يصلي بجانبه».

«وكيف أمكنه أن يقول لك هذا كله؟».

«لقد ذكر لي رغبته في كلمتين.. ولكي أثبت لك هذه الحقيقة بالدليل، عثرت على ورقة كتب عليها هاتين الكلمتين.. و..».

وظل المولد يستطرد في ثرثرته، وكان الراهب يرى أن قصته مليئة بالثغرات كالغريبال، ولكن قصاصة الورق بقيت في يده حقيقة واقعة كأنها نصب تذكاري لا تستطيع أن تتجاهله.

وعاد المولد يقول وقد استبد به الغضب فجأة:

«ألا تصدقني يا أبي؟».

«نعم.. لا أصدقك ولا أثق بك».

«إذن فأنت تعتقد أنني كاذب؟».

«أكثر حديثك كذب».

ثم أوقف البغلة وبقي فوقها يمعن التفكير وهو مستقبل بوجهه ناحية الجنوب، إنه موقن تمامًا بأن حديث المولد مجرد فخ، ولعل المولد نفسه هو الذي رسم الخطة.. فهو يسعى دائمًا للظفر بالجائزة. ولكن.. تبقى الحقيقة الواضحة، وهي أن المجرم الأمريكي يحتضر فعلاً.. وخطرت بباله إدارة شركة الموز المهجورة، والطفل الهندي الذي عثر عليه مقتولاً فوق كومة الذرة. نعم.. ليس هناك أدنى شك في أنه مطلوب.. وأن الذي يطلبه رجل في لحظاته الأخيرة.. وإن أعجب ما في الأمر كله، أنه شعر في تلك اللحظات بالسعادة والابتهاج. فهو في الواقع لم يؤمن لحظة واحدة بهذا السلام المنتشر حوله.. حقاً لقد ظل يحلم به في سنوات المحنة، وهذا السلام - حتى الآن - لا يزال مجرد حلم..

وبدأ يصفرّ بشفتيه لحناً.. نغمة سمعها ذات مرة في مكان ما:

«لقد عثرت في حقلي على زهرة».

لقد آن له أن يفيق من الحلم.. ولم يكن في الواقع حلمًا جميلًا.. إذ كيف يمضي إلى مدينة لاس كازاس ليعترف ويتطهر وينعم بكل شيء، بينما يحرم من راحة الاعتراف رجلاً مثقلاً بالذنوب يحتضر..! وسأل المولد قائلاً:

«ألا يزال الرجل على قيد الحياة؟».

فالتمعت في عيني المولد ذي النابيين نظرة ملهوفة وهو يقول:

«أعتقد هذا».

«كم نستغرق من الوقت لنصل إليه؟».

«أربع.. أو خمس ساعات».

«يمكنك أن تتبادل مع الدليل ركوب البغلة الثانية».

وأدار الراهب خطام البغلة عائداً بعد أن شرح الأمر بإيجاز للدليل ثم طلب منه أن يترجل حتى يركب المولد بغلته، ولم يعترض الدليل على شيء، وانما قال للمولد وهو يشير إلى خرج البغلة المنبعج:
«اركب بحذر.. فإن في هذا الخرج زجاجات خمر الأب».

وعادوا في ببطء نحو منزل مس لير، وهناك، عند الباب استقبلتهم بقولها:

«لقد نسيت الشطائر يا أبي!».

فقال في غير اهتمام وهو يتلفت حوله:

«أوه.. نعم.. شكرًا.. ألا يزال المستر لير نائمًا؟!».

«هل أوقفه؟».

«لا لا.. ولكن أرجو فقط أن تشكريه نيابة عني على حسن ضيافته لي».

«سأفعل يا أبي.. وأرجو- كما قلت- أن نلتقي مرة أخرى في خلال بضع سنوات».

ثم نظرت بدهشة إلى المولد الذي رد على نظراتها بأخرى وقحة من عينيه الصفراوين. وقال الراهب مجيباً وهو يشيخ بوجهه ليخفي

بسمة غامضة:

«هذا محتمل».

«وداعًا يا أبي.. يحسن أن ترحل الآن، فإن حرارة الشمس توشك أن تشتد».

«وداعا يا عزيزتي مس لير».

وضرب المولد جوانب البغلة في صبر نافذ ليمضي بها، بينما قالت مس لير له:

«ليس هذا هو الطريق يا رجل!».

فأجابها الراهب شارحًا وهو يمضي وراء المولد في الطريق إلى القرية:

«لسوف أقوم أولاً بإحدى الزيارات».

واجتازوا في طريقهم الكنيسة ذات الجدران البيضاء، وكانت تلك أيضًا من سمات الحلم، فلم تكن الحياة الواقعية في تلك المنطقة تعترف بالكنائس، وامتد أمامهم شارع القرية الواسع غير الممهّد، وكان ناظر المدرسة جالسًا في مدخلها بنظارتة السمّكة، فلما رأى الراهب لوح يحييه متهمكًا وهو يقول بسخرية:

«مع السلامة يا أبي بغنائمك!!».

وأوقف الراهب بغلته وقال للمولد:

«حقًا.. لقد نسيت».

فعاد ناظر المدرسة يقول بلهجته التهكمية:

«لقد ظفرت بمبلغ كبير من عمليات التعميد.. إن انتظار بضع سنوات قد جاءك بربح كبير».

فقال المولد يستحثه للسير:

«يا أبي.. لا تستمع إليه.. إنه رجل شرير».

ثم بصق على الأرض.

وقال الراهب للناظر:

«إنك أدري بأحوال الناس هنا من أي إنسان.. فهل إذا تركت لك مبلغاً من المال تعدني بتوزيعه على الفقراء لشراء حاجيات لا ضرر فيها.. كالطعام والملابس.. والكتب؟».

«إنهم أحوج إلى الطعام من الكتب».

«إن معي خمسا وأربعين بيزة».

فولول المولد قائلاً:

«ماذا تنوي أن تفعل يا أبي؟».

وقال الناظر:

«أهو مال تتبرع به لراحة ضميرك؟».

«نعم...».

«أشكرك على كل حال.. وإنه لجميل أن يشاهد الإنسان راهباً له

ضمير.. إن هذا دليل على نجاح القانون الجديد».

وكان زجاج نظارته يعكس ضوء الشمس وهو يتحدث.. وكان وجهه ينم عن الحقد والمرارة وهو جالس بجسمه البدين على مدخل مدرسته ذات السقف المنحدر المصنوع من الصفيح،.. مجرد رجل منفي من الحياة..

ولما جاوزوا آخر بيت في القرية، ثم المدافن، وبدأوا في الصعود إلى سلسلة الجبال، عاد المولد يقول محتجًا:

«لماذا.. لماذا يا أبي؟!».

فقال الراهب:

«إنه ليس رجلًا شريرًا بطبعه.. إنه يحاول أن يؤدي واجبه.. وأنا في غير حاجة إلى المال بعد اليوم.. أليس كذلك؟!».

وسارا في الطريق فترة دون أن يتبدلا الحديث.. وارتفعت الشمس إلى سمت الضحى وهي ترسل ضوءها الباهر في عيونهما، وأخذت البغلتان تكدان في صعود المنحدر المكسو بالعشب، وعاد الراهب مرة أخرى يصفر بشفتيه لحن «لقد عثرت في حقلي على زهرة» وعاد المولد يقول محتجًا:

«إن المشكلة معك يا أبي هي...».

ولم يستطع أن يتم عبارته لأنه لم يجد ما يشكو منه حقًا..

وظلا في سيرهما شمالًا.. نحو الحدود.. وأخيرًا سأل الراهب المولد قائلاً:

«أشعر بالجوع؟».

وغمغم المولد بكلمات غامضة غاضبة، بينما أردف الراهب قائلاً
وهو يفيض لفافة الشطائر:
«إليك هذه الشطيرة».

* * *

الفصل الثاني

وهتف المولد أخيرًا في لهجة حادة تنم عن الفوز:

«هذا هو المكان».

وكان يتحدث بلهجة البريء الذي ظل سبع ساعات موضع الشك والريبة، وكان يشير نحو مجموعة من أكواخ الهنود الحمر، تقع وراء ساحة واسعة، فوق منطقة صخرية تشرف على هاوية عميقة.. وكان الوصول إليها يحتاج منهما إلى مسيرة ساعة من الزمن يهبطان خلالها نحو ألف متر، ثم يصعدان ألف متر أخرى..

وظل الراهب فوق بغلته برهة يحدق النظر إلى القرية من بعيد.. ولكنه لم يستطع أن يرى أية حركة تدل على وجود أحد بها.. حتى كوخ المراقبة القائم في أعلا مكان من القرية كان كما بدا له مهجورًا.. وقال وهو يشعر مرة أخرى بجو العزلة يرين عليه:

«يبدو أن هذه القرية مهجورة تمامًا».

«حسنًا.. وهل كنت تتوقع أن تجد فيها أحدًا.. غيره..؟ إنه هناك..
ولسوف تراه حالًا».

«وأيين الهنود الحمر؟».

فقال المولد بلهجته الشاكية:

«ها أنت ترتاب في أمري مرة أخرى.. إنك لا تكف عن الريبة!
كيف أستطيع أن أعرف أيين الهنود الحمر؟! لقد قلت لك إنه مختبئ
بمفرده».

وترجل الراهب عن البغلة، وهتف المولد مضطربًا يائسًا:

«ماذا أنت فاعل الآن؟».

«إننا لن نحتاج إلى البغلتين بعد الآن.. يجب أن يعودا إلى
أصحابهما».

«لن نحتاج إليهما؟! إذن كيف سنعاود الهرب من هنا؟».

«أوه.. إنني في غير حاجة للتفكير في هذا الاحتمال.. أليس
كذلك؟».

ثم قال للدليل وهو يعطيه أربعين بيزة:

«لقد استأجرتك للوصول إلى مدينة لاس كازاس.. أي لمدة ستة
أيام، وهاك أجر هذه الأيام الستة.. إنه حظك السعيد اليوم».

«ألن تحتاج إلى خدماتي بعد الآن يا أبي؟».

«لا.. وأعتقد أنه يحسن بك الانصراف عن هذا المكان بأسرع ما تستطيع».

فقال المولد مهتاجًا:

«ولكننا سنستغرق وقتًا أطول إذا سرنا على الأقدام يا أبي.. والرجل كما ذكرت لك يحتضر».

«إن في مقدورنا السير على أقدامنا بنفس سرعة البغلين».

وبعد أن أمر الدليل بالانصراف، أخذ المولد يرقب البغلين وهما تهبطان المنحدر الوعر بنظرات ملؤها الأسى والطمع.. وقد ظلت دققة حوافرهما تمزقان السكون حتى بعد أن اختفيا عن الأنظار وراء منعطف صخري..

وقال الراهب أخيرًا بنشاط:

«هلم الآن.. فليس ثمة ما يدعونا إلى التريث».

وبدأ يهبط المنحدر الضيق حاملاً غرارة صغيرة على كتفه، وكان يسمع المولد وهو يلهث وراءه بأنفاسه الكريهة.. ولعلمهم قد سمحوا له - في العاصمة - بالإسراف في شرب البيرة، وأخذ الراهب يفكر بشيء من الاحتقار والسخرية - في سلسلة الأحداث التي وقعت لكل منهما منذ التقيا أول مرة في هذه القرية التي لم يعرف حتى اسمها، لقد كان المولد راقداً فيها، بعد الظهيرة، داخل سرير معلق، وقد كشف عن إحدى ساقيه الشاحبتين، فلو أنه كان مستغرقاً في النوم حينذاك، لما وقع كل هذا الذي يحدث الآن، إنه الحظ التعس الذي اعتلى كاهل

هذا الرجل المسكين وجعله يسعى - من أجل المال - لارتكاب هذه الخطيئة الرهيبة.. خطيئة الغدر الأبدي، خطيئة الخائن يهوذا!

وأرسل الراهب خلفه نظرة سريعة رأى بها إصبعي قدم المولد مطلين من حذائه المطاط كأنهما حشرتان تسعيان. وكان الرجل ينقل قدميه في جهد وهو لا يكف عن ترديد الشكوى. وقد كانت غمغمته هذه تضاعف من شعوره بالتعب وتقطع النفس.. وفكر الراهب، يا له من مسكين.. إنه ليس شريرًا كما ينبغي.. وهو أيضًا لا يتمتع بقوة بدنية تكفي لاحتماله مشقة هذه الرحلة.. فقد كان متخلفًا عن الراهب خمسين مترًا حين بلغ هذا الأخير نهاية المنحدر، ثم استعد لصعود المرتفع المؤدي إلى القرية المهجورة.

وجلس الراهب على صخرة وأخذ يجفف العرق عن جبينه وبدأ المولد ينطلق بالشكوى قبل وصوله إلى نهاية المنحدر قائلاً:

«ليس هنا ما يدعو إلى كل هذه العجلة!».

وكان الواضح أن شعوره بالظلم نحو ضحيته يزداد كلما اقترب معه نحو مسرح الغدر.

وقال له الراهب:

«ألم تقل إن الأمريكي يحتضر؟!».

«أوه.. نعم.. نعم.. ولكن صعود روحه يستغرق فترة طويلة».

«كلما طال احتضاره كان خيرًا للجميع.. وعلى كل حال ربما كنت على صواب، لسوف أستريح هنا قليلًا».

ولكن المولد لم يلبث - كالطفل المعاند - أن أعرب عن رغبته في الإسراع، ومن ثم قال:

«إنك لا تتوسط في أفعالك.. فإما أن تسرع أكثر مما ينبغي، وإما أن تبطئ».

فقال الراهب معاتبًا:

«ألا تراني مصيبًا في أي عمل؟».

ثم أردف قائلاً في جد ومكر:

«إنهم سيسمحون لي برؤيته.. أليس كذلك؟».

«طبعًا».

ثم استدرك المولد بسرعة وقال:

«إنهم؟! إنهم؟! ماذا تعني بحديثك هذا، أنك تشكو أول الأمر من عزلة المكان، وها أنت الآن تتحدث بلهجة وصيغة الرجل الذي يعتقد بوجود أحد هنا».

ثم أردف قائلاً بصوت باكٍ:

«قد تكون رجلًا فاضلاً.. وقد تكون - بقدر ما أعلم - قديسًا.. ولكن لماذا لا تتحدث بصراحة ووضوح حتى يستطيع رجل مثلي أن يفهمك.. إن موقفك هذا يخرج الإنسان من مذهبه..!».

فأشار الراهب إلى الغرارة الصغيرة التي كان يحملها وقال:

«أترى هذه الغرارة؟ لن يستلزم الأمر أن نستمر في حملها.. إنها

ثقيلة.. وأعتقد أن قليلاً من الشراب سيفيد كلانا.. إن كلانا في حاجة إلى بعض الشجاعة.. أليس كذلك؟».

فقال المولد متسائلاً بلهفة:

«شراب يا أبي!».

ثم راح يرقب الراهب وهو يفيض إحدى الزجاجات، ولم يحول عنه نظراته وهو يراه يشرب، وبرز ناباه الأصفران إلى الخارج، وأخذ يرتعدان فوق شفته السفلى، ولما أطبق بدوره على الزجاجة في نهم، أرسل الراهب ضحكة خفيفة وهو يقول:

«أظن أن القانون يحرم شرب الخمر داخل حدود هذه الولاية.. إذا كنا قد أصبحنا داخلها فعلاً!».

ثم تناول الزجاجة وشرب منها مزيداً من الجرعات قبل أن يعيدها، ولم تلبث أن فرغت، فقذف بها على حجر فانفجرت كالقنبلة، وفزع المولد قائلاً:

«كن على حذر وإلا اعتقد الناس أن لدينا بندقية!».

فقال الراهب متجاهلاً عبارته:

«أما الباقي.. فلن نكون في حاجة إليه».

«هل تعني أن لديك زجاجات باقية من الخمر؟».

«نعم.. اثنتان.. ولكن لن نستطيع أن نشرب مزيداً من الخمر في هذا الجو الحار، ولهذا يحسن أن نتركهما هنا».

«ولماذا لم تخبرني يا أبي أن الغرارة التي تحمل فيها الزجاجات ثقيلة؛ لكي أحملها عنك. فما كان عليك إلا أن تأمر فأنفذ لك الأمر.. عن رضى.. ولكنك لا تطلب مني شيئاً».

واستأنفا الصعود إلى المرتفع مرة أخرى، وكانت الزجاجات تصلصان برفق، وأشعة الشمس تنصب رأسياً عليهما وهما يصعدان. وقد استغرق وصولهما إلى الساحة الجزء الأكبر من الساعة، وهناك، في ساحة القرية، شاهدا كوخ المراقبة يطل عليهما من عليائه كأنه الفك الأعلى لحيوان وحشي ضخم، أما بقية الأكواخ فقد بدت متناثرة على الصخور فوقهما مباشرة. ومن عادة الهنود الحمر أن يقيموا قراهم على جوانب ممرات البغال حتى يستطيعوا منها أن يشرفوا على القادم من هذه الممرات.. وتساءل الراهب في نفسه: متى سينقض رجال البوليس عليه؟ لا شك أنهم يحسنون إخفاء أنفسهم عن ناظريه..

وتقدم المولد الراهب وراح يتسلق الصخور إلى الأكواخ وهو يقول:

«من هذا الطريق يا أبي».

وكان القلق يرتسم على وجهه كأنما يخشى أن يحدث شيء قبل الموعد المتفق عليه، وكان عدد الأكواخ لا يتجاوز اثني عشر كوفاً، قائمة على الصخور كأنها المقابر.. وكان الجو ينذر بعاصفة مقبلة..

وأحس الراهب بالتوتر العصبي الناشئ عن نفاد الصبر.. لقد سار بنفسه إلى هذه المصيدة، وأن كل ما في مقدورهم أن يفعلوه هو أن

يغلقوا عليه باب المصيدة وينتهوا من أمره بسرعة.. وأخذ يتساءل:
تري هل سيطلقون الرصاص عليه من أحد الأكواخ؟ لقد وصل إلى
حافة الزمن.. وعما قليل لن يكون له غد، ولا أمس وإنما هو وجود
دائم إلى الأبد.. وتمنى فجأة لو أنه شرب مزيداً من الخمر، وتهدج
صوته في اضطراب وهو يقول:

«حسنًا.. ها نحن قد وصلنا.. أين الأمريكي؟».

وقال المولد وكأنما فوجئ بالسؤال:

«آه.. الأمريكي».

وكانما نسي في تلك اللحظة هذا الادعاء.. وظل واقفاً فاغراً فاه
ينظر إلى الأكواخ في تساؤل، ثم قال:
«لقد كان هنا عندما تركته!».

«حسنًا.. إنه لا يستطيع الحركة.. أليس كذلك؟».

وخطر له أنه لو لم يقرأ الرسالة القصيرة لشك في وجود الأمريكي
على ظهر هذه الأرض.. ولكنه رأى أيضًا الطفل القليل!! وبدأ يسير
عبر الساحة الصغيرة نحو أحد الأكواخ.. ترى هل سيطلقون النار عليه
قبل أن يبلغ مدخله، لقد كان يسير كأنه معصوب العينين، فهو لا يعرف
متى سيسقط في هاوية اللانهاية. وسعل مرة واحدة وعقد يديه وراء
ظهره حتى يمنعهما من الارتعاد. وتذكر أنه شعر بالسرور وهو ينطلق
بعيداً عن منزل مس لير في الطريق إلى هنا.. فقد كان لا يؤمن البتة
بأنه سيعود مرة أخرى إلى عمله الكهنوتي، وإلى إقامة القداس اليومي،

وإلى مظاهر التقوى والتدين. ورغم هذا فقد شعر أنه في حاجة إلى قليل من الخمر ليفقد بعض وعيه قبل الموت.. وبلغ الباب والسكون مخيم حوله في كل مكان. وفجأة سمع صوتًا يقول في خفوت: «أبي».

فتلفت حوله حيث رأى المولد مربدّ الوجه في الرحبة.. وكان ناباه يتراقصان فوق شفته بعنف، فقال له الراهب: «ماذا تريد؟».

«لا شيء يا أبي».

«إذن لماذا ناديتني؟».

فقال كاذبًا:

«أنا لم أنطق بحرف».

واستدار الراهب ودخل الكوخ، وهناك، في داخله، رأى الأمريكي الهارب، ولكنه لم يدر إن كان ميتًا أم على قيد الحياة لم يزل. فقد رآه راقدًا على قطعة من الحصير مغلق العينين، مفتوح الفم، واضعًا يديه على بطنه كما يفعل الطفل حين يشعر بالألم في هذا الجزء من جسمه. ولم يكن ثمة شك في أن الألم قد غير سمات وجهه، أو لعل حياة الجريمة قد وضعت طابعها الزائف - كالسياسة والتظاهر بالتقوى - على سمات ذلك الوجه. فقد كان بعيد الشبه عن صورة ذلك الوجه المعلقة على جدار غرفة ضابط البوليس إذ كان وجه الصورة قوي الملامح، متعجرفًا، كأنه وجه رجل ناجح في الحياة، أما هذا الراقد

أمامه في الكوخ، فإن له وجه متسول. لقد كشف الألم عن الأعصاب وأضفى على الوجه لوناً من الذكاء الكاذب.

وركع الراهب وأدنى وجهه من شفتي الرجل المسبجي وحاول أن ينصت إلى حسيس أنفاسه، وانساب إلى أنفه مزيج من رائحة قيء وتبغ سيجار وخمر رخيصة. وكان الأمر يحتاج إلى مجموعة من الزهور العاطرة للتغلب على هذه الرائحة التي انساب معها صوت خافت هامس يقول بالإنجليزية:

«أسرع بالهرب يا أبي».

وفي خارج الكوخ، في ضوء النهار العاصف، كان الولد واقفاً ينظر إلى المدخل وهو يشعر بخلخلة في ركبتيه!

وقال الراهب في اهتمام:

«إذن فأنت على قيد الحياة.. يحسن بك أن تسرع بالاعتراف، فليس لدينا أي وقت!».

«أسرع بالهرب يا أبي».

«إنك تريدني.. أليس كذلك؟ ألسنت كاثوليكي المذهب؟».

وعاد الرجل المحتضر يهمس بهذه الكلمات التي كأنه لا يعرف غيرها من درس تعلمه منذ أمد بعيد:

«أسرع بالهرب يا أبي».

«هلم الآن.. كم مضى عليك من الوقت منذ اعترفت آخر مرة؟».

وارتعدت أجفان الأمريكي وهو يفتح عينيه وينظر في دهشة بالغة إلى الراهب ثم يقول بصوت كله العجب:
«عشر سنوات.. تقريباً.. ولكن ماذا تفعل أنت هنا على كل حال؟».

«لقد طلبت حضور أحد رجال الدين.. هلم الآن.. إن عشر سنوات وقت طويل جداً».

فعاد المحتضر يقول وكأنما تذكر كلمات الدرس المحفوظة:
«عليك أن تسارع بالهرب يا أبي».

وظل راقداً على الحصير ويداه فوق بطنه، وكانت كل الحيوية المتبقية فيه مركزة في ذهنه، وكأنه حيوان زاحف مات طرف منه وبقي الطرف الآخر حياً. وعاد يقول بصوت عجيب:
«ذلك اللعين».

فقال الراهب بغضب:

«ما هذا الذي تقول؟ لقد تحملت مشاق الرحلة خمس ساعات لأصل إليك.. فإذا كل ما أسمع منك هذه الكلمات البذيئة!..».

وأحس الراهب بظلم القدر له، إذ جعله يغامر بحياته ليأتي إلى هذه المنطقة، ثم إذا هو يتبين أنه غير ذي نفع لرجل من هذا النوع.

وعاد الرجل المحتضر يقول:

«أنصت إليّ يا أبي...».

«إني منصت».

«يجب أن تهرب بسرعة من هنا، فإني لا أعلم متى...».

«إني لم أقطع هذه المسافة الطويلة إلى هنا لأهتم بأمر نفسي.
وكلما أسرعت بالاعتراف، أتيحت لي فرصة العودة سريعاً...».

«لا داعي لأن تهتم بأمرى.. فإني قد انتهيت».

فقال الراهب بغضب:

«أتعني أنك ستموت ملعوناً؟!».

فقال الرجل وهو يلحق الدماء من شفثيه:

«نعم.. ملعوناً».

فازداد الراهب انحناء على أنفاس المحتضر الكريهة وهو يقول:

«أنصت إليّ.. لقد جئت إلى هنا لأسمع اعترافاتك.. فهل تريد أن
تعترف؟».

«لا».

«هل أنت الذي كتبت على قصاصة الورق كلمتي: أناشدك

الله..؟».

«ربما».

«إني أعرف ماذا تريد أن تقول لي.. إني أعرف.. هل تفهم..
دعك من هذا الآن واذكر أنك تحتضر.. لا تتواكل كثيراً على رحمة
الله، فإن الله قد أتاح لك هذه الفرصة للاعتراف.. ومن المحتمل ألا

يتيح لك فرصة أخرى.. ما نوع هذه الحياة التي كنت تحياها طوال هذه السنين؟ أتراها الآن حياة رائعة؟ لقد قتلت عددًا كبيرًا من الناس.. هذا هو كل ما فعلته في حياتك.. وكل إنسان يستطيع أن يفعل هذا زمنًا، ثم يقتل بدوره.. كما قتلت أنت الآن.. وهكذا لم يبق من حياتك كلها شيء غير الآلام».

«أبي».

«نعم».

ثم تنفس الراهب بعمق وضيق صدر، وازداد اقترابًا من المحتضر وقد خامره الأمل بأنه استطاع أخيرًا أن يغريه بالاعتراف ولو بشيء قليل من آثامه. ولكن الرجل فاجأه بقوله:

«خذ مسدسي يا أبي.. هل تفهم ما أعني؟ إن المسدس تحت ذراعي».

«إنني في غير حاجة لاستعمال المسدس».

«لا.. لا، إنك أحوج ما تكون إليه».

ثم رفع إحدى يديه عن بطنه وأخذ يحركها ببطء وبألم شديد جعل الراهب يشيح بوجهه من فرط الحزن. وأخيرًا قال له بحدة:

«اهدأ.. إن المسدس غير موجود في جرابه».

وكان قد رأى الجراب تحت ذراع المحتضر فارغًا، مما جعله يؤمن بأن ثمة أشخاصًا آخرين موجودين بالقرية غيره وغير الأمريكي المحتضر والرجل المولد.

وغمغم المحتضر قائلاً:

«الملاعين!».

ثم ترك يده تهوي حيث كانت، فوق قلبه، ومن ثم أصبح يشبه إلى حد ما تمثالاً نسوياً وقد وضع يداً على قلبه، والأخرى على بطنه، وكان الجو شديد الحرارة داخل الكوخ. وكانت رهبة العاصفة المقبلة تنتشر فوقهم..

«أنصت إليّ يا أبي».

وجلس الراهب- في غير أمل- بجانب الرجل.. فقد أدرك أنه لا شيء يمكنه تحويل تفكيره العنيف نحو السلام.. ولعله، في ذات لحظة، قد حاول أن يتطهر، حين كتب الرسالة، ولكنها كانت بارقة لم تلبث أن اختفت.. وأنه الآن يهمس بكلمات حول سكين.. والمعروف أن بعض المجرمين يعتقدون أن عيني المتوفي تسجلان على حدقتيهما آخر شيء كان أمامهما. وعلى هذا الأساس يعتقد بعض المؤمنين أن الروح في اللحظات الأخيرة قد تنعم بالتوبة والسلام بعد حياة حافلة بالإثم والخطيئة. وفي بعض الأحيان تحرم الروح من هذه الفرصة عندما يموت الرجل المتدين فجأة وهو في ماخور! وبذلك تمضي الروح بعد حياة فاضلة طاهرة وهي محملة بوزر آخر شيء كانت فيه مع الجسم أثناء الحياة.. وقد سمع الراهب كثيراً من الناس يناقشون جدوى الاعتراف والتوبة في ساعة الموت.. يقولون إنه من الظلم أن يعيش الإنسان حياة حافلة بالخطيئة والإثم، ثم يموت نقياً مطهراً لأنه اعترف بآثامه حين حضرته الوفاة، بينما يموت غيره محملاً بالأوزار

لأنه لم تسنح له فرصة الاعتراف ساعة الموت رغم حياته التي قضاها
نقيًا نقيًا؟!

وشرع الراهب يبذل مع المحتضر محاولة أخيرة:

«لقد آمنت يومًا.. حاول أن تدرك الوضع الذي أنت فيه.. هذه آخر
فرصة لآخر لحظة من حياتك.. لقد قتلت رجالًا..».

ثم أضاف وهو يذكر الطفل الهندي الذي رآه مقتولاً على كومة
الذرة:

«وربما أطفالاً.. ولكن ليس لهذا كله أهمية كبيرة.. إن هذه
الخطايا تتعلق بهذه الحياة الدنيا.. أي بعدد من السنين.. وقد انتهت
الآن.. يمكنك أن تتخلص الآن من حياتك الدنيا كلها، بما فيها من
شروع، في هذا الكوخ، ثم تمضي إلى الأبدية نقيًا طاهرًا».

وشعر الراهب بشيء من الحزن واللهفة وهو يذكر في غموض،
ألواناً من الحياة لم يستطع هو أن يحياها.. ألواناً تصورها هذه الكلمات:
السلام.. والمجد.. والحب.. وسمع المحتضر يقول له ملهوفًا:

«أبي.. دعني وشأني.. انقذ نفسك من الخطر.. هذه سكينتي».

ثم بدأت يده تتحرك بذلك البطء الأليم نحو ردفه هذه المرة،
وارتفعت الركبتان قليلاً وهو يحاول أن يميل على أحد جنبيه، وفجأة
همد الجسم.. وسكنت حركته.

وأسرع الراهب يهمس بعبارات الغفران آملاً في أن يتيح للروح،
لمدة لحظة خاطفة، أن تنعم بالتوبة قبل أن تجتاز الحد الفاصل بين

حياة فانية وأخرى باقية. ولكنه كان يرجح أن الروح ستمضي محملة
بوزر الحركة الأخيرة.. حركة البحث عن السكين والرغبة في العنف.
وقال الراهب في دعائه: «يا إلهي الرحيم.. إنه رغم كل شيء كان
يفكر في أمري.. كان يريد إنقاذي».

ولكنه كان يبتهل وهو غير معتقد بأن الله سيتقبل دعواته؛ فقد كان
يرى أن الأمر كله ما هو إلا محاولة مجرم لإنقاذ مجرم آخر.. وعلى أي
وجه نظرت إلى الأمر، فإنك لن تجد في كل وجه فضلاً كبيراً..



الفصل الثالث

وارتفع في داخل الكوخ صوت يقول:

«حسنًا.. هل فرغت الآن؟».

ونهض الراهب وأوماً بالإيجاب في شيء من الفرع؛ فقد رأى في مدخل الكوخ ذلك الضابط الذي منحه بعض المال في السجن... هو بعينه في سمرته وحسن سمته ووميض العاصفة ينعكس على تزلكه، وكانت إحدى يديه على مقبض مسدسه وهو ينظر متجهماً إلى المجرم القتل.. وأخيراً قال:

«لم تكن تتوقع أن تراني؟».

«بل كنت أتوقع.. ويجب أن أشكر لك؟».

«تشكر لي؟ لماذا؟».

«لأنك سمحت لي بالبقاء على انفراد.. معه».

«إنني لست همجياً.. هل تسمح الآن بالخروج؟ فلم يكن ثمة جدوى في محاولتك للهرب.. كما ترى بنفسك الآن».

وغادر الراهب الكوخ حيث رأى نحو عشرة رجال مسلحين يحاصرون المكان، ومن ثم قال:

«لقد بذلت ما فيه الكفاية لمحاولة الهرب».

ولم يكن ثمة أثر للرجل المولد ذي النابين.. وكانت السحب الثقالة تتجمع في السماء، وتجعل جبال الأرض تبدو كأنها دمي أطفال مضيئة تحتها.. وقال وهو يتنهد ثم يضحك بعصبية:

«أية مشقة تحملتها في عبور هذه الجبال.. والآن.. ها أنذا».

«لم أكن أصدق أنك ستعود.. أبداً».

«أوه.. حسناً.. إنك تعرف السبب أيها الضابط.. حتى الجبان لا يخلو من الشعور بالواجب».

وشعر على وجهه بلمسات من هذا الهواء النقي البارد الذي يهب عادة قبيل العاصفة، ثم قال وهو يحاول أن يتكلف الهدوء:

«هل ستطلقون الرصاص عليّ الآن؟».

فقال الضابط في حدة:

«إنني لست همجياً.. لسوف نقدمك لمحاكمة عادلة».

«بأية تهمة؟».

«الخيانة».

«هل سأحتاج إلى قطع كل هذه المسافة للعودة معكم إلى

العاصمة».

«نعم.. ما لم تحاول الهرب».

وكان يتحدث ويده على مقبض المسدس كأنما يخشى أن يفر
الراهب من بين أصابعه في أية لحظة، ثم عاد يقول:
«أستطيع أن أقسم أنني في مكان ما...».

«رأيتني مرتين.. نعم.. عندما أخذت أحد الرهائن من قريتي وقد
سألت هناك ابنتي الطفلة: من هذا الرجل؟ فأجبتك قائلة: إنه أبي.
ومن ثم أفلت منك».

وفجأة غابت الجبال عن أنظار الجميع، كأنما ألقى أحدهم في
وجوههم فيضاً من المال. وهتف الضابط للراهب:
«هلم أسرع إلى الكوخ».

ثم التفت إلى أحد رجاله وأردف قائلاً:

«ائت لنا ببعض الصناديق لنجلس عليها».

ودخل الرجلان إلى الكوخ، حيث جثة المجرم القتل، وانطلقت
العاصفة، حولهما عاتية ممطرة، وأقبل أحد رجال البوليس حاملاً
صندوقين والمطر يتساقط من ملابسه، فقال له الضابط:
«أحضر شمعة».

ثم جلس على أحد الصندوقين ويده لا تفارق مقبض المسدس،
وقال للراهب:

«اجلس أنت.. بعيداً عن الباب.. حيث يتسنى لي أن أراقبك».

وأحضر الشرطي الشمعة وأوقدها ثم ثبتها- بجزء من دهنها الذائب- على أرض الكوخ الصلبة. وجلس الراهب بالقرب من جثة المجرم الذي مات وهو في وضع من يريد استخراج السكين من جيبه الخلفي.. وقد جعله هذا الوضع بالنسبة للراهب الجالس بجانبه في هيئة رجل يريد أن يسر إلى صديق له بأمر خطير. وكأنما الاثنان: الراهب والمجرم القتيل، يتيمان لطبقة واحدة: فكل منهما قدر.. غير حليق. أما الضابط فقد بدا كأنه ينتمي إلى طبقة أخرى.. أعلى.

وقال الضابط في ازدراء:

«إذن.. فإن لك ابنة؟».

«أجل».

«مع أنك.. راهب!».

«لا تظن أن كل الرهبان.. مثلي».

ثم أردف قائلاً وهو يرى ضوء الشمعة يتراقص على أزرار سترة الضابط اللامعة:

«هناك رهبان أخيار.. ورهبان أشرار.. وأنا واحد من الأشرار».

«كأننا بإعدامك نؤدي خدمة للكنيسة؟».

«نعم..».

فرفع الضابط وجهه بسرعة كأنما خشي أن يكون الراهب يسخر منه، ثم قال:

«... المرة الثانية...».

«نعم.. المرة الثانية كنت في السجن.. وقد منحني أنت بعض المال».

فقال الضابط بغضب شديد:

«إنني أتذكر هذا.. يا لقسوة السخرية.. أأكون بين يدي، ثم أدعك تفلت مني؟ لماذا؟ لقد فقدنا رجلين من رجالنا ونحن نبحث عنك.. كان من الممكن أن يكونا الآن من الأحياء لو أنني فطنت إليك».

وبدأت الشمعة تنثر لسقوط قطرات من المطر عليها من خلال ثغرات السقف، بينما عاد الضابط يقول وهو ينظر إلى جثة المجرم:

«إن هذا الأمريكي لا يستحق أن يُضحى من أجله برجلين.. إنه لم يكن يرتكب أضرارًا حقيقية...».

وظل المطر ينهمر بغير انقطاع.. وخيم الصمت عليهما، ثم قطعه الضابط فجأة بقوله:

«ابعد يدك عن جيبك».

«إنني أبحث فقط عن مجموعة من ورق اللعب.. لعلك تريد أن تضيع الوقت بالتسلية».

فقال الضابط بخشونة:

«إنني لا ألعب الورق».

«ليس في الأمر لعب.. وإنما هي بعض ألعاب التسلية اللطيفة التي أحذقها.. أتحب أن أطلعك عليها؟».

«حسنًا.. إذا أردت».

وكان المستر لير قد أعطى الراهب مجموعة قديمة من أوراق اللعب، ومن ثم قال:

«هنا.. كما ترى.. ثلاث ورقات.. الآس.. والملك.. والولد».

ثم وضع الورقات الثلاثة مقلوبة على الأرض بشكل المروحة وأردف قائلاً:

«والآن.. قل لي.. أين الآس؟».

فأشار الضابط إلى إحدى الورقات الثلاث، وقال متغصباً في غير اهتمام:

«هذا طبعاً...».

فأدارها الراهب قائلاً:

«لقد أخطأت.. إنها الولد!».

فقال الضابط باحتقار:

«إنها لعبة مقامرين.. أو أطفال».

«حسنًا.. هناك لعبة أخرى اسمها: اهرب يا ولد.. وسوف أقسم

المجموعة كما ترى إلى ثلاثة أقسام. وسوف أضع الولد الديناري في القسم الأوسط، هكذا، والآن.. سأنقر بأصبعي على الأقسام الثلاثة».

وكان وجهه. وهو يتحدث.. مشرقاً بالسرور.. فقد مضى عليه

وقت طويل لم يمسك فيه أوراق اللعب، وفي غمرة الانفعال الموقوت، نسي العاصفة، وجثة الأمريكي بجانبه، والوجه الصارم أمامه. ونقر

على القسم الأوسط قائلاً:

«اهرب يا ولد!».

ثم تناول القسم الأيسر من مجموعة الأوراق وجعله نصفين وأخرج منه الولد الديناري، قائلاً:
«ها هو ذا!».

«لا شك أن في مجموعة الورق ولدين من هذا النوع!».

«يمكنك أن تتحقق بنفسك».

فانحنى الضابط وحاول عبثاً أن يعثر على «ولد ديناري» آخر في المجموعة كلها، وأخيراً قال:

«لعلك تزعم للهنود الحمر أن ما تفعله هذا إحدى المعجزات؟».

فأرسل الراهب ضحكة خفيفة وهو يقول:

«لا.. لا.. لقد تعلمت هذه الخدعة من أحد الهنود الحمر.. وكان أغنى رجل في قريته.. ولا عجب.. ما دامت له هذه اليد الخفيفة!! وقد تعودت أن أقوم بمثل هذه الألعاب الورقية لتسلية الضيوف في بعض الحفلات الدينية التي كانت تقام، كما تعرف، في العهد الماضي..».

فقال الضابط وقد ارتسمت على وجهه أمارات الازدراء الشديد:

«إنني أذكر هذه الحفلات».

«عندما كنت صبيّاً؟».

«كنت في سن تسمح لي بإدراك ما يجري أمامي».

«نعم».

«الخداع».

وقطع حديثه فجأة وهو أشد ما يكون غضبًا، ووضع يده على مقبض مسدسه كأنما خطر له أن يطلق النار على هذا «الوحش» الجالس أمامه وينتهي من أمره نهائيًا.

واستطرد يقول:

«بأي عذر يمكن أن تبرروا خداعكم.. وزيفكم.. تجمعون التبرعات، وتعطون الفقراء؟ أليس هذا هو الدرس؟ أليس كذلك؟ ثم تأتي السنيورة فلانة- زوجة الصيدلي- وعضو الجمعية، وتقرر أن هذه الأسرة ليست فقيرة إلى حد استحقاقها الإعانة، ويأتي السنيور فلان أو فلانة، ويقول إن هؤلاء الفقراء جديرون بالموت جوعًا لأنهم شيوعيون، وأنت، أيها الراهب، تجعل عينك دائمًا على من يؤدي واجباته الدينية ومن يدفع التبرعات باسم الدين».

وارتفع صوته إلى حد جعل أحد رجال البوليس ينظر إلى داخل الكوخ في قلق، ثم ينسحب مرة أخرى تحت وابل الأمطار، بينما أردف الضابط قائلاً:

«ولا يكف الواحد منكم عن الصباح قائلاً: إن الكنيسة فقيرة.. وراعيها فقير.. وهكذا تتحول جميع التبرعات إلى صندوق الكنيسة».

فقال الراهب:

«إنك على صواب».

ثم أضاف بسرعة:

«وعلى خطأ أيضًا.. طبعًا».

فتساءل الضابط بعنف:

«ماذا تعني؟ على صواب؟ ألا تحاول أن تدافع؟».

«لقد شعرت ذات مرة أنك رجل طيب.. وذلك عندما أعطيتني بعض المال وأنا في السجن».

«أيًا كان الأمر، فإنني أتبادل معك الحديث لأنك الآن فاقد الأمل.. ليس لك أي أمل البتة.. ومهما تقل، فلن يغير قولك من الأمر شيئًا».

«مطلقًا؟».

ولم يكن الراهب راغبًا في إغضاب الضابط، ولكن الفرصة لم تكن سانحة له خلال السنوات الثماني الأخيرة لأن يتبادل الحديث مع أحد غير الريفين والهنود الحمر. ويبدو أن شيئًا ما في نبرات صوته كانت تثير أشد الغضب في صدر الضابط الذي راح يقول:

«إنك شديد الخطر.. وهذا هو السبب في رغبتنا لقتلك.. فليس بيني وبينك شخصيًا حرب. فهل تفهم هذه الحقيقة.. كرجل!».

«نعم.. نعم.. أفهم.. إنك لا تحاربني.. وإنما أنت تحارب الله.. أما أنا، فلست إلا مجرد شخص يمكنك أن تسجنه في الليل، وأن تعطيه منحة في الصباح».

«لا.. إنني لا أحارب.. وهما».

«ولكنني جدير بالمحاربة؟ أليس كذلك.. لقد قلت هذا بنفسك.. قلت إنني كاذب.. وسكير».

فقال الضابط والعرق يتفصد من جبينه بسبب حرارة الجو الرطب
داخل الكوخ:

«إنني أحارب آراءك.. فأنتم، يا رجال الدين، خبثاء ماكرون..
ولكن أخبرني ماذا فعلتم في المكسيك من أجلنا.. هل طلبتم يومًا من
أحد ملاك الأراضي أن يكف عن ضرب عماله؟ آه.. نعم، لعلكم طلبتم
منه هذا عند الاعتراف، ومن واجبك، أليس كذلك، أن تنسوا فورًا ما
يقوله المعترف لكم وما تقولونه له؟ فأنتم تذهبون- بعد الاعتراف-
مع المالك لتتناولوا معه طعام الغداء رغم أنه قد يكون اعترف لكم بأنه
قتل أحد الفلاحين.. ولكن اعترافه هذا لا يقلل من مكانته عندكم فقد
ترك مع الاعتراف مبلغًا من المال في صناديقكم.. أليس كذلك؟»
«استمر في حديثك».

قالها الراهب وهو جالس على الصندوق ويداه فوق ركبتيه ورأسه
مطرقه، ولم يكن قادرًا- رغم محاولته- أن يركز انتباهه لما يقول
الضابط؛ فقد كان ذهنه مشغولًا بتفكير آخر.. إن الرحلة إلى العاصمة
تستغرق ٤٨ ساعة، ونحن الآن في يوم الأحد.. ومن المحتمل أن أكون
ميتًا يوم الأربعاء.. وخطر له أنه من الخيانة أن يكون خوفه من آلام
الطلقات النارية أشد من خوفه مما سيأتي بعد ذلك.. وكان الضابط
مستمرًا في حديثه قائلاً:

«حسنًا.. إن لنا أيضًا آراءنا.. لنا نسمح ببذل المال للصلاة.. ولن
نسمح بإضاعة المال لبناء أماكن للصلاة.. وإنما نبذل المال لإطعام
الناس وتعليمهم القراءة وتزويدهم بالكتب.. وتجنبيهم العذاب في

الدنيا».

«ولكن.. ماذا لو أنهم يريدون أن يتعذبوا؟».

«إذا أراد رجل أن يغتصب امرأة فهل نسمح له لأنه يريد هذا؟ إن العذاب لون من الظلم».

فقال الراهب وهو يحدق في وجه الضابط المنحدر من أصل هندي أحمر:

«ومع ذلك فإنكم تكابدون في الحياة وتتعذبون.. إن حديثك يبدو في ظاهره منطقيًا، فهل هذا هو رأي مدير البوليس أيضًا؟».

«أوه.. إن لدينا بعض الشواذ الذين لا تتفق آراؤهم معنا».

«حسنًا.. وماذا بعد ذلك.. بعد أن يظفر كل إنسان بنصيبه الوافي من الطعام وبالكتب المناسبة.. أعني الكتب التي تسمحون له بقراءتها؟».

«لا شيء.. فالموت حقيقة.. ونحن لا نحاول أن نغير من الحقائق».

فقال الراهب وهو يعبث بمجموعة أوراق اللعب بتكاسل:

«إننا إذن متفقون في مواضع كثيرة.. فنحن لدينا أيضًا حقائق لا نحاول أن نغيرها: ومن هذه الحقائق أن الإنسان شقي في هذا العالم سواء كان غنيًا أو فقيرًا.. إلا إذا كان قديسًا.. وما أقل هؤلاء.. ولهذا فليس بالشيء الكثير أن يحتمل الإنسان بعض الألم في هذه الدنيا.. ونحن متفقون معًا على أن الموت حقيقة.. وأنا جميعًا سنكون موتى في خلال مائة عام..».

وتوقف برهة عن الحديث، وراح يخلط أوراق اللعب وهو يحاول السيطرة على يديه المرتعدتين.. وقد قال الضابط في خبث وهو يرى ارتعاد أصابعه:

«ومع هذا كله فأنت مهموم بسبب ما ستلقاه من ألم».

«لأنني لست قديسًا.. بل إنني لست - على الأقل - رجلًا شجاعًا».

ورفع وجهه في توجس.. وكان ضوء الشمس قد بدأ يعود بعد احتجاب حتى لم يعد ثمة حاجة لضوء الشمعة داخل الكوخ. ولن يلبث الجو أن يصفو ويصلح لبدء الرحلة إلى العاصمة، وأحس الراهب برغبة الاستمرار في الحديث كي يؤجل، ولو لبضع دقائق، قرار البدء في الرحيل. ومن ثم قال:

«هذا أحد خلافات الرأي بيننا.. فما فائدة العمل لتحقيق أهدافك إذا لم تكن أنت صالحًا لتحقيقها. ولن تجد دائمًا في جماعتك رجالًا صالحين لمعاونتك، ومن ثم سوف تجد نفسك مرة أخرى في الحلقة المفرغة.. حلقة الفقر.. وضرب العمال الزراعيين والجري وراء الثراء بكل وسيلة.. أما في حالتي أنا فليس من المهم في كثير أو قليل أن أكون جبانًا - أو ما إلى هذا - ما دام في مقدوري أن أثبت الإيمان بالله في قلوب الناس وأحمل إليهم عفوه وغفرانه. ولن يغير من هذه الحقيقة شيء، حتى لو كان كل رجال الكنيسة على شاكلي».

«وهذا شيء آخر لا أجد له تعليقًا.. فلماذا أنت - دونهم جميعًا - الذي أصررت على البقاء بعد فرار زملائك كلهم؟».

«افهم - جميعاً - لم يفروا.. فقد أثر الكثيرون الاستشهاد».

«ولكن لماذا بقيت أنت؟».

«لقد ألقيت على نفسي هذا السؤال مرة. والحقيقة أن الإنسان عادة لا يجد أمامه فجأة طريقين: أحدهما خير، والآخر شر. وإنما المعتاد أن يجد نفسه في مأزق، ففي العام الأول للقوانين الجديدة، لم أكن أعتقد أن هناك سبباً كبيراً يدعو للهرب، فلم تكن هذه أول مرة تدمر فيها الكنائس، كما تعلم، وكانت هذه المحاولات للقضاء على الإيمان لا تنتهي عادة إلى شيء.. ولذلك رأيت أن أنتظر حتى الشهر التالي لأرى كيف تتطور الأمور، ثم.. أوه.. أنت تعرف كيف تتلاحق الأيام سريعاً».

وكان الجو، في تلك الآونة، قد صفا وأشرقت شمس ما بعد الظهيرة عقب انقطاع المطر، وكان على الحياة أن تستأنف الحركة والنشاط.. ومرة أحد رجال البوليس أمام الكوخ وألقى نظرة فضول على الاثنين: الضابط والراهب الذي كان يقول في تلك اللحظة:

«هل تعلم أنني اكتشفت أنني الراهب الوحيد الباقي في هذه المنطقة الواسعة، إن القانون الذي يحتم على الرهبان الزواج جعلهم يفرون.. وحسناً فعلوا.. وكان بينهم زميل طالما استهجن تصرفاتي، فإن لي - كما تعلم - لساناً ذرياً لا يكف عن الحركة.. وكان يقول - وله الحق - إنني ضعيف الأخلاق، وقد هرب مع الهاربين. وعندئذ شعرت أنا - ولعلك ستضحك - بنفس شعوري عندما رأيت وأنا تلميذ - مدرساً - كان قاسياً علينا، يُفصل من المدرسة لكبر سنه. وكما ترى، لم أعد

أحفل في قليل أو كثير بآراء غيري. ولم يكن يزعجني رأي عامة الناس فيّ. فإنهم، كما رأيت، يحبونني..».

ثم ابتسم في شحوب وهو يومئ نحو الأمريكي الميت..
وقال الضابط في اكتئاب وتفكير:

«استمر في الحديث».

فأرسل الراهب ضحكة خفيفة وقال:

«على هذا المعدل من الحديث سوف تعرف عني كل ما تريد أن تعرفه حتى تصل إلى، حسنًا، إلى السجن..».

«ليس ثمة بأس في أن يعرف الإنسان حقيقة عدوه!».

«لقد كان ذلك الراهب مصيبًا في رأيه عني - ذلك أن أخلاقي الضعيفة أخذت تنهار عقب فراره.. شيئًا فشيئًا.. أولاً أخذت أهمل في واجباتي الدينية، ثم بدأت أسرف في شرب الخمر.. وأعتقد أنه كان الأفضل لي أن أهرب أيضًا مع الهاربين؛ لأن الذي أبقاني هنا لم يكن غير الكبرياء.. لا حب لله..».

وظل جالسًا مطرق الرأس على الصندوق الخشبي، بجسمه القصير الممتلئ، وبملابسه المستعارة من المستر لير. وعاد يقول:

«إن الكبرياء هي سبب سقوط الملائكة.. إنها ألعن شيء في الدنيا.. فقد خطر لي أنني رجل عظيم ببقائي هنا بعد فرار زملائي.. ثم استبد بي شعور العظمة إلى حد جعلني أعتقد أن في إمكاني وضع قواعد ونظم تتفق مع رغباتي.. فأقلعت عن الصيام، وأهملت القداس

اليومي، والدعاء والصلاة، وفي ذات يوم، عندما كنت مخموراً مهجوراً من الجميع، أنجبت طفلة غير شرعية.. وأنت تعرف كيف حدث هذا.. كل هذا نتج عن الكبرياء.. الكبرياء الناشئة من بقائي هنا بعد فرار زملائي، ورغم أنني لم أكن ذا نفع لأحد، فقد بقيت.. نعم.. لم أكن - على الأقل - ذا نفع كبير.. فإني لم أستطع أن أضم مائة شخص إلى مذهبي كل شهر، ولو أنني فررت؛ لاستطعت أن أضم أضعاف أضعاف هذا العدد كل شهر.. إنها أحد الأخطاء التي يقع فيها الإنسان.. عندما يظن أن الثواب يتوقف على مبلغ ما يتعرض له من الأخطار والمصاعب في نشر دعوته».

فقال الضابط في غضب نائر:

«حسناً.. لسوف تصبح بعد موتك شهيداً.. وهذا هو عزاءك..».

«أوه.. لا.. إن القديسين والشهداء ليسوا مثلي.. إنهم لا يستغرقون في التفكير طول الوقت.. ولو أنني شربت مزيداً من البراندي لما شعرت الآن بأي خوف».

وصاح الضابط بحدة مخاطباً أحد رجاله الواقفين في مدخل الكوخ:

«حسناً.. ماذا تريد.. لماذا تتلصق بالباب هكذا؟».

«لقد هدأت العاصفة.. ونحن نسأل متى سنبداً رحلة العودة؟».

«سنبداً فوراً».

ثم نهض وأعاد المسدس إلى الجراب، وقال:

«أعدوا جوادًا للمقبوض عليه. وليحفر بعضكم قبرًا لهذا الأمريكي.. بسرعة».

ووضع الراهب أوراق اللعب في جيبه ونهض قائلاً للضابط:
«لقد كنت واسع الصدر وأنت تنصت إلى حديثي».
«إنني لا أشعر بالحزن من آراء غيري».

وكان البخار، خارج الكوخ، يتصاعد من الأرض، كالضباب بعد توقف الأمطار، حتى كاد يبلغ الركب، وكانت الجياد معدة للرحلة، فركب الراهب أحدها، ثم إذا هو يسمع، قبل أن يتحرك الركب، صوتًا جعله يلتفت وراءه.. فقد كانت نبرات الصوت هي، نفسها النبرات التي تجمع بين الذلة والتحدي! إنها نبرات صوت الرجل المولد ذي النابيين وهو يقول:
«أبي».

«حسنًا.. حسنًا.. أهذا أنت مرة أخرى؟».

«أوه.. إنني أعرف رأيك عني.. إنه رأي خال من المحبة والود، فقد كنت تعتقد دائمًا أنني سأغدر بك».

فقال الضابط له في صوت حاد:

«اذهب إلى سبيلك.. فقد أديت عملك».

فقال الراهب للضابط:

«هل تسمح لي بكلمة واحدة؟».

فأسرع المولد يقول مقاطعًا:

«إنك يا أبي رجل فاضل، ولكن الناس جميعاً في نظرك أشرار..
إنني أريد فقط أن تباركني.. هذا هو كل شيء»..
«وما فائدة البركة التي سأمنحك إياها؟ إنك لا تستطيع أن تبيعها»..
«أريد أن تباركني لأننا لن نلتقي مرة أخرى، ولست أبغي أن تمضي
وأنت غاضب علي»..

«لشد ما تتعلق بالأوهام والخرافات.. أعتقد أن بركتي لك
ستحجب عين الله عنك؟ إنني لا أستطيع أن أمنع الله من أن يعرف
عنك كل شيء.. وخير لك أن تعود إلى بيتك وتصلي.. فإذا شعرت
بلواذع الحزن والندم، فتبرع للفقراء بالمكافأة»..
فقال المولد وهو يهز يديه الركاب غاضباً:

«أية مكافأة يا أبي؟ ماذا تعني؟ ها أنت ذا مرة أخرى»..

وتنهذ الراهب.. فقد أفعمت المحنة نفسه بأشد أنواع السأم إذ
إنه من الممكن أن يثير الخوف المستمر مشاعر الملل في النفس كما
تثيرها الرحلة الطويلة الرتيبة. وأخيراً قال للمولد وهو يلكز الجواد
ليقف به بجانب الضابط:

«حسنًا.. سوف أصلي من أجلك»..

وقال المولد له بصوت مبتهج:

«وأنا أيضًا سأصلي من أجلك»..

والتفت الراهب وراءه حين كان جواده يستعد للهبوط في
الممر المنحدر بين الصخور، فرأى الرجل المولد واقفاً بمفرده بين

الأكواخ، فاتحًا فمه قليلًا، كاشفًا عن نابيه الطويلين.. وكان في وضع الذي يوشك أن يحتج أو يطالب بحق.. لعله الحق في اعتراف الناس بكاثوليكيته! وكانت إحدى يديه تحك أحد إبطيه. ولوح الراهب له بيده.. إنه لم يشعر نحوه بضغينة في تلك اللحظة؛ لأنه لم يكن يتوقع من الطبيعة البشرية أكثر من هذا، كما كان يشعر بلون من الرضى؛ ذلك لأنه لن يرى هذا الوجه الأصفر في لحظة الموت..

وقال الضابط للراهب:

«إنك رجل مثقف».

وكان راقداً في مدخل كوخ يقع على طريق الرحلة، ورأسه فوق قبعته المطوية، ومسدسه في متناول يده. وكان الليل قد أرخى سدوله، ولكن كلاً من الرجلين لم يستطع الاستغراق في النوم. فكان الراهب حين يتقلب في رقاده، يتأوه من تصلب عضلاته وتقلص بعضها.. وكان الضابط متعجلاً في طريق العودة، وقد ظل الركب سائراً حتى منتصف الليل بعد أن خلفوا وراءهم سلسلة الجبال وبدأوا يقطعون السهل الزاخر بالأعشاب البرية والمستنقعات التي قسمته - بسبب موسم الأمطار - إلى ممرات موحلة ضيقة.

وقال الراهب مجيباً على حديث الضابط:

«لا.. لست مثقفاً بالمعنى الصحيح.. فقد كان أبي أمين مخزن».

«أعني أنك سافرت للخارج.. فإنك تتحدث كأبي أمريكي.. ولا

شك أنك تعلمت في مدارس عليا..».

«نعم».

«لقد تعودت أن أفكر في الأشياء بنفسي ولنفسي.. ففي الحياة دروس كثيرة لا يمكن أن نتعلمها بالمدارس.. منها وجود الأغنياء والفقراء».

ثم أردف قائلاً وهو يخفض صوته:

«لقد قتلت رمياً بالرصاص ثلاثة رهائن بسببك.. إنهم مساكين.. وهذا ما دفعني إلى كراهيتك».

وقال الراهب معترفاً:

«نعم».

ثم حاول أن ينهض ليخفف من تقلصات عضلات الفخذ الأيمن.. وانتصب الضابط جالساً والمسدس في يده وهو يقول:

«ماذا تريد أن تفعل؟».

فعاود الراهب الجلوس وهو يقول متوجعاً:

«لا شيء.. مجرد تقلص في العضلات».

وعاد الضابط إلى حديثه عن الرهائن فقال:

«هؤلاء الرجال الذين قتلتهم بالرصاص.. هم من رجالي الذين أريد أن أقدم إليهم كل ما في العالم من خيرات».

«من يدري؟ فلعلك فعلت».

فبصق الضابط فجأة، بغضب كأنما شعر على لسانه بشيء كريه..
ثم قال:

«إن لديك دائمًا إجابات لا تعني شيئاً».

«إنني لم أكن شغوفاً بالقراءة والاطلاع.. فإن لي ذاكرة رديئة..
ولكنني أشعر دائماً بالدهشة والعجب كلما رأيت رجلاً مثلك.. فأنت
تكره الأغنياء.. وتحب الفقراء.. أليس كذلك؟»
«نعم».

«حسنًا.. فأنا إذن شعرت نحوك بالكراهية، فلن أربي ابنتي لتكون
مثلك.. ألا يتفق هذا مع المنطق؟»
«ولكنه منطق ملتو».

«ربما.. فإني لم أفهم آراءك كما ينبغي.. فنحن نقول دائماً إن
الفقراء مباركون، وإن من الصعب على الأغنياء أن يدخلوا الجنة!
فلماذا نجعل دخول الجنة عسيراً على الفقراء.. أيضاً! إنني أعلم أن
الواجب علينا أن نحسن إلى الفقراء.. ألا ندعهم يشعرون بالجوع؛ لأن
الجوع يغري الرجل بالشر، تماماً كالمال الكثير، ولكن.. لماذا نزود
الفقراء بالقوة والسلطان؟ من الأفضل أن ندعهم يموتون في الوحل ثم
يبعثون في الجنة، بشرط ألا ندفع بوجوههم في الوحل».

«إنني أكره تعليقاتك هذه.. ولست أريد مثل هذه التعليقات فإذا رأينا
رجلاً يتعذب، فإن أمثالك يفكرون ويبحثون عن التعليقات.. فتقولون
مثلاً: لعل هذا العذاب خير له، أو لعله أن يستفيد من هذا العذاب يوماً..

أما أنا فأريد أن أجعل قلبي - لا عقلي - هو الذي يفكر ويتحدث».

«يتحدث بلغة الرصاص!».

«نعم.. بلغة الرصاص».

«حسنًا.. لعلك حين تبلغ من العمر ما بلغت أنا، سوف تتبين أن قلبك هذا ليس إلا وحشًا غادرًا، وكذلك العقل.. ولكن العقل لا يتحدث عن الحب.. الحب..! قد تُغرق فتاة نفسها بعد أن تقتل ابنها من السفاح.. ثم يهتف القلب طول الوقت إنه الحب.. الحب..».

وخيم الصمت عليهما وهما راقدان.. وظن الراهب أن الضابط قد استغرق في النوم حتى سمعه يقول فجأة:

«إنك لا تتحدث بصراحة أبدًا.. فأنت تقول لي هذا عن الحب ثم تقول لرجل آخر أو امرأة: إن الله هو الحب. ولأنك ترى أن مثل هذه العبارات لا تؤثر في نفسي، فإنك تقول لي عبارات أخرى، عبادات تعتقد أنني سأتفق معك في صوابها».

«أوه.. إن هذا شيء آخر يختلف تمامًا عما كنا نتحدث فيه.. إن الله هو الحب.. هذه حقيقة، ولم أقل أنا إن القلب لا يشعر بمذاق هذا الحب.. ولكن أي مذاق؟ إن هذا المذاق يشبه قطرة من الشراب الجيد ممزوجًا بكمية من مياه المستنقع.. إننا لا ندرك هذا الحب الإلهي، بل لعلنا نشعر به أحيانًا كأنه كراهية.. إنه لمثير لأشد الرهبة.. هذا الحب الإلهي.. إنه يشعل الشجيرات نارًا في الصحراء.. أليس كذلك؟ ويحطم أحجار القبور ويفتحها ويبعث الأموات سائرين في

الظلمات.. أوه.. إن رجلاً مثلي لو شعر بهذا الحب حوله لانطلق يعدو بكل قواه من فرط الرهبة».

«إذن فأنت لا تثق في الله كثيرًا.. إنه في رأيك لا يحسن جزاء المخلصين في خدمته.. فلو أن رجلاً أخلص لي الخدمة كما أخلصت أنت له، لطلبت له ترقية، ولقررت له معاشًا، وإذا رأيته يتعذب أمامي من السرطان - مثلاً - لوضعت في رأسه رصاصة وأرحته».

فقال الراهب بصوت ملهوف وهو ينحني في الظلام معتمدًا على قدمه المخدرة:

«اسمع.. إنني لست كاذبًا خائنًا إلى الحد الذي تظنه بي.. أتعرف لماذا كنت أعظ الناس من فوق المنبر قائلاً لهم إنهم معرضون لخطر اللعنة الأبدية إذا ماتوا غير تائبين؟ إنني لم أكن أتحدث إليهم عن خرافات وأساطير لا أؤمن بها أنا! حقًا إنني لا أعرف شيئًا عن رحمة الله.. ولا أعرف مبلغ قسوة القلب البشري بالنسبة إلى رحمته سبحانه. ولكنني أعرف شيئًا واحدًا، وهو إذا مات أي شخص في هذه الولاية وقد حلت لعنة الله عليه، فسوف أموت أنا وهذه اللعنة عليّ أيضًا».

ثم أردف في بطاء وهدوء قائلاً:

«إنني لا أريد أن أتميز عن أحد.. إنما أريد العدالة.. هذا هو كل شيء».

وقال الضابط:

«لسوف نبلغ العاصمة قبل المساء».

وكان راكبًا جواده بجانب الراهب، وأمامه ستة من رجاله، ومن خلفه ستة، ولكنهم كانوا أحيانًا يسرون واحدًا وراء الآخر عندما يجتازون مكانًا ضيقًا بين فرعي نهر. ولم يكن الضابط يكثر من الحديث في هذه المرحلة الأخيرة من الرحلة، وقد حدث أن راح اثنان من رجاله يرددان أغنية عن صاحب متجر بدين وصاحبته، فطلب منهما - في عنف - أن يلتزما الصمت.. ولم يكن الموكب ينم عن النصر المؤزر.. فقد كان الراهب راكبًا جواده وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، كأنها قناع ملتصق عليه، وبذلك كان في مقدوره أن يفكر بهدوء دون أن يلاحظ أحد سمات التفكير عليه. وكانت أفكاره تدور حول الألم..

وفجأة قال الضابط بوجه شديد القطوب:

«أظن أنك تأمل في وقوع معجزة تنجيك؟».

«أرجو المعذرة.. ماذا تقول؟».

«أقول لعلك تتوقع حدوث معجزة؟».

«لا».

«إنك تؤمن بالمعجزات.. أليس كذلك؟».

«نعم.. ولكن ليس من أجلي.. إنني لست أفضل من أي إنسان..

فلماذا يحفظ الله حياتي؟».

«إنني لا أدري كيف يؤمن رجل مثلك بمثل هذه المعتقدات؟ إن الهنود الحمر يؤمنون بها.. ولهم العذر.. فقد ظنوا الضوء الكهربائي، حين رأوه أول مرة.. معجزة».

فقال الراهب وهو يضحك بغموض من خلف قناعه الباسم:

«ويمكن القول إنك أيضًا قد تؤمن بالمعجزات لو أنك رأيت أول ميت يبعث من قبره.. إن هذا عجيب.. أليس كذلك! إن المشكلة ليست في عدم وقوع معجزات وإنما هي إطلاق أسماء أخرى عليها حين تحدث.. ألا ترى الأطباء وهم وقوف حول رجل مات! إنه لم يعد يتنفس.. وتوقف النبض.. وضربات القلب.. إنه ميت.. ثم يجري أحد الأطباء عملية سريعة له.. فيحيا.. وعندئذ يقولون جميعًا.. ماذا يقولون.. إنهم يحتفظون برأيهم لأنفسهم.. إنهم لن يقولوا إن ما حدث معجزة؛ لأن كلمة «معجزة» لا يحبونها، ثم يتكرر هذا الحدث مرة بعد مرة.. لأن الله في كل مكان.. في الأرض وفي السماء.. إنهم يقولون إن ما حدث ليس معجزة.. إنما هو نتيجة لاتساع معلوماتنا عن أسرار الحياة.. وإننا نعرف الآن أنه يمكن أن تكون حيًا بغير نبض، أو تنفس، أو ضربات قلب.. وإنهم يبتكرون كلمة جديدة يعبرون بها عن هذه الظاهرة الجديدة من الحياة.. وهكذا يقولون إن العلم لا يعترف بالمعجزات».

ثم أرسل ضحكة خفيفة وهو يختتم حديثه بقوله:

«وهكذا لا تستطيع أن تقنعهم بشيء».

وكان الموكب قد خرج من ممر في الغابة إلى طريق من الأرض

الصلبة. وهكذا لكز الضابط جواده، فانطلق الجميع بجيادهم تجري خبياً.. وقال الضابط بصوت مغلول وقد أوشكت الرحلة على نهايتها: «إنك لست شريراً تماماً.. لو أن في مقدوري أن أسدي إليك...»
«إن في مقدورك أن تتيح لي فرصة الاعتراف».

وظهرت لهم المنازل في أطراف العاصمة.. ومنازل مشيدة من الطين، آيلة للسقوط، وبضعة أعمدة قديمة من الطين المطلي بالملاط.. وطفل قذر يلعب في كومة الهدم.
وقال الضابط:

«ولكن لا يوجد لدينا أحد من رجال الدين».
«بادر جوزيه».

فبدت نبرات الاحتقار في صوت الضابط وهو يقول:
«بادر جوزيه!! لا يصلح لك».

«إنه يصلح جداً.. فلليس من المحتمل أن أجد هنا قديساً.. أليس كذلك؟».

ولزم الضابط الصمت برهة حتى بلغ الموكب ساحة المدافن حيث تماثيل الملائكة الهاوية، المحطمة، ثم اجتازوا البوابة الكبيرة المكتوب عليها «سكون» وعندئذ قال:

«حسنًا.. لسوف أستدعيه لسمع اعترافاتك».

ولم يشأ الراهب أن يلتفت إلى المقابر وهو يمضي بجانبها، فقد

كان بها الجدار الذي يقف إليه المسجونون عند تنفيذ حكم الإعدام عليهم رميًا بالرصاص. وكان الطريق ينحدر نحو النهر.. وعلى اليمين، حيث كانت الكاتدرائية، شاهد الأراجيح الحديدية في مكانها خالية مهجورة لفرط حرارة الجو في وقت الظهيرة، وكان الشعور بالعزلة والخواء مخيمًا على كل شيء.. بل أكثر مما كان مخيمًا في منطقة الجبال؛ لأن الإنسان قد اعتاد أن يرى اضطراب الحياة في هذا المكان يومًا ما، كانت المدينة خالية الأنفاس، ومن النبض.. ومن ضربات القلب.. ولكنها، مع هذا، موفورة الحياة.. وما علينا إلا أن نبتكر اسمًا جديدًا لهذه الظاهرة! وكان ثمة صبي يرقبهم وهم يمرون.. وفجأة هتف للضابط قائلاً:

«هل قبضت عليه أيها الضابط؟».

وطافت بذهن الضابط ذكرى هذا الوجه الصغير.. ذات يوم.. في ساحة المدينة، والزجاجة تتحطم عند قدميه.. والأطفال يلعبون.. وحاول أن يبتسم للصبي.. ولكن ابتسامته جاءت مريرة.. أقرب إلى التكشيرة منها إلى أي شيء.. فهي خالية من لذة النصر ومن متعة الأمل..



الفصل الرابع

وانتظر الضابط حتى أرحى الليل أستاره ثم مضى بنفسه إلى بادر جوزيه.. فقد أدرك أنه من الخطر الشديد أن يكلف أحدًا غيره بهذه المهمة، وإلا انتشرت الأخبار في المدينة في اليوم التالي بأن بادر جوزيه قد سمح له بأداء بعض الواجبات الدينية داخل السجن. بل رأى ألا يخبر مدير البوليس بهذا الأمر أيضًا، فليس من الحكمة أن يضع الإنسان ثقته في رؤسائه عندما يكون هو أكثر نجاحًا منهم.. فهو مثلاً يعلم أن المدير لم يتهج عندما رآه ينجح في القبض على الراهب.. فقد كان يفضل لو استطاع الراهب أن ينجح في الهرب.

وشعر وهو في الفناء الخارجي لبيت بادر جوزيه أن عشرات من العيون ترقبه في الظلام.. إنها عيون الأطفال الذين تعودوا أن يتجمهروا ويهللوا حول بادر جوزيه كلما ظهر. وتمنى لو أنه لم يعد الراهب بشيء، ولكنه مصمم على أن ينفذ وعده أيًا كان الأمر، وذلك

حتى لا يدع خصومه يظهرن عليه في أي شيء سواء في الشجاعة أو الإخلاص أو العدالة..

ولم يجب أحد على طرقاته.. وكان واقفًا أمام باب الفناء كأنه رجل يلتمس إحسانًا أو إنصافًا.. ولما طرق على الباب مرة أخرى سمع صوتًا يقول:

«انتظر دقيقة.. دقيقة واحدة».

ثم ظهر وجه بادر جوزيه بين قضبان النافذة وهو يسأل:
«من هناك؟».

وكان يبدو عليه كأنما يبحث عن شيء في الأرض، وقال الضابط:
«ضابط بوليس».

فهتف بادر جوزيه بصوت كالصياح:

«أوه.. معذرة.. إنني أرتدي ملابس.. في الظلام».

ثم راح يشد شيئًا، وسمع صوت هذا الشيء ينقطع كأنه حزام، أو حمالة سراويل، وارتفع صياح الأطفال عبر الجانب الآخر هاتفين حين رأوه يقبل نحو الباب:

«بادر جوزيه.. بادر جوزيه».

وتمتم بادر جوزيه دون أن يلتفت إليهم:

«الأبالسة الصغار».

وقال الضابط:

«أريد منك أن تأتي معي إلى مركز البوليس».
«ولكنني لم أفعل شيئاً مطلقاً.. إنني حريص جداً على طاعة القانون».

وعاد الأطفال يصيحون:

«بادر جوزيه».

وقال هو في رجاء وتوسل:

«إذا كان الأمر يتعلق بدفن ميت.. فإن الذي وشى بي كاذب.. إنني منقطع حتى عن الصلاة...».

«بادر جوزيه.. بادر جوزيه.. بادر جوزيه».

واستدار الضابط نحو وجوه الأطفال المتجمعين وراء سياج الفناء وهتف بهم مغضباً:

«التزموا الصمت.. عودوا إلى مضاجعكم.. فوراً.. هل تسمعون؟».

وتراجع الواحد بعد الآخر عن الأنظار، ولكن، ما أن استدار الضابط بظهره إليهم حتى عادوا إلى أماكنهم يتفرجون. وقال بادر جوزيه:

«لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً مع هؤلاء الأطفال».

وسمع صوت امرأة تقول:

«أين أنت يا جوزيه؟».

«إني هنا.. يا عزيزتي.. إنه ضابط البوليس».

وأقبلت عليهما امرأة ضخمة الجسم في جلباب النوم الأبيض، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الساعة بكثير، وخطر للضابط - من ثم - أن المرأة تعيش دائماً داخل هذا الجلباب.. أو فوق السرير.. وقال وهو يضغط - بسرور - على كلمة «زوجك»:

«إن زوجك.. زوجك.. مطلوب في مركز البوليس».

«من قال هذا؟».

«أنا».

«إنه لم يفعل شيئاً!».

فقال الزوج:

«كنت أقول يا عزيزتي...».

فنهزته قائلة:

«سكوتاً.. دع الحديث لي...».

فقال الضابط لهما:

«ليكف كلاكما عن هذه الشرثرة.. إنك مطلوب يا بادر جوزيه للذهاب إلى مركز البوليس لتقابل رجلاً، راهباً.. يريد أن يعترف...».

«يعترف لي أنا؟».

«نعم».

«يا للمسكين!...».

وتململ في قلق وهو يرسل نظرة خاطفة إلى السماء حيث كانت بعض أطيّار الليل تمرق في صفحاتها. وقالت الزوجة له:

«إنك لن تذهب».

فقال متسائلاً:

«إن هذا مخالف للقانون.. أليس كذلك؟».

فقال الضابط:

«لا تقلق من هذه الناحية».

فالت الزوجة:

«ألا نقلق؟ إنني أدرك حقيقة أهدافك.. إنك لا تريد أن تدع زوجي وشأنه. إنك تريد أن توقع به.. أنا أعرف طبيعة عملك.. فأنت تدفع الناس ليطلبوا إليه أن يصلي من أجلهم.. إنه رجل هادئ شفيق، وأحب أن أذكرك أنه رجل يتمتع بمعاش حكومي!».

فقال الضابط ببطء:

«هذا الراهب الذي يريد أن يعترف كان يجاهد - سرّاً - منذ سنوات في سبيل دينكم.. وقد قبضنا عليه - طبعاً - وسوف يعدم رمياً بالرصاص غداً. إنه ليس رجلاً شريراً.. وقد وعدته برؤيتك.. يبدو أنه يعتقد أن الاعتراف سيفيده كثيراً!».

فقاطعت المرأة قائلة:

«إنني أعرفه.. إنه مجرد سكير.. لا أكثر».

فقال بادر جوزيه:

«يا للمسكين.. لقد حاول أن يختبئ هنا ذات مرة».

فقال الضابط:

«إني أعذك بأن أحداً لن يعرف».

فصاحت المرأة باضطراب:

«لن يعرف أحد! كيف؟ إن الخبر سيعم المدينة كلها.. انظر إلى هؤلاء الأطفال، إنهم لا يتركون جوزيه وشأنه أبداً».

ثم أردفت قائلة:

«إن هذا الأمر سيكون بداية لا نهاية لها.. لسوف يطالب الناس جميعاً بحق الاعتراف.. وسيبلغ الأمر إلى الحكومة في النهاية.. فتحررنا من المعاش».

فقال جوزيه:

«من يدري يا عزيزتي.. إن واجبي..».

فقالت له:

«إنك لم تعد راهباً.. إنك زوج لي.. وهذا هو واجبك الآن».

«إنني لا أستطيع أن أمكث هنا حتى تفرغا من الجدل.. هل أنت آتٍ معي؟».

فقالت المرأة تحذر زوجها:

«إنه لن يستطيع أن يرغمك على الذهاب».

«يا عزيزتي .. إن الأمر بسيط .. ثم إني .. من رجال الدين».

فهتفت المرأة بصوت مثل قافأة الدجاج:

«أنت من رجال الدين؟ أنت؟!».

وانفجرت في سلسلة من الضحكات أدهشت الأطفال المتفرجين،

ووضع بادر جوزيه أصابعه على عينيه كأنهما تؤلمانها .. ثم تمت:

«يا عزيزتي .. لا ..».

وواصلت المرأة ضحكها، بينما قال الضابط:

«هل أنت آتٍ؟».

فحرك بادر جوزيه يديه في يأس كأنما يقول: ما قيمة فشل جديد

في حياة كهذه، ثم قال:

«أعتقد أن هذا غير .. ممكن».

«حسنًا جدًا».

واستدار بسرعة .. فلم يعد لديه وقت يضيعه في طلب الرحمة.

وسمع بادر جوزيه يقول له بضراعة:

«قل له إني سأصلي من أجله ..».

وتشجع الأطفال حينئذ فهتف أحدهم قائلاً:

«هلم إلى الفراش يا جوزيه».

وضحك الضابط ضحكة بائسة أضيفت إل عاصفة الضحك التي

أحاطت ببادر جوزيه، وقد أخذ رنينها يحلق إلى الجو حيث طيور

الليل التي كان يأمل أن يعرف أسماءها يوماً.

فتح الضابط باب الزنزانة.. وكان الظلام في داخلها كثيفاً. وأغلق الباب وراءه بعناية، بالمفتاح، ثم قال وهو يضع يده على مقبض مسدسه:

«لقد رفض أن يأتي معي».

وكان الراهب مكوِّماً على نفسه في ركن الزنزانة المظلم كأنه طفل يلعب زاحفاً على الأرض. وقد قال:

«هل تعني أنه لن يأتي.. الليلة؟».

«أعني أنه لن يأتي إطلاقاً».

وساد السكون برهة، لم يكن يقطعه غير طنين البعوض المستمر واصطدام الخنافس بالجدران. وأخيراً قال الراهب:

«أظن أنه كان يخشى...».

«لم تسمح له زوجته بالحضور».

«يا للمسكين!».

وحاول أن يضحك.. ولكنها ضحكة كانت أقرب إلى البكاء، وكانت رأسه قد طمرت بين ركبتيه، فبدا في مظهر الرجل الذي تخلى عن كل شيء، وتخلى عنه كل شيء.

وقال الضابط له:

«يحسن أن تعرف كل شيء.. لقد تمت محاكمتك وصدر الحكم بإدانتك».

«ألم يكن من المستطاع أن أشهد محاكمتي؟».

«إن شهودك المحاكمة ما كان ليغير النتيجة».

وصمت برهة، ثم قال فجأة وهو يتكلف المرح:

«متى؟.. إذا كان لي أن أسأل؟».

«غداً».

وأسقطت هذه الإجابة السريعة الحاسمة قناع المرح الزائف عن وجه الراهب، فازدادت رأسه انحناء إلى حد لم يكن يستطيع أحد أن يراه- في الظلام- وهو يعض أظافره.. وقال الضابط:

«من القسوة أن تظل وحيداً في ليلة كهذه.. إذا أردت أن تنقل إلى الزنزانة العامة».

«لا لا.. إني أفضل أن أبقى بمفردي.. فلدي الكثير مما يجب أن أؤديه».

ثم تقطعت أنفاسه كأنه مصاب ببرد شديد، وعاد يقول:

«ومما يجب أن أفكر فيه».

«إني أحب أن أسدي إليك بعض الخدمات.. لقد أحضرت لك بعض الخمر».

«رغم أنف القانون!».

«نعم».

«جميل منك هذا.. جميل جدًّا».

ثم تناول الزجاجة الصغيرة واستطرد يقول:

«أعتقد أنك في غنى عن هذه.. وأنا في حاجة إليها لأنني دائمًا كنت أخشى الألم».

«لسوف نموت جميعًا في يوم ما.. وليس من المهم في قليل أو كثير متى يكون هذا اليوم».

«إنك رجل فاضل.. ليس ثمة ما تخاف منه».

فقال الضابط بلهجة احتجاج:

«ما أعجب ما لديك من آراء.. يخيّل إليّ أحيانًا أنك تحاول أن تطويني».

«أطويك؟».

«نعم.. لكي أدعك تهرب. أو لكي أنضم إلى كنيستك الكاثوليكية المقدسة، وأؤمن بمجمع القديسين وما إلى هذا؟».

«ألا تريد أن تغفر لك ذنوبك؟».

«إنك شخصيًا لا تؤمن كثيرًا بمسألة غفران الذنوب.. أليس كذلك؟».

فقال الراهب بصوت كله اليقين والعناد:

«أوه.. بل أؤمن».

«إذن.. لماذا تشعر بكل هذا الخوف؟».

«إنني لست جاهلاً كما ترى.. فقد كنت أعرف دائماً ما أنا فاعل..

ومن ثم لن أستطيع أن أسامح نفسي...».

«أكان الحال يختلف لو أن الأب جوزيه وافق على الحضور؟».

وكان عليه أن ينتظر برهة غير وجيزة قبل أن يسمع الإجابة.. فلما سمعها لم يفهمها، ذلك أن الراهب قال:

«أمام رجل آخر.. يجعل الأمر سهلاً».

«أليس من شيء آخر أقدمه لك؟».

«لا.. لا شيء».

وفتح الضابط الباب، ووضع يده على مقبض المسدس بطريقة آلية، وخامره شعور بالاكْتئاب، كأنما القبض على آخر رجل دين ووضع في السجن، قد حرمه من أي شيء يفكر فيه. لقد همدت القوة المحركة لنشاطه، وإنه ليستعيد في ذهنه أسابيع المطاردة على أنها فترة سعيدة مثيرة قد انتهت إلى الأبد.. لقد شعر بأنه لم يعد لديه أي هدف يحققه. لكنما الحياة انحسرت عن العالم كله. وأخيراً قال في شفقة مُرة- لأنه لم يستطع أن يثير في نفسه أي لون من الكراهية للراهب-:

«حاول أن تنام».

وفيما هو يغلق الباب سمع الراهب يهتف به في صوت كله الفزع:

«لفتنانت؟».

«نعم...».

«لقد رأيت أشخاصًا يعدمون رميًا بالرصاص .. مثلي».

«أجل».

«هل كانوا يتألمون .. فترة طويلة؟».

«لا لا .. مجرد لحظة».

قالها بخشونة وأغلق الباب وسار في الفناء ذي الجدران المطلية بالجير، ومضى إلى مكتبه حيث كانت صورة المجرم الأمريكي، بجانب صورة الاجتماع الديني لم تزالا معلقتين على الجدار .. وانتزعهما بعنف .. إذ لم يعد ثم داع لبقائهما، ثم جلس إلى مكتبه ووضع رأسه على يديه، واستغرق في النوم من فرط التعب .. ولم يستطع فيما بعد أن يذكر شيئًا من أحلامه فيما عدا الضحك .. الضحك المتصل .. وممر طويل لم يجد فيه أو منه مخرجًا.

وجلس الراهب على أرضية الزنزانة، ممسكًا بزجاجة الخمر، وبعد برهة، فض سدadtها ورفعها إلى فمه. ولكن لم يكن للكحول أي تأثير في نفسه، وكأنما هو قراح. وأعاد الزجاجة إلى الأرض، وبدأ في لون من الاعتراف الشامل هامسًا لنفسه: «لقد ارتكبت كل الكبائر ..» ولكن هذه العبارة المألوفة لم تكن تعني بالنسبة إليه شيئًا .. وكأنما هي جملة في صحيفة يومية .. ومن ثم فهو لا يستطيع أن يشعر بالندم وهو يردد عبارة مألوفة مستعملة كهذه .. وبدأ مرة أخرى فقال:

«لقد اتصلت بامرأة».

وحاول أن يتخيل ما يقوله الراهب الآخر الذي يعترف أمامه: «كم

مرة؟ هل كانت متزوجة؟» «لا؟».

ومد يده دون أن يشعر وتناول زجاجة البراندي وشرب منها جرعة أخرى. وعندما لمس السائل لسانه، تذكر ابنته وهي آتية إليه من خارج الكوخ، بوجهها البائس، المتحدي، الشرير. وقال بحماس:

«يا إلهي.. كن في عونها.. صب عليّ جام غضبك؛ فأني خليق به. ولكن دعها هي تعش طاهرة إلى الأبد».

هذا هو الحب الذي كان يجب أن يشعر به نحو كل إنسان في الحياة، إن كل مخاوفه وكل محاولاته لإنقاذ أرواح الناس تجمعت وتركزت كلها- بغير وجه حق- في طفلة واحدة، وشرع يبكي. إنه يشعر كأنما هو واقف على الشاطئ يرقبها وهي تغرق ببطء لأنه نسي كيف يسبح لإنقاذها. وفكر لنفسه: هذا هو ما كان يجب أن أشعر به دائماً نحو كل إنسان. ثم حاول أن يحول مجرى تفكيره إلى الرجل المولد ذي النابين، وإلى الضابط، وحتى إلى طبيب الأسنان الذي جالسه فترة وجيزة، وإلى الصبية كورال في إدارة شركة الموز وإلى سلسلة من الوجوه التي راحت تتزاحم في مخيلته وكأنها تدفع باباً ثقیلاً لا يريد أن يفتح؛ ذلك لأن أصحاب تلك الوجوه جميعاً في خطر أيضاً. وراح يبتهل «كن في عونهم يا رب» ولكن تفكيره يرتد بسرعة- في لحظة الدعاء- إلى ابنته وهي جالسة بجانب مستودع القمامة. وهكذا أدرك أنه- من أجلها هي فقط- يبتهل بالدعاء إلى الله.. وأن هذا لفشل جديد..

وبعد برهة، بدأ محاولة الاعتراف، قائلاً:

«وقد أسرفت في شرب الخمر إلى حد السكر.. لا أدري كم مرة..
وليس هناك واجب لم أهمل في أدائه.. وقد كنت متكبرًا، لا أعرف
الكرم والرحمة».

وشعر بأنه عاد يردد كلمات مألوفة كثر استعمالها في مثل هذه
المناسبة.. كلمات فقدت معانيها لكثرة الاستعمال.. فليس أمامه
راهب يعترف إليه ويحول أفكاره عن العبارات المألوفة المستعملة
إلى الحقائق..

وشرب جرعة أخرى من البراندي، ثم نهض في ألم بسبب تقلص
عضلات ساقيه، ومضى نحو الباب وراح ينظر من خلال القضبان إلى
الفناء السابح في ضوء القمر وفي حرارة الجو.. وإلى رجال البوليس
النائمين في السرر المعلقة، وإلى وحد منهم، عز عليه النوم، فراح
يؤرجح السرير من جانب إلى آخر. وكان ثمة سكون غريب يخيم على
كل شيء، حتى على الزنانات الأخرى، وكأنما العالم كله قد أشاح
بوجهه - في لباقة - حتى لا يراه وهو يعدم.. وأخذ يتحسس طريقه
بجانب الجدار إلى أقصى ركن في الزنانة، وهناك جلس والزجاجة
بين ركبتيه، وأخذ يفكر: لو لم أكن هكذا غير ذي نفع.. غير ذي نفع!!
إن الثمانية أعوام السود العجاف بدت له كأنها صورة شوهاء من
الخدمة الدينية: مجرد اجتماعات دينية قليلة، وقليل من الاعترافات،
وكثير من القدوة السيئة التي كأنها.. وعاد يفكر مرة أخرى: «لو أنني
أنقذت روح إنسان واحد فقط.. حتى أستطيع أن أقول: انظروا ماذا
فعلت!».

ولكن الناس كانوا يموتون في سبيله، ومن ثم فإنهم جديرون
بقديس. وإن لذعة من المرارة والألم تنتشر في عقله من أجله لأن
السماء لم تر أنهم جديرون بقديس يقوم بينهم، وإنما بادر جوزيه
وأنا.. وتناول زجاجة البراندي وشرب جرعة أخرى، وفكر في وجوه
القديسين وهم يرفضونه بينهم ببرود..

وكانت الليلة أطول من تلك التي قضاها في السجن في المرة
السابقة لأنه، في هذه المرة، وحيد إلا من البراندي فقط، الذي أتى عليه
في نحو الثانية بعد منتصف الليل، والذي كان كفيلاً بأن يتيح له فرصة
النوم. كان يشعر بالخوف الشديد، وكانت معدته تتلوى، وفمه جافاً،
وبدأ يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع بعد أن عجز عن احتمال السكون
المطبق من حوله. وراح يشكو في صوت بائس: «إن هذا كله شيء
جميل، بالنسبة للقديسين».

ثم عاد يقول بعد برهة: «من أين له أن يعرف أن الألم لن يستغرق
أكثر من لحظة؟ وما هي اللحظة؟».

ثم شرع يبكي وهو يضرب رأسه برفق في الجدار، إنهم أتاحوا لبادر
جوزيه الفرصة، ولكنهم حرموه هو من أية فرصة على الإطلاق. ولعلمهم
أخطأوا في حقه لمجرد أنه اختفى عنهم هذه السنوات! لعلمهم ظنوا أنه
سيرفض - في إصرار - الشروط التي قبلها بادر جوزيه.. أي الخضوع
لقانون الزواج؛ لأنه معروف بالكبرياء ومن يدري؟ فلعله ينجو من الموت
لو اقترح هو عليهم أن يقبل الزواج. وطامن هذا الأمل من مخاوفه بعض
الشيء، وهكذا استغرق في النوم ورأسه معتمد إلى الجدار..

ورأى فيما يرى النائم حلماً عجيباً! رأى أنه جالس إلى خوان مقهى أمام محراب مرتفع في كاتدرائية. وكانت أمامه على الخوان نحو ستة أطباق، وكان يأكل بنهم وشهية، وكان يشم رائحة عطر مركز ويشعر بنشوة غريبة، أما الطعام، كأى طعام في الأحلام، فلم يكن له مذاق قوي.. ولكنه كان يشعر أنه حين يفرغ من هذه الأطباق الستة، سيقدم إليه أعظم طبق وأشهاه، وكان ثمة قس يروح ويحيى أمام المحراب يلقي موعظة القديس، ولكنه لم يكن - هو - يحفل به. وكأنما القديس لم يعد يهتم في شيء. وأخيراً فرغت الأطباق مما بها، ودق شخص جرس المذبح، وركع القس الواعظ على ركبتيه ورفع القربان بين يديه، ولكنه ظل - هو - جالساً، ينتظر، غير مهتم بصورة المسيح فوق المذبح، وكأنه مسيح خاص بآناس غيره، وليس به، ثم إذا بالكأس الموضوعة على خوانه تبدأ في الامتلاء بالخمير، فرفع رأسه، ورأى الصبية كورال تقوم على خدمته وهي تقول له:

«لقد أتيت لك بها من غرفة أبي».

«إنك لم تسرقها؟».

«لا.. ليس تماماً».

وكانت تتحدث بصوتها الهادئ المتزن.. وقال:

«جميل منك هذا.. لقد نسيت الرموز.. ماذا كنت تسميها؟».

«إشارات مورس».

«ماذا كانت.. هذه الإشارات: ثلاث نقرات طوال، وواحدة قصيرة»

وفي الحال سمع صوت هذه النقرات. ورأى القس بجانب المحراب ينقر.. وجميع من في قاعة الكاتدرائية ينقرون.. ثلاث طوال.. وواحدة قصيرة.. وسأل الصبية:

«ما هذا؟».

«أخبار».

وكانت - وهي تتحدث إليه - تحدد فيه بهذه النظرات التي تنم عن الجد والاتزان وإدراك المسؤولية..

وحين استيقظ كان الفجر قد تبلى.. وقد استيقظ وهو يشعر بأمل كبير لم يلبث أن تلاشى عند أول نظرة ألقاها إلى فناء السجن. لقد أسفر صبح يوم إعدامه، وزحف على الأرض وزجاجة الخمر الفارغة في يده وحاول أن يتذكر فصلاً من كتاب التوبة وقال: «يا إلهي إنني آسف.. وأسألك الغفران عن كل ذنوبي.. ومهما يكن أمري فإني جدير بعذابك الشديد..».

وشعر بالاضطراب، والارتباك.. فقد كان عقله مشغولاً بأفكار أخرى، لم يكن من بينها فكرة هذه الميته الرائعة التي يتمناها كل إنسان، ووقعت نظراته على خياله المرتسم فوق جدار الزنزانة.. إنه ينم عن الدهشة والتفاهة المضحكة.. لشد ما كانت حماقته حين اعتقد أنه له من القوة ما يجعله يبقى بعد فرار زملائه.. وأخذ يفكر: أي إنسان أحرق أنا؟ لا نفع فيه! إنني لم أقدم أية خدمة لأي إنسان، وكأنني لم أعش على سطح هذه الأرض يوماً..

لقد مات والداه.. وعما قليل لن يصبح هو شيئاً ولو مجرد ذكرى..
ومن يدري، فلعله - فعلاً - لا شيء.. أو مجرد شيء خلق للجحيم..
وانهمرت الدموع من عينيه، إنه لم يكن في تلك اللحظة خائفاً
من عذاب الآخرة، بل إن خوفه من ألم الموت قد تراجع عن ذهنه،
وإنما هو يشعر باستياء شديد لأنه سوف يلتقي ربه خالي الوفاض.. لم
يفعل شيئاً على الإطلاق.. وقد بدا له - في تلك اللحظة - أنه كان من
السهل عليه جداً أن يصبح قديساً.. كان الأمر يحتاج فقط إلى قليل من
الشجاعة، وضبط النفس.. إنه يشعر كأنه شخص كان على موعد مع
السعادة الأبدية، فذهب متأخراً بضع ثوان. إنه الآن يدرك أن أمراً واحداً
له أهميته الكبرى في النهاية - وهو أن يغدو الإنسان قديساً..



الجزء الرابع

كانت مسز فيلوز راقدة في غرفتها الحارة بالفندق، تنصت إلى صفير زورق في النهر. ولم يكن في مقدورها أن ترى شيئاً لأنها كانت تضع على عينيها وجبينها منديلاً مبللاً بماء الكولونيا.. وصاحت فجأة: «يا عزيزي.. يا عزيزي».

ولكن أحداً لا يجيب.. وهكذا أحست أنها مدفونة - أبداً - في قبر هذا السرير العائلي الكبير، وحيدة فوق وسادتين، وتحت الكلة، ومرة أخرى هتفت بكلمة «عزيزي» وراحت تنتظر، وعندئذ سمعت صوت الكابتن فيلوز يقول لها:

«نعم يا تركسي.. لقد كنت نائماً.. أحلم..».

«ضع مزيداً من ماء الكولونيا على المنديل يا عزيزي.. إن راسي يوشك أن ينفجر».

«حسناً يا تركسي».

ورفع المنديل عن وجهها، وكان يبدو في سمت الرجل العجوز
المتعب الملول.. رجل ليست له هواية.. وسار نحو منضدة الزينة
وبلبل المنديل بماء الكولونيا.

وقالت له زوجته:

«لا تضع كثيرًا عليه.. فإنه قد تمضي أيام عديدة قبل أن نحصل
على زجاجة أخرى».

ولما لم يجب، قالت بحدة:

«هل سمعت ما قلت لك يا عزيزي؟ أليس كذلك؟».
«أجل..».

«إنك كثير الصمت هذه الأيام.. فأنت لا تدري شعور الإنسان
حين يكون مريضًا.. وحيدًا..».

«حسنًا.. إنك تعرفين السبب».

«ولكننا اتفقنا يا عزيزي - أليس كذلك - على أن نتجنب الحديث
في ذلك الموضوع إطلاقًا.. يجب ألا نستسلم للعلل النفسية..».
«نعم».

«إن لنا حياتنا التي يجب أن نحياها».

«أجل».

وأقبل نحو الفراش، وأعاد وضع المنديل على عيني زوجته، ثم
جلس على مقعد، ومد يده تحت الكلة وأمسك بها. وكان منظرهما

كمنظر طفلين ضائعين في مدينة كبيرة، دون رعاية شخص كبير رشيد.

وسالته قائلة:

«هل أحضرت التذاكر؟».

«نعم يا عزيزتي».

«يجب أن أنهض بعد قليل وأعد الحقائق.. ولكن رأسي تؤلمني
جداً.. هل أخبرتهم ليجمعوا الصناديق؟».

«نسيت...».

فقالت في صوت واهن مكتئب:

«عليك الآن أن تفكر في كل شيء؛ فلم يعد هناك من يفكر أو ينظم
لنا».

وخيم الصمت عليهما فجأة بعد أن نطقت بعبارة لم يكن ثمة
سبيل لاجتنابها..

وفجأة قال هو:

«إن ثمة هياجاً شديداً بالمدينة اليوم».

«أقامت الثورة؟».

«لا.. لقد قبضوا على أحد رجال الدين وسوف يعدمونه- أو
لعلهم أعدموه- هذا الصباح.. يا للمسكين.. إنني لا أملك نفسي
من التساؤل؟ هل هو نفس الراهب الذي أخفته كورال.. أعني الذي
أخفيناه ذات يوم عن أعين البوليس؟».

«هذا احتمال بعيد».

«لماذا؟».

«لأنه يوجد كثير من القساوسة والرهبان».

وترك يدها، ومضى نحو النافذة حيث أخذ يطل منها على الزوارق وهي تنساب فوق سطح النهر، وعلى الحديقة العامة الصغيرة ذات التمثال النصفي، وعلى عقبان الجو في كل مكان. وأخيرًا قالت مسر فيلوز:

«ليس هناك ما هو أجمل من الاستعداد للعودة إلى الوطن.. فقد كان يخيل لي أحيانًا أنني سأموت في هذا المكان».

«طبعًا لا يا عزيزتي».

«ولكن الناس يموتون».

فقال في تجهم وحزن:

«نعم.. إنهم هنا يموتون».

فقالت له بصوت حاد:

«لا! لا تنس يا عزيزي العهد الذي قطعناه».

ثم تنهدت وأردفت قائلة:

«يا لآلام رأسي!».

«هل ترغبين في تناول بعض المسكنات؟».

«إنني لا أدري أين وضعت أقراص الأسبرين.. وعلى كل حال

فليس ثمة شيء في موضعه...».

«هل أخرج لأحضر لك قليلاً منها؟».

«لا لا.. إنني لا أحتمل البقاء بمفردي».

ثم أردفت بصوت من البهجة المصطنعة:

«أعتقد أنني سأصبح كما ينبغي حين نعود إلى الوطن.. فهناك
سأجد الطبيب البار الذي يعالجني.. فأنا أحياناً أعتقد أن مرضي شيء
أخطر من مجرد الصداع، هل أخبرتك أنني تلقيت رسالة من نورا؟».
«لا».

«أعطني النظارة يا عزيزي وأنا أقرأ لك.. ما يخصنا فيها».

«إن النظارة على جانب السرير».

«نعم.. نعم».

وكان أحد الزوارق الشراعية قد أفلح عن المرساة، وبدأ ينساب
منحدرًا في مجرى النهر الطامي نحو البحر.. وسمع زوجته وهي تقرأ
في رضى:

«عزيزتي تريكسي ما أشد آلامك.. إن هذا المجرم...».

ثم أمسكت عن القراءة بسرعة، وعادت تقرأ بعد أن تجاوزت
بضعة أسطر:

«.. وبطبيعة الحال سوف تقيمين مع زوجك العزيز تشارلس في
منزلنا حتى تجد المسكن المناسب.. هذا إذا لم يكن لديكما مانع من

دفع الإيجارة مناصفة».

فقال الكابتن فيلوز فجأة في خشونة:

«إنني لن أعود إلى الوطن».

«إن نصف الإيجار لا يتجاوز ستة وخمسين جنيهاً في العام، مع غرفة حمام خاصة للخدم».

«لسوف أبقى هنا».

«يا لك من عنيد، ما هذا الذي تقول يا عزيزي؟».

«إنني لن أعود إلى وطني».

«لقد أكثرنا الجدل في هذا الموضوع، يا عزيزي، وأنت تعرف أن البقاء هنا سيقضي عليّ».

«ليس هناك ما يرغموك على البقاء».

«ولكنني لا أستطيع العودة بمفردي.. ماذا تقول نورا عندئذ؟ إن هذا الإصرار منك يثير العجب!».

«إن الرجل هنا يستطيع أن يجد عملاً يقوم به».

فقالت مسز فيلوز وهي ترسل ضحكة باردة:

«جمع محصول الموز؟ أهذا عمل؟ ومع ذلك فأنت لا تحسنه».

فاستدار نحوها في غضب شديد وهتف قائلاً:

«إنك لا تهتمين إلا بنفسك.. أليس كذلك.. لقد هربت بنفسك

تاركة إياها».

«إنها لم تكن غلطتي.. فلو أنك كنت موجودًا ساعة وقوع الحادث...».

ثم راحت تبكي وهي مكومة على نفسها تحت الكلة، وأردفت قائلة:

«إنني لن أعود إلى بلدي على قيد الحياة».

وتقدم في تعب نحو السرير، وأخذ يدها في يده، وهو يدرك أنه لا جدوى من هذا كله.. لقد أصبحت وحيدتين في صحراء الحياة، فلا مندوحة من البقاء معًا.

وقالت هي:

«إنك لن تتركني وحيدة.. أليس كذلك يا عزيزي؟».

وكان جو الغرفة مفعماً بعطر ماء الكولونيا.. وأجاب هو:

«لا يا عزيزتي».

«هل أدركت الآن شذوذ موقفك؟».

«أجل...».

وخيم عليهما الصمت برهة غير وجيزة، بينما كانت شمس الصباح تتحرك صاعدة إلى كبد السماء فيزداد جو الغرفة حرارة خانقة، وأخيرًا قالت مسز فيلوز:

«يا عزيزي!».

«نعم».

«فيم تفكر؟».

«كنت أفكر فقط في ذلك الراهب.. كان رجلًا عجيبيًا مشغوفًا
بالخمر.. ترى أهو الذي صدر الحكم بإعدامه اليوم؟».

«إذا كان هو، فأني أعتقد أنه خليف بهذا المصير».

«ولكن العجيب في الأمر هو طريقة الحياة التي كانت تحياها بعد
أن عرفته وأخفته من أعين البوليس.. وكأنما هو قد علمها شيئًا...».

فقالت في صوت متهالك جاف وهي راقدة في فراشها:

«عزيزي.. لا تنس العهد».

«نعم، إنني آسف.. وإني أحاول أن أتجنب ذكرها.. ولكن ذكرها
تمتزج دائمًا بأحاديثنا».

«حسب كل منا أنه مع الآخر».

وسقطت الرسالة من يدها وهي تدير رأسها إلى الجانب الآخر،
بعيدًا عن ضوء الصباح الساطع.

ونعود إلى المستر بنش، طبيب الأسنان، فنراه منحنيًا على الحوض
الصيني يغسل يديه بالماء والصابون المعطر ويقول بإسبانيته الراكية:
«لا داعي للخوف.. يمكنك أن تقول بصراحة إنها تؤلمك».

وكانت غرفة مدير البوليس قد جهزت بأدوات طب الأسنان. وقد
تكلف المدير نفقات فادحة لجعلها كعيادة مؤقتة.. لأنه لم يدفع فقط

نفقات إحضار المستر تنش إلى العاصمة لعلاجها، وإنما أحضر معه مقعد خلع الأسنان وعدداً غير قليل من الصناديق الصغيرة التي يبدو أن أكثرها لا يحتوي إلا على كميات من القش، كما يبدو أنها لن تعود.. فارغة!

وقال مدير البوليس:

«إنني أتألم منها منذ أشهر.. ولعلك لا تتصور مبلغ الألم!..»

«لقد أخطأت في عدم استدعائي إليك سريعاً.. إن حالة فمك خطيرة.. ومن حسن حظك أنك لم تصب بالبيوريه».

وانتهى من غسل يديه، ووقف برهة يفكر والمنشفة في يده، فقال له المدير:

«ماذا بك؟».

واضطرب المستر تنش ثم أقبل على أدواته يعدها، وراح المدير يرقبه في جزع وهو يقول:

«إن يدك ترتعد بشدة يا مستر تنش.. فهل أنت واثق بأنك على ما يرام اليوم؟».

«إنه عسر الهضم.. وفي بعض الأحيان أرى أمام عيني بقعاً سوداء كثيرة وكأنني أضع على وجهي نقاباً أسود».

ثم وضع الإبرة في المثقاب، وحرك مقبضه وطلب من المدير أن يفتح فمه إلى مداه، ثم دس بين الأسنان كمية من القطن حتى لا ينطبق الفك، ثم قال:

«إنني لم أر في حياتي أسوأ من فمك.. إلا مرة واحدة».

وحاول المدير أن يتكلم.. ولكن المستر تنش استطرد يقول وهو مطمئن إلى أن أحدًا لن يقاطعه:

«ولكنه لم يكن مريضًا جاء للعلاج.. وإنما كان راهبًا.. ولعله قد عولج الآن، فإنكم تعالجون كثيرًا من الناس في هذه الأيام.. بالرصاص».

وراح يعمل في فم المدير وهو يحاول أن يجعل الحديث متصلًا، فيذكر كيف كان الحال يجري في مسقط رأسه بإنجلترا، فيقول:

«لقد حدث لي أمر عجيب قبل أن آتي إلى هنا بزمان وجيز.. تسلمت رسالة من زوجتي التي لم أعرف عنها شيئًا منذ.. منذ عشرين عامًا.. ثم إذا أنا فجأة...».

وانحنى على فم المدير وراح يعمل بالمثقاب في عنف.. وأخذ المدير يضرب الهواء بيديه وهو يتوجع، وأخيرًا قال المستر تنش وهو يرفع المثقاب:

«ابصق كل ما في فمك الآن.. آه.. زوجتي.. أليس كذلك.. ذكرت في رسالتي أنها انضمت إلى مذهب ديني.. أو إلى جمعية في أكسفورد، ولست أدري ماذا تفعل في أكسفورد.. وقد قالت إنها صفحت عني.. وتريد أن يتخذ الأمر بيني وبينها صبغته الشرعية.. أي الطلاق.. أعني.. لقد صفحت عني».

ثم ظل واقفًا، شارد الذهن، والمثقاب في يده.. ثم تجشأ ووضع

يده على بطنه وأخذ يضغط ويضغط كأنما يبحث عن ألم خفي موجود دائماً في مكان ما بأمعائه. وتهالك مدير البوليس في مقعده متعباً مفتوح الفم..

وقال المستر تنش وقد نسي تماماً ما كان يتحدث فيه:

«إن هذا الألم يغدو ويذهب.. ولكنه، طبعاً، ليس إلا عسر هضم.. وإلا أنه يحرمني من متعة الحياة».

وشرع ينظر باكتئاب إلى فم المدير المفتوح، وكأنه يرى قطعة زجاج لامع في السن الفاسدة. وأخيراً بدا كأنه يستجمع كل إرادته، ثم انحنى على الفم وشرع يعمل فيه مثقابه الذي راح يئز وينشر، يئز وينشر.. وجمد المدير في مكانه، وتشبث بمسندتي مقعده، بينما راحت قدم المستر تنش ترفع وتهبط وهي تحرك جهاز المثقاب. وكان المدير يرسل أصواتاً غريبة وهو يحرك يديه، فيقول له المستر تنش: «تماسك وتجلد.. تجلد.. لقد أوشكت أن أنتهي.. آه.. ها قد انتهى كل شيء.. يا إلهي.. ما هذا؟».

ثم ترك المدير ومضى نحو النافذة، وأطل منها على الفناء، حيث رأى فصيلة من جنود البوليس يشرعون بنادقهم، فقال وهو يضع يده على بطنه:

«أهي ثورة أخرى؟».

فانتصب المدير في جلسه وقال وهو يبصق قطعة من القطن:

«لا.. طبعاً.. وإنما هو رجل سيعدم رمياً بالرصاص!».

«لماذا؟».

«خيانة عظمى».

«كنت أظن أنكم تنفذون هذه الأحكام.. هناك.. في المقابر».

ودفعه لون من الفضول الرهيب إلى البقاء بجانب النفاذة.. فهذا منظر لم يسبق أن رآه في حياته.. وراح هو - وعقبان الجو - ينظرون إلى الفناء، بينما قال المدير:

«رأينا أنه من الأفضل تنفيذ الحكم هنا هذه المرة، وذلك خوفاً من هياج الرأي العام، فالتناس هنا جهلة».

وأقبل رجل ضئيل الحجم من باب جانبي يمسك به اثنان من رجال البوليس، وكان يبذل جهده ليسيّط على أعصابه، ولكن ساقيه كانتا ترتعدان رغماً عنه، وسبق إلى الجدار المواجه لفصيلة الجنود، وربط أحد الجنود منديلاً حول عينيه. وقال المستر تنش لنفسه: «ولكنني أعرف هذا الرجل، يا إله السماء.. يجب أن يفعل الإنسان شيئاً من أجله.. فكأنما أرى جاراً لي يعدم رمياً بالرصاص».

وسمع مدير البوليس وهو يقول له:

«ماذا تنتظر؟ إن الهواء يدخل في سنتي».

ولم يكن ثمة ما يمكن أن يفعله بطبيعة الحال.. كان كل شيء يجري بسرعة آلية رتيبة: فقد تراجع الضابط جانباً، ورفع الجنود بنادقهم وصوبوها.. وبدرت من الراهب حركات بسيطة بذراعيه كأنما يحاول أن يقول شيئاً! ترى ما هي العبارة المفروض أن يقولها الإنسان في هذه

الحالة؟ لا شك أنها عبارة مألوفة مستعملة! ولكن حلق الرجل الضئيل كان، كما يبدو جافاً.. فلم تصدر منه غير كلمة واحدة «معذرة».

واهتز المستر تنش بعنف لدوي الطلقات النارية المفاجئ، وكأنما صدى هذه الطلقات يتردد في أحشائه.. وأحس بالتقزز والسقم.. وأغمض عينيه. فلما فتحهما، شاهد ضابط البوليس يعيد مسدسه إلى جرابه بينما أصبح الرجل الضئيل مجرد كومة بجانب الجدار.. مجرد نقاية مهملة تحتاج إلى الإزالة. وتقدم اثنان من العمال بسرعة في الفناء.. وخيل إلى المستر تنش أن ما يرى ما هو إلا ساحة مصارعة بعد مقتل الثور.. فلم يبق ما يستحق المشاهدة.

وتأوه مدير البوليس في مكانه قائلاً:

«الألم.. ما أقسى الألم».

ثم أخذ يرجو المستر تنش ليسرع إليه، ولكن هذا كان واقفاً بجانب النافذة ذاهلاً كالمعتاد، شارد الذهن، وقد وضع يده فوق بطنه كأنما لا يزال يبحث عن الألم الخفي، وكان في تلك اللحظة، يذكر هذا الرجل الضئيل نفسه وهو ينهض من مقعده في العيادة ليمضي، في ذلك الأصيل الحار الملتهب، مع الصبي الذي جاء يقول إن أمه مشرفة على الموت وفي حاجة إلى طبيب.. واختلطت بذهنه ذكريات صورة ولديه.. ورشاشة الزرع الخضراء، والقلب الذي أراد أن يصنعه من الرمل لطاقم أسنان مكسور..

وتوجه مدير البوليس قائلاً:

«متى ستبدأ الحشو؟».

وتحولت نظرات المستر تنش إلى الذهب الموضوع على الصحن الزجاجي.. إنه العملة الدولية.. لسوف يصير على أن يكون أجره بعد اليوم عملة أجنبية.. ففي هذه المرة ينوي أن يرحل.. يرحل نهائياً.. وعاد كل شيء إلى موضعه في الفناء، وراح رجل ينثر الرمال بالجاروف كأنما هو يردم قبراً.. ولكن لم يكن ثمة قبر هناك.. ولا أي أحد.. وغمر المستر تنش شعور بالوحشة والرغبة ضاعف من آلام عسر الهضم، فقد كان الرجل الضئيل يتحدث الإنجليزية ويعرف بعض الشيء عن أبنائه.. وأحس المستر تنش فجأة أنه - أيضاً - ترك وحيداً في صحراء الحياة.

وكتمت الفتاتان أنفاسهما من فرط اللهفة عندما سمعتا الأم وهي ترفع صوتها برنين الفوز قائلة:
«والآن.. قد حل يوم الاختبار العظيم..».

وحتى الغلام، الذي كان واقفاً بجانب النافذة، أبدى شيئاً من الاهتمام وهو ينظر إلى الشارع المظلم الخالي، فقد كان يعرف أن هذا هو الفصل الأخير.. والأحداث عادة تجري في الفصل الأخير بعنف وسرعة.. ولعل أن تكون الحياة هكذا.. ملل في أولها، ثم بطولة واهتياج في النهاية..

واستأنفت الأم قراءتها قائلة:

«وعندما دخل مدير البوليس في زنزانة جوان، رآه راكعًا على ركبتيه يصلي، إنه لم يذق النوم في ليلته الأخيرة.. وإنما قضاها يعد نفسه للاستشهاد.. كان هادئًا، سعيدًا، مبتسمًا لمدير البوليس وهو يسأله: هل جاء ليمضي به إلى الوليمة الإلهية، وحتى ذلك الرجل الشرير، الذي أعدم الكثيرين، لم يملك نفسه من التأثر».

وفكر الغلام لنفسه: آه لو أنها أسرعت بالقراءة إلى الموقف الأخير.. إلى تنفيذ حكم الإعدام بالرصاص.. إن أخبار إطلاق الرصاص تثيره دائمًا.. وإنه دائمًا ينتظر في شوق.. الضربة القاضية.. الخاتمة!

«وسيق جوان إلى فناء السجن.. وفي خلال هذه المسافة القصيرة بين الزنزانة وجدار الإعدام، ترى هل حاول جوان الصغير أن يتذكر تلك السنوات القليلة السعيدة التي عاشها بشجاعة؟ هل تذكر أيامه في المعهد العالي، وزجر المعلمين ونصائحهم، والنظام التام، وأيام المرح عندما كان يقوم بدور نيرون أمام الأسقف العجوز.. لقد كان نيرون بجانبه الآن.. وساحة الإعدام هي ملعب الرومان القديم».

وتهدج صوت الأم وهي تتحسس في سرعة الصفحات الباقية، ورأت أن في مقدورها الفراغ منها، فراحت تقرأ بسرعة مطردة:

«وعند وصول جوان إلى الجدار، استدار وبدأ يصلي.. لا من أجل نفسه، وإنما من أجل أعدائه.. من أجل هذه الفصيلة من الجنود-

الهنود الحمر - الأبرياء الذين يواجهونه، بل ومن أجل مدير البوليس نفسه.. ورفع الصليب إلى مدى المسبحة الموضوعة حول عنقه وأخذ يبتهل إلى الله ليغفر لهم، وينير قلوبهم، ثم يهديهم في النهاية - كما هدى سول جلاد المسيح - إلى مملكته الأبدية».

وسأل الغلام أمه:

«هل حشى الجنود البنادق بالرصاص؟».

«ماذا تعني بقولك هذا؟».

«أعني لماذا لم يطلقوا النار عليه ليوقفوا دعاءه؟».

«لأن الله لم يكن قد أذن بعد».

ثم تنحنحت واستطردت في القراءة قائمة:

«وأصدر الضابط أمره بإعداد السلاح.. وعندئذ أشرق وجه جوان بابتسامة كلها السعادة والحب والتقديس.. وكأنما هو يرى مملكة الله تفتح أبوابها لاستقباله.. وقد كان دائماً يخبر والدته وأخواته أنه سيدخل الجنة قبلهم. وكان يقول باسمًا لأمه، تلك الزوجة الفاضلة: «لسوف أعد لك مكانًا في الجنة» وجاءت اللحظة الأخيرة، وأصدر الضابط الأمر بإطلاق النار».

وراحت الأم تقرأ بسرعة متزايدة لأن موعد نوم الفتاتين قد فات، ولأن نوبة من الفواق «الزغطة» قد أصابتها واستطردت تقول:

«وأصدر الضابط الأمر بإطلاق النار».

وظلت الفتاتان جالستين في هدوء جنبًا إلى جنب، يكاد النوم

يغلب عليهما. فقد كان هذا هو الجزء الذي لم تهتما بأمره كثيرًا. وكانتا تتحملان سماعه من أجل الأجزاء الأخرى التي منها كيف كان جوان يهوى التمثيل المسرحي بالمدرسة، والاجتماعات الدينية الأولى والأخت التي أصبحت راهبة وجاءت تودع أهلها في الفصل الثالث.

وعادت الأم تكمل قراءتها قائلة:

«الأمر بإطلاق النار.. ورفع جوان يديه إلى أعلى رأسه وصاح بصوت ثابت قوي شجاع للجنود وللبنادق المشرعة: «سلامًا يا سيدي المسيح..» وفي اللحظة التالية سقط مصابًا بانتهى عشرة رصاصة وانحنى الضابط فوقه.. ووضع فوهة المسدس على أذنه وضغط على الزناد».

وانساب من ناحية النافذة صوت الغلام وهو يتنهد. وعادت الأم تقرأ:

«ولم يكن ثمة داع لإطلاق رصاصة أخرى؛ لأن روح البطل الصغير كان تركت مسكنها الأرضي. وكانت الابتسامة السعيدة المرتسمة على الوجه الميت تخبر أولئك الرجال الجاهلين أين ذهب جوان الآن. وقد بلغ تأثر أحد هؤلاء الرجال من موقف جوان أن راح - سرًا - يغمس منديل في دم الشهيد. وقد تحول هذا المنديل إلى مئات من الأحجبة والتمايم المقدسة التي وجدت طريقها إلى بيوت أهل الروع والتقوى.. والآن...».

وأسرعت الأم تقول وهي تصفق بيديها:

«إلى الفراش!».

وقال الغلام:

«والراهب الذي أعدموه اليوم.. هل هو بطل أيضًا؟».

«الراهب الذي قضى الليلة معنا في ذلك الحين؟».

«نعم.. إنه أحد شهداء الدين».

فقالت إحدى الفتاتين:

«لقد كانت تنساب منه رائحة عجيبة».

«يجب ألا تقولي هذا مرة أخرى، أبدًا، فربما كان هذا الراهب أحد

القديسين».

«هل نبتهل لالتماس بركاته إذن؟».

فترددت الأم برهة قبل أن تقول:

«لا بأس.. ولكن.. يجب طبعًا أن تقع بعض المعجزات قبل أن

تثبت قداسته».

وقال الغلام:

«هل صاح عند موته قائلاً: سلامًا يا سيدي المسيح؟».

«نعم.. فإنه أحد أبطال الدين».

«وهل بلل أحدهم منديله بدمائه؟».

فقالت الأم في تجلد:

«لدي من الأسباب ما يجعلني أعتقد هذا.. فقد أخبرني السيدة جيمينز، وأعتقد لو أن أباك أعطاني بعض المال لأمكنني شراء قطعة من هذا المنديل».

وهل تشتري مثل هذه القطعة بالمال؟».

«نعم.. هذا ما يجب أن يكون.. فليس في وسع كل إنسان أن يحصل على قطعة منه».

«أجل».

وترجع جالسًا على قاعدة النافذة، يمد بصره إلى الخارج، ويسمع وراء ظهره حركات أختيه الصغيرتين وهما تستعدان للنوم. وشعر بمختلف الانفعالات تجيش في صدره وهو يذكر أنه شاهد، في هذا المنزل بطلًا، وإن لم يبق بينهم غير أربع وعشرين ساعة.. وكان آخر الأبطال.. فلم يبق بعده رجال دين بالولاية.. لا ولا أبطال.. وشرع ينصت في استنكار إلى وقع أقدام أحد رجال البوليس يقترب على طوار الشارع.. إن الحياة العادية تضطرب حوله. وإنه يهبط من قاعدة النافذة ويتناول سمعته: زاباتا.. فيللا.. ماديرو.. والباقون، لقد ماتوا كلهم.. وإن الذين قتلوهم رجال كهذا الشرطي المقبل.

لقد شعر أنه خذل وخدع..

وكان السائر على الطوار في تلك اللحظة هو ضابط البوليس نفسه. وكان وقع أقدامه ينم عن الخيلاء والعناد وكأنما هو يقول في

كل خطوة: «لقد فعلت ما فعلت» ورفع عينيه إلى النافذة ونظر إلى الغلام الواقف والشمعة في يده، وبدا عليه أنه يعرفه.. ثم قال لنفسه: «لسوف أفعل أكثر من هذا لأجله.. ولأجلهم، نعم.. أكثر من هذا.. لن تكون الحياة- أبداً- بالنسبة لهم كما كانت بالنسبة لي» ولكن الحب الناري الذي كان يحرك أصبعه دائماً على زناد مسدسه، تلاشى فجأة وأصبح كأنه لم يكن.. وقال لنفسه: لسوف يعود هذا الحب إلى صدري مرة أخرى.. إنه كحب النساء، يدور في حلقة مفرغة، هكذا أقنع نفسه في الصباح.. إنه مجرد شعور بالشبع! وابتسم في شحوب إلى الغلام الواقف في النافذة وقال له: «طاب مساؤك» وكان الغلام في تلك اللحظة ينظر إلى جراب المسدس وكان الضابط يستعد في ذاكرته ما حدث في ساحة المدينة ذات يوم حين سمح لأحد الغلمان بأن يلمس مسدسه.. ولعله أن يكون هذا الغلام نفسه.. وابتسم مرة أخرى ولمس المسدس بيده كأنما يقول للغلام إنه يذكر أيضاً ما حدث في ذلك اليوم بالساحة، وجعد الغلام وجهه ثم بصق من خلال قضبان النافذة في قوة ودقة، بحيث سقط جزء من بصقته على مقبض المسدس!

وعبر الغلام الردهة إلى غرفة النوم التي كانت تحتوي على سرير حديدي ينام فيه مع والده. وكان ينام هو في ناحية الجدار وينام أبوه في الناحية الخارجية بحيث إذا جاء متأخراً في الليل، نام دون أن يوقظ ابنه. وخلع الغلام حذاءه وراح ينضو عنه ملابس النهار في اكتئاب وهو يسمع همسات الصلاة في الغرفة الأخرى. لقد شعر أنه خدع وأنه

شديد الاستياء لأنه فقد شيئاً ما.. وراح يحدق في السقف وهو راقد على ظهره في الجو الحار وقد خيل إليه أنه لم يعد في الدنيا شيء غير متجر أبيه، وأمه القارئة، والألعاب التافهة في ساحة المدينة.

ولم يلبث غير قليل حتى استغرق في النوم، فرأى فيما يرى النائم أن ذلك الراهب الذي أعدموه رمياً بالرصاص في الصباح، قد حمل إلى المنزل في الملابس التي كان أبوه قد أعارها له، ووضع على الفراش جثة هامدة، استعداداً للدفن، وجلس الغلام بجانب الفراش بينما راحت أمه تقرأ في كتاب كبير جداً كيف كان الراهب يمثل دور يوليوس قيصر أمام الأسقف. وكان ثم وطاب من السمك عند قدمي الأم، وكانت الدماء تنساب من سمكة ملفوفة في منديل يدها.. وشعر هو بالملل وبالتعب الشديد وبأن شخصاً ما يدق المسامير في تابوت موضوع بالدهليز، وفجأة رأى الراهب القليل يغمز له بعينه.. إنها حركة مؤكدة من جفن العين تشبه الغمز تماماً..

واستيقظ من نومه على صوت طرق مستمر على سماعة الباب الخارجي، ولم يكن والده على الفراش بجانبه، وكان السكون مخيمًا في الغرفة الأخرى، ولم يكن شك في أن بضع ساعات من الليل قد انصرمت. وظل راقدًا ينصت وهو يشعر بالخوف، وبعد فترة وجيزة، سمع الطرق مرة أخرى على الباب الخارجي، ولم يتحرك أحد داخل المنزل.. وهبط من الفراش في تكاسل، فلعل أن يكون الطارق والده، وقد نسي مفتاحه الخاص. وأوقد شمعة، ولف بطانية حول جسمه، ووقف ينصت مرة أخرى. فلعل أن تسمع أمه الطرق وتمضي لفتح

الباب، ولكنه كان يوقن في نفسه أن عملية فتح الباب تقع على عاتقه هو.. فهو «الرجل» الوحيد بالبيت..

وراح في بطاء يقطع الردهة الخارجية نحو الباب الخارجي.. لعله ضابط البوليس جاء يثار منه لبصقه على مقبض المسدس. ورفع القضيب الحديدي الثقيل الخاص بإغلاق الباب من الداخل، وفتح الباب.. ورأى رجلاً غريباً يقف في الطريق.. طويلاً شاحباً نحيل الجسم، وقور السمات، يحمل حافظة أوراق صغيرة، وذكر للغلام اسم والدته وسأله هل هذا هو بيت السيدة؟ ورد الغلام بالإيجاب ثم قال إنها نائمة. وشرع يغلق الباب، ولكن الرجل الغريب حال دون إغلاقه بحذائه المدبب وهو يقول:

«لقد هبطت المدينة الآن، وقد جئت إليها الليلة عن طريق النهر، وخطر ببالي.. حسناً، إن معي خطاب تعريف من صديقة لها حميمة..». «إنها نائمة».

وقال الرجل وقد ارتسمت على شفثيه بسمه غريبة تنم عن الخوف: «لو أنك تسمح لي بالدخول؟».

ثم أردف قائلاً وهو يخفض صوته: «إنني راهب».

فهتف الغلام قائلاً في دهشة: «أنت!!».

فقال الرجل في رفق:

«نعم.. إنني ادعى الأب....».

ولكن الغلام كان قد بادر بفتح الباب على مصراعيه ثم وضع
شفتيه على يد الراهب قبل أن يذكر هذا اسمه...

انتهت
